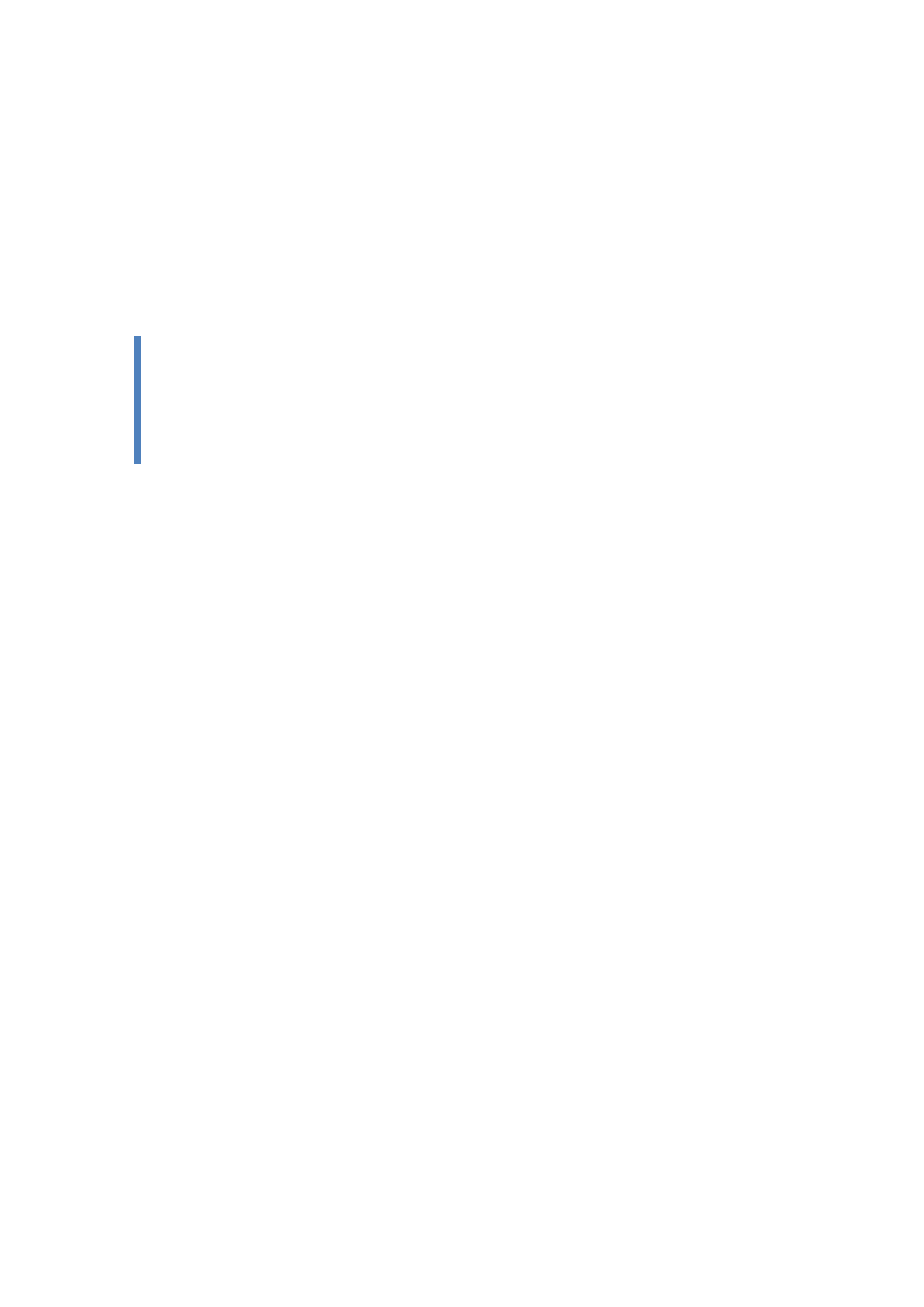


المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة البحث العلمي



سلسلة الرسائل الجامعية
-٦٣-

# الأخلاق بين المدرستين السلفية والفلسفية

## ( مسكويه وابن القيِّم نموذجاً )

إعداد
د. عبدالله بن محمد العمرو
عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة بالرياض

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

hasan
[اختر التاريخ]

ح جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العمرو، عبدالله بن محمد
الأخلاق بين المدرستين السلفية والفلسفية: مسكوية وابن القيم نموذجاً
عبدالله بن محمد العمرو.- الرياض، ١٤٢٧هـ .
٣١٤ ص؛ ١٧×٢٤سم . (سلسلة الرسائل الجامعية، ٦٣)
ردمك: ١- ٦٥٩- ٠٤ - ٩٩٦٠
١- الأخلاق الإسلامية أ. العنوان
ديوي ٢١٢ ١٤٢٧/٨٥٠
رقم الإيداع: ١٤٢٧/٨٥٠
ردمك: ١- ٦٥٩- ٠٤ - ٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

# تقديم عميد البحث العلمي

**الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين، أما بعد :**

فإن الأخلاق أس التعامل وأصله ، والأزمة في الأخلاق أزمة أمم ، ومنبعها الأفراد ، الذين يشكلون المجتمعات ، ويعطون الصورة التي هي عليها منها ولها ، ولذا كانت العناية بالحديث عن الأخلاق متقدِّمة ، وللأسلاف به اهتمام، إدراكاً منهم لأهمية الخلق على السلوك الفردي والاجتماعي ، ومحاولة منهم لرفع القيم من خلال المعايير التي نظروا منها إلى الخلق ، فمنهم من نظر إليها بمنظار فلسفيٍّ ، وتحدث عنها بإسهاب وألف فيها وكتب ، وحظيت كتبه بمطالعات ومراجعات وتقريرات مختلفة، ودرَّسها بعض المعاصرين إعجاباً بها ، وقناعة بأهمية الخلق في ظل أزمة الأخلاق القديمة الحديثة، المتجدِّدة بتجدد الأزمنة واختلاف الناس ، مع ما في بعضها من مواطن الخلل ، وصنفٌ آخر نظر إلى الأخلاق بمنظورٍ شرعيٍّ، وأصَّلها تأصيلاً مبنياً على الدليل من الكتاب والسنة وأقوال الأسلاف ، ووقف مع الأخلاق وقفات متأنية ، وعرض لها عرضاً متعمِّقاً ، من الصنف الأول مسكويه المتوفى ٤٢١هـ ، ومن الصنف الثاني ابن قيم الجوزية – رحمه الله تعالى –، ولهذا جاء هذا العمل ليقدِّم دراسة علميَّةً موازنة في جملة من أهم مباحث **الأخلاق بين المدرسة السلفية والاتجاه الفلسفي** .

هذا العمل تقدَّم به **الدكتور/ عبدالله بن محمد العمرو لنيل درجة الدكتوراه من قسم الثقافة الإسلامية في كلية الشريعة بالرياض** ، وحاز

على مرتبة الشرف الأولى تقديراً لجهوده في رسالته التي بناها على تمهيدٍ وثلاثة أبوابٍ وخاتمة ، تناول في الباب الأول منها مفهوم الأخلاق ومصادرها ، والباب الثاني أسس الأخلاق وخصائصها ، والباب الثالث تحدث فيه عن معيار الأخلاق والإلزام الخلقي ، ولخص في الخاتمة أبرز النتائج التي تبدت له في عمله، وعقبها ببعض الآراء التي خرج بها من البحث.

وها نحن في عمادة البحث العلمي نضع هذا العمل بين أيدي القراء الفضلاء تواصلاً في العلم ، وتكاتفاً لسدِّ باب من أبواب أزمات متلاحقة ، ومن أبرزها أزمة الأخلاق في هذا العصر ، التي وصلت وعثاؤها وغبارها إلى طبقات المجتمع كافة ، فبدا على الأخلاق ما بدا ، وظهر منها ما كنا ننكره في غابر الأيام ، إنها أزمة حقيقية على مستوى الطالب والأستاذ ، بل على جميع المستويات ، نسأل الله سبحانه وتعالى منها المخرج .

وأسأل الله سبحانه وتعالى للباحث الكريم د. عبدالله العمرو التوفيق والسداد ، وأن يمده بعونه وفضله وتوفيقه في جميع أعماله العلمية.

**وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .**

**تركي بن سهو العتيبي**

# مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن للأخلاق في الإسلام مكانة عالية، ومنزلة رفيعة، لأهميتها البالغة في بناء الفرد وتوجيه سلوكه، وتماسك المجتمع، وتعاون أفراده وتعايشهم في أمن واستقرار، وحب وتكاتف وتعاون. ولذا جاء في الكتاب والسنة الكثير من الأوامر والتوجيهات الخلقية، بل قال -عليه الصلاة والسلام: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[1].

ولأهمية هذا الجانب من جوانب الشريعة تتجدد الحاجة إلى معالجة قضاياه، وإبراز معالمه وتأصيل الدراسة فيه استمداداً من الكتاب والسنة، واسترشاداً بأقوال علماء الأمة الذين أفنوا أعمارهم في دراسة الشريعة ومعرفة أسرارها وغاياتها ومقاصدها.

ولقد كان لكثير من المذاهب التي وجدت في ساحات الفكر في البيئة الإسلامية إسهام في الجانب الخلقي من صوفية ومتفلسفة وغيرهم، وحيث إن

(١) أخرجه أحمد والحاكم والبخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في شعب الإيمان، وابن سعد في الطبقات، وفي بعض الروايات (( بعثت لأتمم صالح الأخلاق ))، الفتح الرباني (٩/٧٥) دار الشهاب – القاهرة. المستدرك (٢/٦١٣) دار المعرفة – بيروت. وانظر: الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة(١/٧٥) المكتب الإسلامي- بيروت ط٢ سنة١٣٩٩هـ.

لكل مذهب طريقاً ومنهجاً وأصولاً يعتمد عليها في استمداده وفي دراسته وتحليله، فقد جاءت دراساتهم وتحليلاتهم الخلقية متأثرة بمناهجهم وأصولهم التي يعتمدونها.

وبسبب ما اعترى بعض هذه الأصول من خلل فقد امتد ذلك إلى تراثهم وآثارهم في باب الأخلاق، فجاءوا بنظريات وآراء يبعد بعضها كل البعد عن هدي الكتاب والسنة.

وعلى الرغم من ذلك فقد وجدت هذه الدراسات رواجاً وقبولاً لدى كثير من الدارسين والباحثين، وبخاصة لدى المشتغلين بالدراسات الفلسفية ذات الوجهة الاستشراقية. بل لقد تجلت عناية عدد من الباحثين في هذا المجال بما صدر عنهم من بحوث منهجية ودراسات ومؤلفات اعتنت بتلك المذاهب وبفكرها الخلقي بوجه خاص، كالدراسات الكثيرة والمتعددة عن الغزالي، وابن الخطيب والفارابي وابن سينا وغيرهم.

ولم تلق المدرسة السلفية -في مقابل هذا- ما تستحق من الدراسة المتعمقة، والعناية والاهتمام، ومحاولة تجديد ذلك الفكر الأصيل المستمد من الكتاب والسنة، والمعتمد فيما يصدر عنه ويهدف إليه على القواعد الشرعية وضوابطها.

ولذا آثرت أن أقوم بدراسة مقارنة بين ما صدر عن عالمين ممن لهما عناية بارزة في مجال الأخلاق على أن يكون أحدهما من المنتمين للمدرسة السلفية. وقد وقع اختياري على مسكويه وابن القيم.

أما مسكويه فهو من المنتسبين للفلسفة، وممن لهم عناية بالأخلاق دراسة وتأليفًا. وقد قيل عنه"إنه أكبر باحث عربي في الأخلاق"[1]. وكان كتابه (تهذيب الأخلاق ) من جملة الكتب التي تقرها برامج التعليم في المدارس المصرية في أوائل القرن الميلادي الماضي، كما كان الشيخ محمد عبده يدرسه للخاصة من طلبة الأزهر في بيته[2].

وأما العلامة ابن القيم فهو من أبرز علماء السلف الذين عنوا بالأخلاق دراسة وتحليلاً وتأليفًا. وقد تأملت ما له من دراسات في هذا المجال فوجدت أنها بلغت من الكثرة والمتانة مرتبة تستحق معها العناية تسجيلاً وتحليلاً ودراسة.

ثم إن له بجانب هذا الاهتمام بهذا المجال من غزارة العلم ودقة الفهم، ومتانة الأسلوب وجمال العبارة، والوقوف مع النصوص ما يجعل العناية بآثاره من أجل الأعمال وأعظمها أثرًا وثمرة.

أما عن الدراسات السابقة حول هذا الموضوع؛ ففيما يخص مسكويه فقد اهتم عدد من الباحثين بآرائه وأفكاره الخلقية، كما وجد عناية من المستشرقين كايكرك، وباسيه، ومارجليوث، وديبور، الذين تحدثوا عن مسكويه ولفتوا الأنظار إلى الكثير من المسائل حول فلسفته ومصادره، وإن كانت بالجملة دراسات مقتضبة لا تكفي في بيان شخصية مسكويه وجوانب تفكيره المتعددة[3].

---

(١) أحمد أمين: كتاب الأخلاق ص١٥٨ .

(٢) د.عبد العزيز عزت: ابن مسكويه فلسفته الخلقية ومصادرها ص ٣٥٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٤.

ولعل أوسع دراسة عنه تلك التي قام بها د.عبد العزيز عزت في كتابه (ابن مسكويه: فلسفته الخلقية ومصادرها) والتي أطال فيها بالحديث عن مسكويه وعصره والمصادر عنه. كما اجتهد في تتبع مؤلفاته، وبسط فلسفته الخلقية، والمصادر التي استقى منها.

وقد أشار في خاتمة القسم الأول من كتابه إلى بعض الملحوظات المهمة على مسكويه وفكره، والتي منها:

- مبالغته في التعويل على العقل البشري واعتقاده أن في وسع الإنسان أن يضع دستورًا يحقق له الكمال المطلق والسعادة القصوى.
- ومنها بعد تفكير مسكويه عن الدين، فهو لايرى مسؤولية الإنسان عن أوامر الشريعة ونواهيها لإمكان استغنائه بعقله، كما يظهر ابتعاده عن الدين في إغفاله للجزاء الأخروي أو عدم إيمانه به، ففكرة الجزاء عنده فكرة فلسفية تتعلق بما يفرضه الإنسان على نفسه من عقاب، وينبني على هذا أن السعادة عنده سعادة دنيوية لا تتعلق بعالم آخر غير عالمنا، ولا تمتد لحياة أخرى[١].

ورغم الجهد الكبير الذي بذله الباحث في دراسته إلا أنه لم يتجاوز في حديثه عن فلسفة مسكويه الخلقية العرض والتحليل لآرائه وأفكاره دون أن يتناولها بالدراسة والتقويم[٢].

---

(١) المرجع السابق ص٣٥٠-٣٥١، وقد بالغ د.عبد العزيز عزت في هذا ، والحق أن مسكويه يؤمن بالجزاء الأخروي ولكنه يرى أنه إنما يحصل على الروح دون الجسد . ويأتي زيادة تقرير لهذا عند الحديث عن عقيدة مسكوية .

(٢) وسبب ذلك أنه سلك منهجاً يتضمن الدعوة إلى بسط أفكار الفيلسوف مع ربط أجزاء فلسفته ببعض وإخراجها في صورة متكاملة تمحو ماقد يبدو أحياناً متناقضاً في أرائه .مع

ومـن الدراسات المفيدة ما جاء في كتاب (فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلـسفة الإغريقية) لمحمد يوسف موسى، فقد عرض لمسكويه في المقالة الثالثة؛ فتحدث بإيجاز عن سيرته، ثم عرض لآرائه الخلقية، وأقواله في الفضيلة وأقسامها وطبيعـتها وعـن صـلتها بالـنفس. ثـم تحـدث عـن الـسعادة عند مسكويه، وعن اتجاهاتـه في بحـوثه ومـؤلفاته والـتي يظهـر مـنها- كما يقول- نزعته الاجتماعية والعملية إضافة إلى التوفيق بين الآراء والمذاهب المختلفة..

وأخـيرًا تحـدث عـن صلة مسكويه بالثقافات القديمة، فبين متابعته للفلاسفة اليونان في كثير من القضايا التي درسها، ومنها أمهات الفضائل الأربع، ووسطية الفضيلة وغيرها. وهذه الدراسة بحق أفضل ما كتب عن مسكويه وفكره الخلقي مما تيسر الاطلاع عليه.

---

= ملاحظـة صـلات فلـسفته بالفلـسفات الـسابقة ومـا تفـرع مـنها مـن أفكار أثرت في الدراسات اللاحقة . ودون اختبار للفلاسفة أو تقييد لأفكارهم بوضعها في قوالب معينة، أو نقـدها مـن خـلال معايير محدودة .وهو في هذا يتابع –كما يقول – ( جون ديوي ) الفليسوف الأمريكي، وجيو الفرنسي ، وأستاذه لاسباكس.

انظـــر: ابـــن مـــسكويه، فلـــسفته الأخلاقـــية ومـــصادرها ص ٢٣٢-٢٣٤.

والحق أنه إن صح هذا المنهج بالنسبة لهم أو كان له مايسوغه فليس الأمر كذلك للباحث المسلم الذي يملك من منطلق نصوص الكتاب والسنة، وإيحاء العقل والفطرة معياراً صادقاً يستطيع من خلاله أن يحكم على جهود الآخرين ، ويبرز مافيها من حق وصواب، ويميز مافيها من خلل أو دخل .

وبهـذا الطـريق وحـده يكـون الـباحث قـد جعـل مـن جهـود غيره درجة نافعة في سلم الـبحث، يـستلهم المتأخـر مـنها مـواطن القوة فينسج على منواله ، ويتعرف على مواطن الضعف فيسلم من المتابعة فيه أو التعويل عليه .

ومـع هـذا كله فقد بقيت أجزاء مهمة في أفكار مسكويه الخلقية بحاجة إلى التجلية والدراسة.

أمـا ابـن القيم فلم تحظ آراؤه في مجال الأخلاق بما تستحقه من العناية ومن الإفراد بالدراسة، بالرغم من وفرة الدراسات حوله، وكثرة ما كتب عنه.

ولعـل أهـم مـا كـتب حـوله - ممـا تيسر الوقوف عليه- ما جاء في كتاب (الفكر التربوي عند ابن القيم)[1]، حيث تحدث مؤلفه في أحد فصوله عن التربية الخلقـية عـند ابـن القـيم، فذكـر فـيه طـرفًا من أقواله في أساليب التربية الخلقية، وأمهـات الفـضائل، وبعض الفضائل الخلقية. وقد اجتهد في إبراز آراء ابن القيم حول هذه المسائل.

كمـا جـاء في كـتاب (الأخـلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام)[2]، ذكر لأقـوال ابن القيم في مسألة اكتساب الخلق وطرقه، وعرض لموقفه من النظريات الخلقية عند الفلاسفة، ودراسة لخلق الصبر عنده.

كمـا تـضمن كـتاب (ابـن قـيم الجوزية - عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائـد والتـصوف)[3] بعـض الفـوائد عـن موقـف ابـن القـيم مـن التـصوف، واختـياراته في مـسألة التحـسين والتقبـيح، وهـي مـسألة ذات صـلة وثيقة بمعيار الأخلاق.

ومـع هـذا فهي دراسات سريعة ومقتضبة لا تعبر عن اهتمامات الإمام ابن القيم بهذا المجال، وآثاره المتينة وتحقيقاته القيمة فيه، ولا تغني عن الدراسة المتأنية لها.

---

(١) للدكتور /حسن الحجاجي ص ٣١٣-٣٤٣ .

(٢) للدكتور مصطفي حلمي ص ١٩٨-١١٣.

(٣) للدكتور عبد السلام شرف الدين ، انظر:ص٣٨١،٤٠٠ .

وبعد؛ فأرجو أن يتحقق من خلال هذا البحث:

- تقديم دراسة علمية مقارنة - في جملة من أهم مباحث الأخلاق، بين المدرسة السلفية والاتجاه الفلسفي، أبين من خلالها أصالة دراسات السلف وعمقها، وإسهامهم المتفرد في مجال الأخلاق، كما أسعى إلى إلقاء الضوء على ما في الاتجاه الفلسفي المقابل من مواطن الخلل.
- الوقوف على الأسباب الرئيسة المؤدية إلى الضعف أو الانحراف في الدراسات الخلقية، والتي من أهمها الانحراف في مصادر الاستمداد.
- توجيه الأنظار إلى جهود علماء المسلمين ودراساتهم الأصيلة وأبحاثهم القيمة في هذا الجانب المهم من جوانب التشريع، ولاسيما مع وجود التوجه من الجامعات الإسلامية إلى العناية بالأخلاق وتدريسها.

## خطة البحث:

جاء هذا البحث في تمهيد، وثلاثة أبواب، يتضمن كل واحدٍ منها فصلين، وخاتمة.

أما التمهيد: فعرفت فيه بمسكويه وابن القيم، كما تحدثت عن عصر كل منهما، وأهم الاتجاهات والمؤثرات فيه.

وقد حرصت في هذا على الإيجاز، ولاسيما في ترجمة الإمام ابن القيم لوفرة ما كتب عنه وتيسره، بل ووجود دراسات موسعة عن حياته وسيرته ومؤلفاته.

كما ألمحت في الشق الآخر من التمهيد لجهود المتقدمين في الأخلاق، متلمسًا صور العناية بها منهم، واتجاهات البحث والدراسة - إن وجدت- لديهم.

وأما الباب الأول: فبحثت فيه "مفهوم الأخلاق ومصادرها" وذلك في فصلين:

## الفصل الأول: مفهوم الأخلاق:

عرفت في أول مباحثه الأخلاق في اللغة وفي الاصطلاح، وذكرت أبرز ما قيل في تعريف الخلق، والمختار في تعريفه.

ثم ذكرت تعريف الخلق وطبيعته ومجالاته عند مسكويه وابن القيم، ثم قارنت - في المبحث الرابع - بينهما في ذلك كله.

## الفصل الثاني: مصادر الأخلاق:

وتناولت المصادر التي كانت شائعة في عصر مسكويه وابن القيم، مع بيان مدى استفادتهما منها في آرائهما الخلقية وهي الوحي واجتهادات علماء السلف، إضافة إلى الفكرين الفلسفي والصوفي، مع بيان أثرها في كل منهما. ثم بينت في آخر مباحث هذا الفصل الموقف الصحيح من كل واحد من هذه المصادر.

## الباب الثاني: وهو عن "أسس الأخلاق وخصائصها"

تحدثت في الفصل الأول منه عن أسس الأخلاق عند مسكويه وابن القيم، وهي لا تخرج عن ثلاثة أسس: هي الأساس الإيماني، والأساس الفطري، والأساس الحاجي. فبينت مكانتها عند كل منهما، ثم فصلت القول في هذه الأسس مبينًا آثارها في البناء الخلقي، ولزوم رعايتها وتعاهدها، وتوجيه ما يحتاج منها إلى توجيه.

وفي الفصل الآخر: تناولت خصائص الأخلاق عند مسكويه وابن القيم فبينت ما اتفقا فيه من الخصائص وما تفرد به أحدهما، مع الدراسة المقارنة بين أقوالهما في هذا الشأن.

**وأما الباب الثالث: فكان موضوعه "معيار الأخلاق والإلزام الخلقي"**

بحثت في الفصل الأول: معيار الأخلاق.

فبينت معيار الأخلاق عند مسكويه "وهو العقل" وذكرت الشواهد الكثيرة من أقواله الدالة على ذلك، ثم بينت المعيار عند ابن القيم "وهو الوحي" وجليت في الوقت نفسه موقفه من العقل.

ثم قارنت بين المعيارين عندهما، وبينت أثر ذلك في فكرهما وآرائهما الخلقية.

وفي الفصل الآخر: تحدثت عن الإلزام الخلقي: فذكرت مصدره عند مسكويه وابن القيم، وأهم العناصر التي يرتكز عليها الإلزام عندهما، ثم تناولت تلك العناصر بالدراسة والتحليل، مبيناً ما يمكن اعتماده منها وما لا يسوغ التعويل عليه. مسترشدًا في ذلك بنصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة. ومتوخيًا في التقويم في هذا المبحث وغيره العدل ومتحرياً الصواب، وسائلاً الله تعالى العون على ذلك والتوفيق إليه.

- وفي الخاتمة: أجملت أهم نتائج البحث، وعقبتها ببعض الآراء التي خرجت بها من هذا البحث.

**أما المناهج المعتمدة في هذا البحث فهي:**

- المنهج التاريخي: وذلك للوقوف على الآراء الخلقية للعالمين محل الدراسة، بعرض أقوالهما من خلال ما صدر عنهما من مؤلفات. مع الاجتهاد في فهم أقوالهما على وجهها، وعدم تحميلها أكثر من طاقتها.
- المنهج المقارن: بمقابلة آراء مسكويه الخلقية بآراء ابن القيم، وبيان ما بينها من أوجه الوفاق والخلاف.

- المنهج النقدي: ومن خلاله يتم تحليل الأفكار، والكشف عما فيها من خطأ وصواب. معتمدًا في الحكم عليها نصوص الكتاب والسنة، المعيار الحق السالم من الاختلاف والتناقض.

هذا وقد حرصت في هذه الرسالة على أمور، أهمها:

- إثبات آراء مسكويه وابن القيم في المسائل الخلقية المختلفة من أقوالهما، لكون ذلك أدق في تصوير آرائهما، وأصدق في الدلالة على مرادهما.

الاقتصار في النقول من كتبهما على ما يتحقق به المقصود من بيان المسألة محل البحث، مع الإشارة إلى الشواهد الأخرى التي هي في نفس المعنى قصداً للاختصار وعدم الإطالة.

- اعتمدت المطبوع من كتب مسكويه وابن القيم[1] ، وقد وجدتها وافية - بالجملة - ببيان وجهة كل منهما في المسائل الرئيسة المختارة محلاً للبحث والدراسة.

- التقديم لكل فصل بمدخل أحدد فيه المقصود من عنوان الفصل، وأبين المراد بما يزيل ما قد يوجد من غموض أو إشكال حوله.

---

(١) أما ابن القيم فعامة كتبه مطبوع ومتداول، وأما مسكويه فسبب اعتمادي المطبوع من كتبه أمور أهمها:

أ- أنها سبب شهرته، والمعتمدة في النقل عنه والثناء عليه.

ب- أن بعض المخطوطات إنما هي صفحة واحدة، أو صفحات يسيرة، وقد وقفت على عرض لبعضها فلم أجد فيها ما يستحق الذكر.

ج- من خلال قراءتي للمطبوع من كتبه لم أجد اختلافاً في آرائه، فهي واحدة في سائر كتبه.

- اعتماد ما صح سنده من الأحاديث والآثار قدر الاستطاعة؛ لأن فيه الغنية والكفاية، ثم هو أصدق في التدليل وأقوى في الحجة.
- التنبيه - في الغالب- على درجة الحديث، إذا لم يكن في الصحيحين أو في أحدهما، بالإشارة إلى من صححه من أهل العلم من المشتغلين بهذا العلم، من المتقدمين أو المعاصرين. وقد اكتفي بالتنبيه على وجوده في بعض الكتب المشتملة على الأحاديث الصحيحة، كصحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني.

وبعد فإني أحمد الله تعالى أن وفقني لهذا الموضوع، وأعانني على إنجازه، وأسأله تعالى المزيد من فضله.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

# التمهيد

ويتضمن

أولاً: نبذة عن مسكويه وابن القيم .

ثانياً: لمحة عن جهود المتقدمين في الأخلاق.

# أولاً: نبذة عن مسكويه وابن القيم

## ١- مسكويه

### نسبه ومولده:

هو أحمد بن محمد بن يعقوب ، أبو علي ، الملقب (مسكويه ) [(١)].
اختلف في تاريخ مولده ، والأقرب أنه كان في حدود سنة ٣٢٥هـ [(٢)] بالري وسكن همذان وبغداد وأصفهان .

---

(١) وقيل (ابن مسكويه ) كما في تتمة صوان الحكمة للبيهقي (ت ٥٦٥) ص٢٨، ط لاهور سنة ١٣٥١هـ ، ونزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة للشهرزوري ( ت٦٦٧) (٧٥/٢) ،تعليق : خور شيد أحمد . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد – الهند، ط١ سنة ١٣٩٦هـ.
والأقرب أن ( مسكويه ) لقب له ، كما جاء ذلك على لسان معاصريه ، كابي حيان التوحيدي ( ت٤٠٠هـ ) في الإمتاع والمؤانسة (٣٩/١) ، بتحقيق : أحمد أمين، وأحمد زين، المكتبة العصرية – بيروت. والثعالبي (ت٤٢٩) في تتمة يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ص١١٥ . دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ سنة ١٤٠٣هـ . بل كما جاء على لسانه هو في كتابه تجارب الأمم (٣١٠/١) ، وفيه يقول: ( قال الأستاذ أبو علي أحمد بن محمد مسكويه ، ومثله (١٣٦/٢) بتصحيح هـ ف. أمدروز – مصر سنة ١٣٣٢هـ .
وعلى هذا سار القفطي (ت٦٤٦هـ ) في كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص٢١٧-٢١٨ ، مطبعة السعادة بمصر، سنة ١٣٢٦هـ وابن أبي أصيبعة (ت٦٦٨) في عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٣٣١ : تحقيق : نزار رضا ، دار مكتبة الحياة – بيروت ومسكويه كلمة معربة عن الفارسية ( مشكويه ) ومعناها رائحة المسك .

(٢) لم يرد في مصادر ترجمته القديمة تحديد لتاريخ مولدة ، ولكنه يذكر في تاريخه تجارب الأمم (١٣٦/٢) أن مايروية بعد سنة ٣٤٠هـ ( هو مشاهدة عيان ، أو خبر محصل يجري عندي خبره مجرى ما عاينته ) مما يعني أنه في تلك السنة في سن يحصل معها الاستيعاب

وقد ذكر ياقوت [1] في ترجمته انه كان مجوسياً ثم أسلم [2]، وهذا بعيد، حيث لم يشتهر ذلك عنه، ثم إن اسم أبيه محمد واسم جده يعقوب، وإليه ينتهي ماذكر من نسبه، فلعله هو الذي كان مجوسياً فاسلم [3].

## نشـــأته ووظائفـــه :

أماعن نشأته فقد أشار مسكويه نفسه إلى أنه اشتغل في شبابه بالملاهي والملذات، وبرواية الأشعار الماجنة، تقرباً للولاة والوزراء بذلك، ليحظى بمجالستهم وينال من صلاتهم، ويقول مسكويه: "ومن لم يتفق له ذلك (أن يتربى على أدب الشريعة ) في مبدأ نشوئه، ثم ابتلي بأن يربيه والده على رواية

= والإدراك ، ويختار عبد العزيز عزت أنه كان في حدود الخامسة عشرة أو قريباً منها، كما في كتابه ابن مسكويه فلسفته الأخلاقية ومصادرها ، ص٨٠-٨١ ، مطبعة مصطفي البابي الحلبي بمصر ، ط١ سنة ١٩٤٦م مخالفاً لمارجوليوث الذي حدد تاريخ مولده بسنة ٣٣٠هـ ولكن في اختيار د.عبد العزيز بناءً على قول مسكويه نظر، لأن جمهور المحدثين يرون صحة سماع الصغير إذا عقل وضبط، ويفرقون بين سن التحمل وسن الأداء، فقالوا: يصح السماع لابن خمس سنين وحجتهم في ذلك ما رواه البخاري وغيره من حديث محمود بن الربيع قال: (( عقلت من النبي صلى الله عليه وسلم مجة مجها في وجهي من دلو، وأنا ابن خمس سنين)) انظر: فتح الباري (١٥٧/١)، ومنهم من اعتبر التمييز، كابن الصلاح وغيره، فقالوا: فإن فهم الخطاب ورد الجواب كان مميزاً صحيح السماع، وإن لم يبلغ خمساً، والتمييز يختلف باختلاف الأشخاص. وأما الأداء فإنه يكون من سن البلوغ. انظر: مقدمة ابن الصلاح ص ٦١-٦٢، دار الكتب العلمية- بيروت سنة ١٣٩٨هـ.

(١) ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، أبوعبد الله شهاب الدين، النحوي الإخباري المؤرخ، من العلماء باللغة والأدب، أصله من الروم، صاحب تصانيف، منها معجم البلدان، ومعجم الأدباء، توفي سنة ٦٢٦هـ .
الذهبي : سير أعلام النبلاء (٣١٢/٢٢) ، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢ سنة ١٤٠٦هـ.
وابن عماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٢١/٥) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء (١٠/٥) ، مطبوعات دار المأمون بمصر.

(٣) انظر: محمد يوسف موسى: فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية ص٧٤.

الشعر الفاحش وقبول أكاذيبه، واستحسان ما يوجد فيه من ذكر القبائح ونيل اللذات، كما يوجد في شعر امرئ القيس[1]، والنابغة [2]، وأشباههما، ثم صار بعد ذلك إلى رؤساء يقربونه على روايتها وقول مثلها، ويجزلون له العطية، وامتحن بأقران يساعدونه على تناول اللذات الجسمانية، ومال طبعه إلى الاستكثار من المطاعم والملابس والمراكب والزينة وارتباط الخيل الفره[3]، والعبيد الروقة[4]، كما اتفق لي مثل ذلك في بعض الأوقات ثم انهمك فيها واشتغل بها عن السعادة التي هو أهل لها، فليعد ذلك شقاءً لا نعيماً، وخسراناً لا ربحاً، وليجتهد على التدرج إلى فطام نفسه منها، وما أصعب ذلك، إلا أنه على كل حال خير من التمادي في الباطل.

---

(١) امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكندي شاعر جاهلي من اشهر شعراء العرب ، يماني الأصل ومولده بنجد ، كان أبوه ملك أسد وغطفان. ضيع حياته أولاً في المتع والشهوات، ثم قضى باقيه في طلب ملك أبيه ولكنه لم يحصل شيئاً، مات قبل الهجرة بنحو ثمانين سنة .

انظر : الجمحي : طبقات فحول الشعراء ص٥١ وما بعدها . شرح محمود شاكر ، مطبعة المدني — القاهرة . ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص١٦ ، عالم الكتب — بيروت .

(٢) زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني ، أبو أمامة ،شاعر جاهلي ، من أحسن شعراء العرب ديباجة ورونقاً. كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها. مات قبل الهجرة بنحو ١٨سنة .

انظر : الجمحي طبقات فحول الشعراء ص٥١ . ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص٢٠ . أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني (٣/١١) دار إحياء التراث العربي — بيروت .

(٣) أي الجميلة الحسنة . انظر : مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، ص٦٨٦ ، المكتبة الإسلامية ، تركيا .

(٤) الرُوْقة : الجمال الفائق ، المراجع السابق ص٣٨٣ .

وليعلم الناظر في هذا الكتاب أني خاصة تدرجت إلى فطم نفسي بعد الكبر واستحكام العادة، وجاهدتها جهاداً عظيماً، ورضيت لك أيها الفاحص عن الفضائل والطالب للأدب الحقيقي بما رضيت لنفسي، بل تجاوزت لك في النصيحة إلى أن أشرت عليك بما فاتني في ابتداء أمري، لتدركه أنت، ودللتك على طريق النجاة قبل أن تتيه في مفاوز الضلالة، وقدمت لك السفينة قبل أن تغرق في بحر المهالك"[١].

وأما عن أعمال مسكويه ووظائفه فقد كان الوزير المهلبي[٢] هو أول من اتصل به مسكويه في شبابه، فكان في ندمائه[٣] ولعله هو الذي عُني مسكويه بحفظ الأشعار الخليعة لأجله ليحظى بمجالسته .

ثم اتصل بابن العميد[٤]، فاشتغل خازناً لكتبه[٥]، ثم استمر بعد موته في خدمة ابنه أبي الفتح[٦].

---

(١) مسكويه : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص ٦٥ ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

(٢) الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون الأزدي ، من ولد المهلب بن أبي صفرة ، وزر لمعز الدولة البويهي، وكان جواداً كامل السؤدد مقرباً للعلماء، وكان أديباً، مترسلاً بليغاً، وشاعراً مقبلاً على أهل الأدب، مات سنة ٣٥٢هـ .
الثعالبي : يتيمة الدهر (٢٦٥/٢) .سير أعلام النبلاء (١٩٧/١٦) . ابن كثير : البداية والنهاية (٢٤١/١١)، مكتبة المعارف، بيروت .

(٣) مسكويه : تجارب الأمم (١٤٦/٢) . الشهرزوري : نزهة الأرواح في تاريخ الحكماء والفلاسفة ( ٧٥/٢).

(٤) محمد بن الحسين بن محمد الكاتب ، وزير الملك ركن الدولة الحسن بن بويه ، كان عجباً في الترسل والإنشاء والبلاغة ، ويُضرب به المثل . يقال : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد . قال الذهبي : كان مع سعة فنونه لا يدري ما الشرع ، وكان متفلسفاً متهماً بمذهب الأوائل . مات سنة ٣٦٠هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء (١٣٧/١٦). شذرات الذهب (٣١/٣).

(٥) أبو حيان : الإمتاع والمؤانسة (٣٥/١) ، (٣٩/٢) .

(٦) علي بن محمد بن الحسين أبو الفتح بن العميد ، كان ذكياً غزير الأدب، تياهاً يلقب بذي الكفايتين (يعني السيف والقلم)، له نظم رائق ، قتل سنة ٣٦٦هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء (١٣٨/١٦) .

ثـم اتصل مسكويه بعضد الدولة[1] فاشتغل خازناً لمكتبته أيضاً، وهي مكتبة جامعـة لم يـبق كـتاب صنف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا حصله فـيها[2]. ويذكر عنه أنه كان من ندماء عضد الدولة ورسله إلى نظرائه[3]، وبعد موت عضد الدولة لحق مسكويه ببهاء الدولة[4]، وعظم شأنه وارتفع مقداره[5].

وأخـيراً اتـصل مـسكويه بعمـيد الملك[6] الذي قربه وأحسن إليه، وذلك في أيام شيخوخته [7].

---

(١) أبوشـجاع فناخسرو صـاحب العراق وفارس، ابن السـلطان ركن الدولة حسن بن بويه الديلمي ، كان شجاعاً مهيباً، أديباً ،غالياً في التشيع ، تملك العراق خمسة أعوام ونصف، مات سنة ٣٧٢هـ .

انظـر : سيـر أعلام النبلاء( ٢٤٩/١٦) ، البداية والنهاية (٣٠٠/١١)، شذرات الذهب (٧٨/٣) .

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص٤٤٩ ، مطبعة بريل، ليدن، ط٢، سنة ١٩٠٩م.

(٣) الخوانـساري : روضـات الجـنات في أحـوال العلمـاء والـسادات (٢٥٤/١) ، مطـبعة الحيدرية، طهران ، سنة ١٣٩٠هـ .

(٤) أبو نصر أحمد بن عضد الدولة بن بويه ملك العراق، كان ظلوماً غشوماً سفاكاً للدماء ، جـمـع مـــن الأمـــوال مـن المصادرات وغيرها ما لم يجمعه أحد قبله من بني بويه، مات سنة ٤٠٣هـ ، وكانت أيامه أربعاً وعشرين سنة. وله اثنتان وأربعون سنة.

انظر : سير أعلام النبلاء (١٨٥/١٧) . شذرات الذهب (١٦٦/٣).

(٥) ياقوت : معجم الأدباء (٧/٥)

(٦) الوزيـر الكـبير أبـو طالـب محمـد بن الوزير أبي الفضل أيوب بن سليمان المراتبي ، عميد الرؤسـاء ، وزر للخليفـة العبـاسـي القـائـم بأمر الله أيام ولاية عهده ، ثم وزر للقائم (ت٤٦٧) بـضع عـشرة سـنة ، وكـان بليغاً مترسلاً صاحب فنون ، توفي سنة ٤٤٨هـ ، وكان مولده سنة سبعين وثلاثمائة.

انظر : سير أعلام النبلاء (٤٥/١٨) .

(٧) الثعالبي : تتمة يتيمة الدهر ص٩٧ .

وتشير بعض المصادر إلى اشتغال مسكويه بالتدريس في بعض أيامه، إلا إنه ليس فيها ذكر لمن تتلمذ عليه أو أخذ عنه[1].

## ثقافته :

ليس في المصادر التي ترجمت لمسكويه حديث عن نشأته ومراحل تعليمه، ولعل بدايات تحصيله العلمي كانت على الطريقة السائدة في عصره من التعليم في الكتاتيب[2]، والتي من خلالها يتعلم التلميذ أوليات العلوم وأصولها.

ثم إن مسكويه سعى في تنمية معارفه باجتهاده بالاطلاع على الكتب والمؤلفات في مختلف العلوم والفنون، ولعل من بواعث اجتهاده الفردي وعدم توجهه للأخذ عن العلماء والحكماء في عصره أنه إنما توجه لتعلم الحكمة والفلسفة وأخذ نفسه بالآداب والفضائل في حال كبره[3]، فربما أنف من الجلوس للتعلم في تلك السن.

---

(١) البيهقي : تتمة صوان الحكمة ص٢٨ . ويقول الشهرزوري بعد أن ذكر عدداً من كتبه: (وكانت تقرأ هذه الكتب عليه أيام مجالسته).

انظر : نزهة الأرواح (٢/٧٥) .

(٢) انظر: عبد العزيز عزت : ابن مسكويه ص٨٥.

(٣) تقدم قول مسكويه عن نفسه في هذا .

ومـع هـذا فقـد تأثـر في أول أمـره بكـتب الرازي[1]، وجابر بن حيان [2]، فاهتم بصناعة الكيمياء[3]، وأمضى في هذا جزءاً من عمره[4].

كما كانت عنايته بالأدب ورواية الشعر قديمة، إلا أن وجهته في هذا الشأن غير سوية؛ لاهتمامه بأشعار الفحش تقرباً للكبراء والوزراء[5].

وقـد كان لاشتغال مسكويه في خزانة كتب بن العميد، ثم ابنه أبي الفتح، ثم عضد الدولة بالغ الأثر في توسيع مطالعاته وتنمية معارفه.

كمـا انـتفع مسكويه من المجالس التي كانت تعقد في حضرة الوزراء بعامة، وأبـي الفـضل ابن العميد[6] بخاصة، فقد صحبه مسكويه سبع سنين ولازمه فيها

---

(١) أبـو بكـر محمد بن زكريا الرازي، الطبيب، صاحب المصنفات في الطب والفلسفة، رُمي بالإلحاد مات سنة ٣١١هـ وقيل غيرها .
انظـر: ابـن جلجـل: طبقات الأطباء والحكماء ص٧٧، تحقيق: فؤاد سيد، طبع مؤسسة الرسالة- بيروت،ط٢ سنة١٤٠٥هـ. شذرات الذهب (٢/٢٦٣).

(٢) جابـر بـن حيان بن عبد الله الكوفي، فليسوف كيمائي، أصله من خراسان ، له تصانيف كثيرة عامتها في الكيمياء، توفي سنة ٢٠٠هـ .
انظـر: ابـن الـنديم:الفهرسـت ص ٤٩٨، دار المعرفة، بيروت. الزركلي: الأعلام (٢/١٠٣)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧ سنة ١٩٨٦م.

(٣) المقـصود بـصناعة الكيمـياء – عندهم – علم يعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية وجلب خاصة جديدة إليها، ولاسيما تحويلها إلى ذهب.
انظر:المعجم الوسيط ص ٨٠٨، وأبا حيان : الامتناع والمؤانسة (٢/٣٨) .

(٤) انظر: المرجع السابق (٢/٣٩)

(٥) تقدم قوله في ذلك.

(٦) تجارب الأمم (٢/٢٧٧-٢٨٨).

ليلاً ونهاراً[1]. ويعد يحي بن عدي[2]، أبرز الفلاسفة الذين تأثرهم بهم بن مسكويه وأخذ عنهم من معاصريه[3].

وبعد هذا كله فقد أسهم نشاط حركة الترجمة عن اليونانية وغيرها في عصر مسكويه والذي قبله[4]، في تيسير الإطلاع على الثقافات المختلفة، وقد أخذ عنها مسكويه واقتبس منها واستمد في غالب مؤلفاته.

## عقيدته ومذهبه :

يتابع مسكويه الفلاسفة[5] في معتقده. وله كتاب الفوز الأصغر في مباحث العقيدة، وهو مبني على أصولهم ..

---

(١) المرجع السابق (٢/٢٧٦).

(٢) يحي بن عدي، أبوزكريا المنطقي الفيلسوف، كان نصرانياً، أخذ الفلسفة عن أبي نصر الفارابي، من المترجمين المشهورين، وله مؤلفات كثيرة ، مات سنة ٣٦٤هـ.
انظر: ابن النديم : الفهرست ٣٦٩ . الزركلي : الأعلام (١٥٦/٨) .

(٣) أبو حيان : الامتناع والمؤانسة (٢٧٦/١) ومن شواهد تأثر مسكويه به متابعته له في تعريف الخلق، وبيان طبيعته على نحو ما ذكره يحي بن عدي في رسالته ( تهذيب الأخلاق ) كما سيأتي بيان ذلك عند الحديث مع مفهوم الأخلاق عند مسكويه .

(٤) انظر: ابن خلدون : المقدمة ص ٥١٥ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط٤ سنة ١٣٩٨هـ .

(٥) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية مجملاً عقيدة الفلاسفة ومنهجهم: إنهم (( لا يوجبون اتباع دين الإسلام، ولا يحرمون اتباع ماسوا ه من الأديان، بل يجعلون الملل بمنزلة المذاهب والسياسات التي يسوغ اتباعها، وأن النبوة نوع من السياسة العادلة، التي وضعت لمصلحة العامة في الدنيا ..
وهم لا يكذبون بالنبوة تكذيب مطلقاً، بل هم يؤمنون ببعض أحوالها ويكفرون ببعض الأحوال، وهم متفاوتون فيما يؤمنون به ويكفرون به من تلك الخلال، فلهذا يلتبس أمرهم بسبب تعظيمهم للنبوات على كثير من أهل الجهالات )).
انظر:ابن تيمية: منهاج السنة النبوية، تحقيق : د. محمد رشاد سالم (٦/١)، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض ط١ سنة ١٤٠٥هـ .

فعنده أن الله - عز وجل - واحد وأزلي، ولكنه لا يوصف إلا بصفات السلب لا الإيجاب، فهو "ليس بجسم ولا متحرك، وليس بمحدث[1]... وهو سبحانه يفعل أفعاله بتوسط أشياء، فالوجود الأول الذي ظهر منه إنما حصل للعقل الأول المسمى بالعقل الفعال[2]، ولذلك هو تام الوجود باق أبداً، ثابت على حالة واحدة لا تتغير، لأن الفيض متصل به أبداً لأزلية مفيضه وسعة جوده"[3].

والنفس[4] إنما وجدت بوساطة العقل، وبواسطتها حصل الفلك « ولما انتهي الوجود إلى أجسامنا كان بتوسط الفلك وأجزائه وكواكبه » [5].

فحركتنا مستفادة من حركة الفلك[6].

---

(١) الفواز الأصغرص٣٠ . دار مكتبة الحياة – بيروت. وهذا خلاف ما جاء في كتاب الله من إثبات مفصل ونفي مجمل ، وانظر: في هذا: ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، بتحقيق : د. محمد رشاد سالم (١٦٣/٥) وما بعدها، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض ط١ سنة ١٣٩٩هـ .

(٢) العقل الفعال عند طائفة من الفلاسفة جبريل - عليه السلام- وهو عندهم تفيض منه جميع الأمور، ومنها النبوة التي هي فيض من العقل الفعال على نفس النبي.
ويزعمون أن العقل الفعال رب كل ما تحت فلك القمر، والعقل الأول – يزعمون- أنه مبدع العالم كله. وهي أقوال معلومة الفساد بالضرورة من دين الإسلام.
انظر: ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل (٣١٥/١-٣١٦) (٢١٨/١٠-٢١٩).

(٣) الفوز الأصغرص٣٢.

(٤) أي نفس الفلك. انظر: ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٢٧٣/٩). جمع وترتيب: عبدالرحمن ابن قاسم ، دار العربية للطباعة والنشر – بيروت .

(٥) الفوز الأصغر ص ٣٢-٣٣ .

(٦) المرجع السابق ص ٦٢. وانظر في تقرير هذه الأقوال للفلاسفة ومناقشتها وبيان بطلانها واضطرابها، ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (٢٩٦/٩) وما بعدها (١٨٩/١٠) . وهذا القول يتضمن إثبات فاعل غير الله وهو شرك في الربوبية. انظر: المرجع نفسه (٧/ ٢٩٠).

والنبي عند مسكويه إنسان يصل بتأثير العقل الفعال في قوته الفكرية ثم في قوته المتخيلة، فيرى حقائق الأشياء ومباديها وأسبابها. وهذه الحقائق بعينها يصل إليها الفيلسوف ، والفرق بينهما أن النبي يتلقى الحقائق منحطة من أعلى، وأما الفيلسوف فيصل إليها من أسفل[1].

والجزاء في الآخرة أنما يحصل للروح دون الجسد؛ لأن اللذات الجسمانية ليست من اللذات الحقيقية في شيء، فالسعادة والشقاء أمور روحية تناسب الروح وجوهرها وحقيقتها[2].

وهكذا فإن مسكويه يتابع الفلاسفة ويترسم خطاهم في غالب مسائل الاعتقاد .

وأما مذهبة، فيظهر من مؤلفاته أنه يتشيع، فهو يكثر من الاستشهاد بأقوال علي بن طالب[3] - ﷺ- ويصلي عليه بعد ذكره [4].

---

(١) وهو في هذا يتابع الفارابي في تفسيره للنبوة تفسيراً عقلياً يضعف الفرق بين الفيلسوف والنبي. انظر: محمد رشاد سالم: مقارنة بين الغزالي وابن تيمية ص٩٦-٩٧. دار القلم- الكويت، سنة ١٤٠٠هـ. وابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل(١/١٧٩) وما بعدها.

(٢) لفوز الأصغر ص٨٠-٨٣ . وانظر: تهذيب الأخلاق ص١٨٧ .
والقول بان النعيم والعذاب للأرواح فقط هو من أقول الفلاسفة ، وكذا الصابئة ، وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية كفر من أنكر معاد الأرواح والأجساد ؛ لان الله تعالى ((بين في كتابه على لسان رسوله أمر معاد الأرواح والأجساد ، ورد على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك في غاية التمام والكمال )) . الفتاوى (٣١٤/٤).

(٣) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله – ﷺ – وزوج ابنته فاطمة، رابع الخلفاء الراشدين، صاحب الفضائل والمناقب المعروفة، مات سنة ٤٠هـ شهيداً وله ثلاث وستون على الأرجح .
انظر: ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢٩/٣ ) بهامش الإصابة . ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ( ٥٠١/٢) دار الكتاب العربي – بيروت .

(٤) انظر: جاويدان خرد: الحكمة الخالدة، ص ١١٠-١٤٤،١١٣- ١٧٩، ١٥٠، ١٤٥، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس – بيروت .

كما يكشف عن تشيعه قوله بعصمة الإمام ومشاركته للنبي في جميع الصفات عدا النبوة [1].

وأخيراً فإن اختصاصه بالوزراء والملوك الشيعة من بني بويه يؤيد القول بتشيعه [2].

## أخـــــلاقه

يصف أبوحيان[3] مسكويه بالبخل، فيقول عنه: إنه محترق " في البخل بالدانق والقيراط، والكسرة والخرقة - نعوذ بالله – من مدح الجود باللسان، وإيثار الشح بالفعل، وتمجيد الكرم بالقول، ومفارقته بالفعل" [4]، على أن هذا القول وإن كان له دلالته وأبعاده، فإنه من أقوال الأقران التي يكون للهوى، أو لفساد ما بينهما مدخل[5]، ولا سيما وأن سيرة أبي حيان ليست بالسيرة المرضية[6] مما يجعل قوله دعوى تحتاج إلى ما يعضدها.

---

(١) الفوز الأصغر ص١١٤. وانظر: الشهرستاني : الملل والنحل (١٤٦/١). ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٤٥٢/٢ )، وفيه قوله:(( هذه خاصة الرافضة الإمامية التي لم يشركهم فيها أحد ... إلا من هو شر منهم كالإسماعيلية الذين يقولون بعصمة بني عبيد)).

(٢) العاملي : أعيان الشيعة (١٥٩/٣) . بتحقيق : حسين الأمين ، دار التعارف – بيروت سنة ١٤٠٦ هـ .

(٣) علي بن محمد بن العباس ، البغدادي الصوفي ، صاحب التصانيف الأدبية والفلسفية، رُمي بالزندقة والإلحاد، وكان قوى النفس مزدرياً بأهل عصره، مات سنة ٤٠٠ هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء ( ١١٩/١٧)

(٤) أبوحيان : الامتناع والمؤانسة (٣٦/١).

(٥) يقول الإمام الذهبي – رحمه الله - : (( مازال كلام المتعاصرين بعضهم في بعض لا يلوى عليه بمفرده )) انظر: سير أعلام النبلاء(٢٨٥/١٢) .

(٦) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء(١١٩/١٧)

وفي مقابل هذا يقول عنه الثعالبي[1]: "كان في الذرة العليا من الفضل والأدب "[2]، ويقول عنه القطفي[3]: (( من كبار فضلاء العجم وأجلاء فارس))[4].

وفيما قالاه مبالغة وبعد ،فقد ذكر الثعالبي نفسه عن مسكويه أنه هجا الصاحب بن عباد [5] بعد موته بزمان بقصيدة فيها سوء وفحش [6] مما لا يجعله حقيقياً بهذه الأوصاف.

وبكل حال فقد كان لاشتغال مسكويه في خدمة ملوك ذلك العصر ووزرائه وحضور مجالسهم ومنادمته لبعضهم تأثيره في أخلاقه وسلوكه .

---

(١) عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور الثعالبي، النيسابوري، الأديب الشاعر، صاحب التصانيف الأدبية السائرة، منها يتيمة الدهر، وسحر البلاغة، وغيرها، مات سنة ٤٣٠هـ.
انظر: ابن الأنباري: نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ٢٥٦ ، بتحقيق: د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار – الأردن ، ط٣ سنة ١٤٠٥ هـ . شذرات الذهب (٢٤٦/٣) .

(٢) الثعالبي: تتمة يتيمة الدهر ص ١١٥.

(٣) علي بن يوسف بن إبراهيم، جمال الدين أبو الحسين القفطي المصري ،– وقفط بلدة بصعيد مصر– أحد الكتاب المبرزين، وكان عالماً متفنناً، وصاحب تصانيف، عرف بالقاضي الأكرم، ووزر بحلب، وتوفي سنة ٦٤٦ هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء( ٢٧٧/٢٣ ) . شذرات الذهب ( ٢٣٦/٥) .

(٤) القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢١٧ .

(٥) إسماعيل بن عباد بن عباس الطالقاني، أبو القاسم الوزير، وزر لمؤيد الدولة البويهي، الأديب الكاتب له تصانيف، كان شيعياً معتزلياً، تياهاً جباراً، مات سنة ٣٨٥ هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء(٥١١/١٦). شذرات الذهب (١١٣/٢)

(٦) انظر طرفاً منها في تتمة اليتيمة للثعالبي ص ١١٩، وقد قال العاملي: ( أعيان الشيعة ٣/ ١٧٢ ): إنه أفحش فيها فنزهنا عنها كتابنا. وقال: (( ليت شعري من كانت له مثل تلك المواعظ والنصائح والوصايا كيف لا يردعه ذلك عن هجو مثل الصاحب بعد موته)).

## مـؤلفــاتــه:

لمسكويه تـصانيف كـثيرة في فـنونٍ عـدة ،مـنها الفلـسفة والتاريخ والطب والأدب والأخلاق وغيرها..

وقد طبع من كتبه:

**أولاً : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق [١]:**

ويتـضمن سـبع مقـالات في مختلف موضوعات الأخلاق، وقد اعتمدته في عرض آراء مسكويه الخلقية.

**ثانيًا : الفوز الأصغر [٢]:**

وتحـدث فيه عن ثلاث مسائل، هي إثبات الصانع، ثم عن النفس وأحوالها، ثم عن النبوات، وقد بناه على أصول الفلاسفة كما تقدم بيان ذلك.

**ثالثـاً: تجارب الأمم[٣]:**

وهـو كـتاب في الـتاريخ، ابـتدأه بالطـوفان إلى سـنة ٣٦٩هـ [٤]. ويُعد من المراجع المهمة في تاريخ دولة بني بويه.

**رابعًا : جاويدان خرد[٥]:**

جمع فيه مسكويه حكم الأمم الأربع، الهند والعرب والفرس والروم.

---

(١) ذكـره القطفـي في إخـبار العلمـاء بأخـبار الحكمـاء ص٢١٧. وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٣٣١.

(٢) ياقوت: معجم الأدباء (٥/١٠). وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٢١٧.

(٣) ياقـوت: معجـم الأدباء (٥/١٠). وفيه يقول: (( ابتداؤه من بعد الطوفان ، وانتهاؤه إلى سنة تسع وستين وثلاثمائة )). القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص٢١٧.

(٤) المطبوع منه يبدأ في سنة ٢٩٥هـ إلى سنة ٣٦٩هـ وهو أخر الكتاب، وقد جاء في مجلدين.

(٥) جاويـدان كلمة فارسية معناها العقل، وخرد معناها الأزلي، وعليه فاسم الكتاب بالعربية العقـل الأزلـي، وأطلـق علـيه الدكتور عبد الرحمن بدوي، الذي قام بتحقيقه والتقديم له ((الحكمة الخالدة))، واثبت اسمه الأصلي أسفل منه.

وقد نسبه لمسكويه: الشهرزوري: نزهة الأرواح (٢/٧٥). وياقوت : معجم الأدباء (٥/ ١٠) وعنوانه فيه (( جاوزن فِرد )).

**خامسًا: الهوامل والشوامل[1]:**

وهـو عـبارة عـن مجمـوعة أسـئلة من أبي حيان التوحيدي،سماها ((الهوامل)) وأجـوبة مـن مـسكويه سماها ((الشوامل))، والأسئلة التي أثارها أبوحيان متنوعة، مـنها مـا هو في اللغة، ومنها ما هو في الأخلاق والاجتماع والاقتصاد والفلسفة وغير ذلك، وقد أجاب مسكويه عنها جميعًا.

**سادسًا: كتاب السعادة [2]:**

وموضـوعـه الـرئيـس الـسعادة القصوى، والتي تحصل - في نظر مسكويه- بالحكمـة بشقيها النظري والعملي، ويصل من خلالها إلى حقائق الأمور ومحاسن الأفعال.

والسبيل للظفر بها هو جهد الإنسان العقلي ووقوفه على العلوم الفلسفية.

وبالجملـة فكـتابه هـذا امـتداد لمـا جاء في مؤلفه الفوز الأصغر، ويتوافق مع بعض مباحث تهذيب الأخلاق.

**سابعاً: رسالة في اللذات والآلام وفي جوهر النفس[3].**

وقد أورد له ياقوت[4] سوى ما تقدم، الكتب الآتية:

---

(١) مـن إصدار مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٣٧٠هـ، وبتحقيق : أحمد أمين، وأحمد صقر. وقد تضمن الكتاب مائة وخمساً وسبعين مسألة، وبعضها يتضمن عدداً من المسائل . ونسبة لمسكويه: البيهقي: تتمة صوان الحكمة ص٢٩.

(٢) وقد جاءت نسبته لمسكويه عند :
ياقوت : معجم الأدباء (١٠/٥) بعنوان ( ترتيب العادات ) ، ولعله خطأ مطبعي .
وقـد أشـار إلـيه مسكويه في كتابه : تهذيب الأخلاق ص٦٥ وسماه (( ترتيب السعادات ومنازل العلوم ))

(٣) قـام بتحقيقها د.عبد الرحمن بدوي، ونشرها في كتاب له بعنوان: (( دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب)).

(٤) ياقوت : معجم الأدباء (١٠/٥) ، وكل هذه مفقودة لا وجود لها.

١- أنس الفريد[١] ، قال ياقوت: (( وهو مجموع يتضمن أخبارًا وأشعارًا وحكمًا وأمثالاً، وهو غير مبوب ))[٢] . وقال القفطي: (( وهو أحسن كتاب صُنف في الحكايات القصار والفوائد واللطاف ))[٣].

٢- الفوز الأكبر[٤].

٣- كتاب المستوفي، ويتضمن (( أشعارًا مختارة ))[٥].

٤- كتاب الجامع.

٥- كتاب السير، قال ياقوت: (( أجاده، ذكر فيه ما يُسير به الرجل نفسه من أمور دنياه، مزجه بالأثر، والآية، والحكمة والشعر))[٦].

وذكر القفطي لمسكويه:

٦- كتابًا سماه: الأدوية المفردة.

٧- وكتابًا في تركيب الباجات من الأطعمة. وقال فيه القفطي: ((أحكمه غاية الإحكام، وأتى فيه من أصول علم الطبيخ وفروعه بكل غريب))[٧].

---

(١) ذكره أيضاً الشهرزوري : نزهة الأرواح (٢/٧٥) . والقطفي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢١٧ .

(٢) ياقوت معجم الأدباء (٥/١٠) .

(٣) القطفي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص٢١٧.

(٤) يختار عبد العزيز عزت أن كتابة هذا هو (( تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق )). انظر: كتابه: ابن مسكويه ص١٣٤- ١٣٥. وهناك من يرى أن كتابه الفوز الأصغر اختصار لكتابه الفوز الأكبر.

(٥) ياقوت : معجم الأدباء (٥/١٠) .

(٦) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٧) القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص٢١٧، والباجات، مفردها باج: وهو اللون من الطعام، انظر: المعجم الوسيط ص ٣٦.

**وذكر غير القفطي لمسكويه من الكتب:**

٨- الأشربة [١].

٩- العودين في علم الأوائل[٢].

١٠- تعاليق حواشي كتب المنطق[٣].

١١- فقر أهل الكتب[٤].

١٢- مقالات في الحكمة والرياضة[٥].

١٣- كتاب سياسة الملك[٦].

١٤- آداب الدنيا والدين[٧].

١٥- أنس الخواطر[٨].

١٦- حقائق النفوس.

١٧- نـور السعادة.

١٨- أحوال الحكماء والسلف وصفات بعض الأنبياء السالفين.

ولمسكويه عدد من الكتب والرسائل المخطوطة[٩]، منها:

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٣٣١.
(٢) الشهرزوري : نزهة الأرواح (٢/٧٥) .
(٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٥) الخوانساري : روضات الجنات (١/٢٥٥).
(٦) المرجع السابق .
(٧) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٨) ذكره ومابعده العاملي : أعيان الشيعة ( ٣/١٦٠) .
(٩) انظر: تفاصيل أسمائها وأماكن وجودها :
د. عبد العزيز عزت : ابن مسكويه ص١٢٧ ومابعدها .
د. عبد الرحمن بدوي : الحكمة الخالدة (( جاويدان خرد )) ص٢٣-٢٤ .

- كتاب طهارة النفس.
- أجوبة وأسئلة في النفس والعقل.

وإضافة إلى هذا فقد سجل ياقوت رسالة مسكويه لبديع الزمان الهمذاني[1] يُشعره فيها بقبول اعتذاره، وكذا وصيته وتتضمن عهدًا من مسكويه بالتمسك بجملة من الفضائل الخلقية [2].

كما حفظ الثعالبي جملة من أشعار مسكويه في المدح والهجاء وغير ذلك[3].

وبعد هذا كله ، فإن هذا العدد من المؤلفات، والتنوع فيها، دال على سعة اطلاع مسكويه، وتوجهه بقوة إلى ميدان الكتابة والتأليف وإمضائه جزءًا ليس بالقليل من عمره فيه.

## عنايته بالأخلاق:

يرى مسكويه أن علم الأخلاق أفضل العلوم؛ لأنه يُعنى بتجويد أفعال الإنسان، وترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها، حتى تتسالم هذه القوى فيه وتصدر أفعاله كلها.. كما ينبغي، فيتحقق للمرء بهذا الكمال العملي (الخلقي) فإذا أضيف إليه الكمال النظري سعد السعادة التامة[4].

---

(١) أحمد بن الحسين بن يحيى، أبو الفضل الهمذاني، العلامة البليغ، صاحب المقامات، له ترسل فائق ونظم رائق، مات سنة ٣٩٨هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء(٦٧/١٧). شذرات الذهب (١٥٠/٣)

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء (١٥/٥-١٩) .

(٣) الثعالبي : تتمة يتيمة الدهر ص ١١٥ وما بعدها .

(٤) تهذيب الأخلاق ص٥٥، ٥٨ .

ويدعو إلى تربية الأطفال على الآداب الحسنة والأخلاق الفاضلة « فيحبب إلى الصبي إيثار غيره على نفسه»[1]، «ويعود أن لا يكذب ... ويمنع من خبيث الكلام وهجينه، ومن السب واللعن ولغو الكلام، ويعود حسن الكلام وطريفه، وجميل اللقاء وكريمه، ولا يرخص له أن يستمع لأضدادها من غيره، ويعود خدمة نفسه ومعلمه..» [2].

**ويبين أثر هذه التربية فيقول:**

« إنها تعود الأحداث محبة الفضائل وينشأون عليها، فلا يثقل عليهم تجنب الرذائل.. ويعتادون ضبط النفس عما تدعوهم إليه من اللذات القبيحة، وتكفهم عن الانهماك في شيء منها والفكر الكثير فيها.. وترقيهم إلى معالي الأمور؛ من التقرب إلى الله -عز وجل-، مع حسن الحال في الدنيا، وطيب العيش وجميل الأحدوثة، وقلة الأعداء، وكثرة المداح والراغبين في مودته من الفضلاء خاصة»[3].

وقد ألف مسكويه كتابه تهذيب الأخلاق لبيان السبيل لتحصيل الكمال الخلقي للفرد من خلال ترتيب قواه وأفعاله..، وللمجتمع من خلال التدبير المدني، الذي يرتب الأفعال والقوى بين الناس حتى تنتظم، ويسعد الناس سعادة مشتركة، كما كان ذلك في الشخص الواحد.[4]

---

(١) المرجع السابق ص٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٣- ٧٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٥٨ .

كما جمع في كتابه ((جاويدان خرد)) الكثير من وصايا الأمم وآدابها، ومواعظ حكمائها، وقد قال: إنه جمعها (( ليرتاض بها الأحداث، ويتذاكر بها العلماء ما تقدم لهم من الحكم والعلوم. والتمست بذلك تقويم نفسي ومن يتقوم به بعدي))[1].

وفي كتابه: تجارب الأمم- وهو كتاب في التاريخ- لم يغفل مسكويه عن الجانب الخلقي، فقد جعل من مقاصده في هذا الكتاب رصد تجارب المتقدمين وتدابيرهم لينتفع بها من بعدهم[2].

وهكذا فقد عُني مسكويه بالأخلاق، وأسهم فيها إسهاماً جيداً، مما يجعل تراثه حقيقاً بالدراسة.

## وفـــاتـــه:

عمّر مسكويه طويلاً، فقد عاش أكثر من تسعين عامًا، بل قارب المائة عام، فقد كانت وفاته سنة ٤٢١هـ[3].

ولقد سئم الحياة لما كبر وضعف، يقول في قصيدة له:

لَقَدْ بَلَغْتُ إلى أَقْصَى مَدَى عُمُرِيْ     وَكَلَّ غَرْبِيَ[4] وَاسْتَأْنَسْتُ بِالنُّوَبِ [5]

---

(١) جاويدان خرد (( الحكمة الخالدة )) ص٦ .

(٢) انظر: إلى إشاراته القيمة : جـ٢ ص ٢٧٩ ،٣٠٢، ٣٢٥ ، وغيرها .

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء (٥/٥) .

(٤) وكل غربي : أي ضعف نشاطي ، ووهنت قوتي ، انظر: المعجم الوسيط ص ٦٤٧ .

(٥) الثعالبي : تتمة يتيمة الدهر ص ١١٦ .

**ويقول في أخرى:**

وَلَقَــدْ نَفَـضْتُ بِهَـذِهِ الـدُّ نيَـا يَـدِيْ وَحَسَـمْتُ دَائِـيْ

مَــاذَا يَغُـرُّنِــيَ الــزَّمَـا نُ وَقَـدْ قَـضَـيْتُ بِـهِ قَضَـائِيْ

أوَ بَعْـدَ مَـا اسْـتَوْفَيْتُ عُمْـ ـرِيْ وَاطَّلَعْـتُ عَلَى فَنَـائِيْ

أُصْـطَادُ بِالـدُّنْـيَـا وَيُـنْـ صَبُ لِـيْ بِـهَا شَـرَكُ الرَّجَاءِ

هَـيْهَـاتَ قَـدْ أَفْضَـيْتُ مِـنْ صُـبْحِ الحَـيَاةِ إلى المَسَـاءِ

وَبَلَغْـتُ مِـنْ سَـفَـرِيْ إلى أَقْصَاهُ مَذْمُـومَ العَنَـاءِ [1]

---

(١) المرجع السابق ص ١١٨ .

# عصر مسكويه

## ١- الأوضاع السياسية.

ضعف الحكم العباسي في بغداد في القرن الثالث الهجري، فظهر التفكك والانحلال، وانقسمت الدولة الإسلامية إلى ممالك صغيرة نشأت فيها العصبيات والقوميات المحلية.

وقد بلغ الضعف في الخلافة العباسية ذروته في القرن الرابع الهجري عندما سيطر بنو بويه الشيعة على الخلافة العباسية عام أربع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، ويصور ابن الأثير[١] واقع الخلافة العباسية في عهدهم فيقول: ((وازداد أمر الخلافة إدباراً، و لم يبق لهم من الأمر شيء ألبتة، وقد كانوا يراجعون، ويؤخذ أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشيء. فلما كان أيام معز الدولة [٢] زال ذلك جميعه بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير، وإنما كان له كاتب يدبر إقطاعه وإخراجاته لا غير)) [٣].

---

(١) علي بن محمد بن عبد الكريم، عز الدين أبو الحسن الجزري الشيباني، الإمام العلامة المحدث الأديب الإخباري، صاحب التصانيف ، مات سنة ٦٣٠هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء(٢٢/٣٥٣ ) . شذرات الذهب ( ٥/١٣٧) .

(٢) أبو الحسين أحمد بن بويه بن فناخسرو الديلمي الفارسي ، تملك العراق نيفاً وعشرين سنة، وكان من ملوك الجور والرفض، مع حزم وسياسة وهيبة ، توفي سنة ٣٥٦هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء( ١٦/١٨٩) . شذرات الذهب (٣/١٨) .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٧/٢٠٧-٢٠٨ ) ، دار الكتب العلمية : بيروت ، ط١ سنة ١٤٠٧هـ .

وظهرت بجانب دولة بني بويه الشيعية إمارات ودول أخرى أكثر تشيعًا وأشد انحرافًا، منها إمارة الحمدانيين في شمال بلاد الشام، والدولة العبيدية في المغرب، وسيطر القرامطة على أغلب الجزيرة العربية [1].

قال الذهبي [2] -رحمه الله - : « جرى على الإسلام في المائة الرابعة بلاءٌ شديدٌ بالدولة العبيدية بالمغرب، وبالدولة البويهية بالمشرق، وبالأعراب القرامطة، فالأمر لله تعالى » [3].

وقد كان للضعف والانقسام الذي دب في كيان الأمة، والصراع بين أمراء تلك الدويلات بالغ الأثر في فساد الأحوال، وسوء الأوضاع، فقد ضعف الأمن حتى صارت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية عرضة للنهب في فترات عدة [4]. وانتشر الخوف وقطع الطريق حتى انقطع الحج من العراق والمشرق سنوات، لعيث الأعراب في الأرض فسادًا [5].

---

(١) انظر: ابن الأثير : الكامل (٣٢٦/٧) . ابن كثير : البداية والنهاية (٢٦٧/١١ ، ٢٦٩، ٢٨٤ ) .

(٢) أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي ، الإمام الحافظ المؤرخ، شيخ الجرح والتعديل، صاحب التصانيف الجميلة الحسنة، توفي سنة ٧٥٨هـ.
انظر: شذرات الذهب (١٥٣/٦). وابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٣/ ٣٣٦)، دار الجيل- بيروت، سنة ١٤١٤هـ.

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ( ١٠/١٦)

(٤) انظر: مسكويه: تجارب الأمم (٣٨/٢ ) .ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٧ /٦٨ )، دار المعارف العثمانية ، حيدر أباد ط١ سنة ١٣٥٩هـ . ابن كثير البداية والنهاية ( ٢٧١/١١، ٢٧٣ ،٣٣٨، ٣٣٠) وغيرها.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٠/١١، ٣٣٨، ٣٣٠ ). السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٦٢.

كما مهدت هذه الأوضاع السيئة لاستيلاء النصارى على ثغور الإسلام، وإفسادهم العريض فيها، ففي سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة: ((عاث الروم في الأرض فسادًا وحرقوا حمص وأفسدوا فيها فسادًا عريضًا، وسبوا من المسلمين نحوًا من مائة ألف إنسان ))[1]. وفي سنة تسع وخمسين وثلاثمائة (( دخلت الروم أنطاكية وقتلوا من أهلها الشيوخ والعجائز وسبوا الصبايا والأطفال نحوًا من عشرين ألفًا ))[2].

قال ابن كثير[3]: (( وكل هذا في ذمة ملوك الأرض أهل الرفض، الذين قد استحوذوا على البلاد وأظهروا فيها الفساد - قبحهم الله - ))[4].

وقد استمرت دولة بني بويه إلى سنة سبع وأربعين وأربعمائة للهجرة، عندما دخل السلطان طغرل بك[5] السلجوقي بغداد فقبض على آخر ملوك بني بويه[6]، وقضي على دولتهم[7].

---

(١) ابن الأثير: الكامل (٣١٤/٧ ) . وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية ( ٢٦٦/١١) .

(٢) ابن الأثير: الكامل (٣١٨/٧ ).

(٣) إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، حافظ مؤرخ فقيه، له تصانيف كثيرة نافعة، منها: (( تفسير القران العظيم ))، توفي بدمشق سنة ٧٧٤هـ .
انظر: ابن حجر : الدرر الكامنة ( ٣٧٣/١ ) . وشذرات الذهب ( ٢٣١/٦) .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية (٢٦٧/٨) .

(٥) محمد بن ميكائيل، السلطان الكبير، ركن الدين، أبو طالب، أول ملوك السلجوقية، كان عادلاً في الجملة، حليماً كريماً مات سنة خمس وخمسين وأربعمائة للهجرة وأصل السلجوقية من بر بخارى، لهم عدد وقوة وإقدام وشجاعة وشهامة .
انظر: سير أعلام النبلاء (١٠٧/١٨) . شذرات الذهب (٢٩٤/٣).

(٦) وهو أبو نصر خسرو بن الملك كاليجار البويهي، جاء مستأمناً طغرل بك فأخذه وسجنه مدة بقلعة الري، وتوفي محبوساً في سنة خمسين وأربعمائة ، وكانت ولايته ست سنين .
انظر: سير أعلام النبلاء(١٢٠/١٨) . شذرات الذهب (٢٨٧/٣) .

(٧) انظر: الكامل (٣٢٤/٨) .

## ٢ـ الأوضـــاع العلميـــة:

استمرت الحياة العلمية والفكرية -في القرن الرابع الهجري- حية ندية، وقد تألّق في هذا القرن عدد كبير من العلماء والأدباء والمفكرين.

**ففـــي الحديث وعلومـــه:** بـرز كل من الحافـظ ابـن حبـان البسـتي [١]، والحافظ الطبراني [٢]، والحافظ الدار قطني [٣].. وغيرهم.

**وفي الفقـــه:** الخـرقـي [٤]، وابـن بطـة [٥]، والخطابـي [٦]، وأبـو حامـد الإسفراييني [٧].

---

(١) محمـد بـن أحمـد التممي الدارمي البستي، الحافظ المجود، شيخ خرسان، صاحب الصحيح وغيره، توفي سنة ٣٥٤هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء ( ٩٢/١٦) . البداية والنهاية (٢٥٩/١١) .

(٢) أبـو القاسـم سـليمان بـن أحمـد بـن أيـوب اللخمـي الـشامي الإمام الحافظ الثقة، محدث الإسلام، صاحب المعاجم الثلاثة، توفي سنة ٣٦٠هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء(١١٩/١٦) . شذرات الذهب (٣٠/٣) .

(٣) علـي بـن عمـر بـن أحمـد بـن مهـدي أبـو الحـسن البغدادي، الإمام الحافظ المجود، شيخ الإسـلام، صـاحب الـسنن وغيرهـا، كـان مـن بحور العلم وأئمة الدنيا، انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث، توفي سنة ٣٥٨هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء(٤٤٩/١٦) . البداية والنهاية ( ٣١٧/١١) .

(٤) أبـو القاسـم عمـر بـن الحـسين بـن عبد الله البغدادي الخرقي الحنبلي ، صاحب المختصر المشهور، كان من كبار العلماء، توفي سنة ٣٣٤هـ
انظر: سير أعلام النبلاء (٣٦٣/١٥) . شذرات الذهب (٣٣٦/٢).

(٥) عبـيد الله بن محمد بن حمدان العكبري ، أبو عبد الله بن بطة ، الإمام القدوة العابد الفقية المحدث، شيخ العراق، صاحب الإبانة الكبرى، توفي سنة ٣٨٧هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء(٥٢٩/١٦ ) . البداية والنهاية (٣٢١/١١) .

(٦) أبو سليمان حمد ويقال أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي الشافعي ، أحد المشاهير الأعيان، والفقهاء المجتهدين المكثرين، من مصنفاته معالم السنن، وشرح البخاري ، توفي سنة ٣٨٨هـ .
انظر: البداية والنهاية (١١ /٣٢٤ ) . شذرات الذهب (١٢٧/٣) .

(٧) أحمد بن أبي طاهر الإسفراييني، العلامة، وشيخ العراق، وإمام الشافعية، كان يحضر درسه سبع مائة فقيه، توفي سنة ٤٠٦هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء( ١٧٨/١٧) . شذرات الذهب (١٧٨/٣) .

**وفي علم الكلام:** أبو الحسن الأشعري[1]، وأبو بكر الباقلاني[2].

**وفي التصـــــوف:** عاش أبو طالب المكي[3]. وفي ذلك العصر ارتفع شأن الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد في الكتابة والترسل.

**وفي اللغة والنحو:** عاش الأزهري[4]، وابن فارس[5].

**ومن الشعراء:** المتنبي[6]، وأبو فراس الحمداني[7]. وغيرهم كثير، من أعيان ذلك العصر من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة.

---

(١) هو على بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري ، العلامة إمام المتكلمين، كان عجباً في الذكاء وقوة الفهم، كان معتزلياً ثم تبرأ منه ورد على المعتزلة،وله مصنفات جمة، توفي سنة ٣٢٤ هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء (٨/١٥) . شذرات الذهب ( ٣٠٣/٢) .

(٢) محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر البصري المالكي الأصولي، رأس المتكلمين، وكان في غاية الذكاء والفطنة، وله تصانيف كثيرة منها: التبصرة والتمهيد في أصول الفقه، توفي سنة ٤٠٣هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء(١٩٠/١٧) . شذرات الذهب (١٦٨/٣) .

(٣) محمد بن عطية الحارثي المكي، الإمام الزاهد العارف، وشيخ الصوفية، له قوت القلوب وغيره من المؤلفات، توفي سنة ٣٦٨هـ
انظر: سير أعلام النبلاء(٥٣٦/١٦ ) . شذرات الذهب (١٢٠/٣) .

(٤) أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي اللغوي الشافعي، كان رأساً في اللغة والفقة، له كتاب تهذيب اللغة وغيره، مات سنة ٣٧٠هـ
انظر: سير أعلام النبلاء (٣١٥/١٦) . شذرات الذهب ( ٧٢/٣) .

(٥) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب اللغوي الرازي ، صاحب المجمل، ومعجم المقاييس ، كان رأساً في الأدب ، توفي سنة ٣٩٥هـ ، وقيل غيرها .
انظر: سير أعلام النبلاء (١١٣/١٧) . البداية والنهاية (٣٣٥/١١) .

(٦) أبو الطيب المتنبي أحمد بن حسين الجعفي الكوفي، شاعر الزمان، بلغ ذروة في النظم وأربى على المتقدمين، وكان من أذكياء عصره، وكان معجباً بنفسه كثير التيه، فمقت لذلك، قتل سنة ٣٥٤هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء(١٩٩/١٦) . البداية والنهاية . (٢٥٦/١١) .

(٧) الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الشاعر المفلِق، كان رأساً في الفروسية والجود وبراعة الأدب، قتل سنة ٣٥٧هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء (١٩٦/١٦) . شذرات الذهب (٢٤/٣) .

وقـد أسـهم تـشجيع بعـض الـوزراء، كالمهلبي [1]، والصاحب بن عـباد، وابـن خنـزابة[2]، في استـمرار نـشاط الحـركة العلمية والفكرية في ذلك العصر، حيث قربوا أهل العلم والأدب وأحسنوا إليهم ووصلوهم[3].

علـى أن من مثالب ذلك العصر في هذا الجانب، نشاط الاتجاهات الفلسفية المنحـرفة لـشغف الـولاة مـن البويهـيين وغيرهـم بالمباحث الفلـسفية وتقـديمهم للمشتغلين بها[4].

### ٣ـ بيئـــة مسكويـه:

عاش مسكويه في بغداد في كنف بني بويه، وقد كان فيهم تشيع وانحراف، حيث أظهروا سب الصحابة، حتى كُتب سبهم على المساجد في بغداد[5]، كما أظهـروا بدعـة عاشوراء. قال ابن الأثير في حوادث سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة: ((في هـذه الـسنة، عاشـر المحرم، عمل أهل بغداد ما قد صار لهم عادة من إغلاق

---

(١) قـال ابـن الأثـير عـنه: (( أزال كـثيراً مـن المظـالم، وقـرب أهـل العلم والأدب، وأحسن إليهم)). الكامل (٢٢٣/٧) .

(٢) جعفـر بـن محمـد بـن موسـى بن الحسن بن الفرات البغدادي، نزيل مصر، الإمام الحافظ الـثقة، الوزيـر الكامـل، وزر بمصر لكافـور. قال ابن كثير: لما رحل الدار قطني إلى مصر أكـرمه الوزيـر أبـو الفضل بن خنزابه وساعده على إكمال مسنده، وأمده بالمال الجزيل، توفي سنة ٣٩١هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء (٤٨٤/١٦) . البداية والنهاية (٣١٧/١١).

(٣) كـان الصاحب بن عباد يبعث كل سنة إلى بغداد بخمسة آلاف دينار لتصرف على أهل العلم. وابتاع الوزير سأبور ازدشير سنة ٣٨٣هـ داراً بالكرخ وجدد عمارتها، ونقل إليها كتباً كثيرة، ووقفها على الفقهاء ، وسماها دار العلم، وأوقف عليها الوقوف.
انظر: ابن الأثير : الكامل (٣٥٠/٩) . ابن كثير : البداية والنهاية ( ٢١٢/١١، ٣١٤-٣١٥ )

(٤) تفاصيل ذلك وشواهده في الفقرة الآتية .

(٥) ابن الأثير : الكامل ( ٥٤٥/٨) . ابن كثير : البداية والنهاية (٢٦٠/١١) .

الأسواق وتعطيل المعايش وإظهار النوح والمأتم بسبب الحسين بن علي [١]- رضوان الله عليهما- » [٢] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣] عن دولة بني بويه: «كان فيهم أصناف المذاهب المذمومة، قوم منهم زنادقة[٤]، وفيهم قرامطة[٥] كثيرة، ومتفلسفة ومعتزلة[٦] ورافضة[٧]، وهذه الأشياء كثيرة فيهم غالبة عليهم»[٨].

---

(١) الحسين ابن علي بن أبي طالب الهاشمي، أبو عبد الله ، سبط رسول الله - ﷺ - وريحانته، استشهد يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ ، وله ست وخمسون سنة.
انظر: سير أعلام النبلاء ( ٣/٢٨٠)، والإصابة (١/٣٣١)، وتقريب التهذيب ص ١٦٧ .

(٢) الكامل (٧/٣١٦) . وانظر: ابن الجوزي : المنتظم (٧/٥١،٤٧) . وابن كثير: البداية والنهاية ( ١١/٢٦٦/٢٦٧).

(٣) أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني الدمشقي الحنبلي ، العالم المجتهد الداعية المجاهد، المصلح، أوذي في الله ومات في السجن في دمشق سنة ٧٢٨هـ وكان مولده ٦٦١هـ .
انظر: البداية والنهاية ( ١٤/١٣٥). ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١/ ١٤٤).

(٤) الزنديق هو من يظهر الإسلام ويبطن غيره ، سواء أبطن ديناً : كدين اليهود أو النصارى أو غيرهم ، أو كان معطلاً جاحداً الصانع والمعاد والأعمال الصالحة ، فهو في مقابل المنافق.
ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٧/٤٧١) .

(٥) فرقة باطنية دهرية زنادقة تنسب إلى حمدان قرمط، وسمي بهذا لقرامطة في خطه أو في خطوه، وإليه تنسب القرامطة، وهذه الفرقة تدعو إلى دين المجوسية، ويقولون بقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع، ويميلون إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع .
انظر: عبد القاهر والبغدادي: الفرق بين الفرق ص٢٨٢ وما بعدها. دار التراث – القاهرة .

(٦) سموا بذلك لاعتزالهم مجلس الحسن البصري، ويسمون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية، ومن مذهبهم نفي الصفات، وإنكار القدر وإنفاذ الوعيد.
انظر: الشهرستاني: الملل والنحل ( ١/٤٣) ، دار المعرفة – بيروت ، سنة ١٤٠٠ هـ

(٧) سموا بذلك لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر وقيل غير ذلك، وهم فرقة من الشيعة وقد يسمى بها سائر الشيعة كما سماهم بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، من مذهبهم القول بثبوت إمامة علي بالنص، والوقيعة في كبار الصحابة، والأخذ بالتقية، وهي أن يقول الرجل بلسانه ما ليس في قلبه، وهي من النفاق. انظر: في بيان مذهبهم: أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (١/٨٨)، بتحقيق: محمد محيي الدين، مكتبه النهضة المصرية، ط٢، سنة ١٣٨٩هـ .
الشهرستاني: الملل والنحل ( ١/١٦٢). ابن تيمية: منهاج السنة (٢/٤٦) .

(٨) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ( ٤/٢٢ ) .

وقد لقيت الفلسفة كل الترحيب والتشجيع من البويهيين وغيرهم من أمراء الدويلات في ذلك العصر، وفي هذا يقول مسكويه: إن عضد الدولة أفرد في داره موضعاً خاصاً للحكماء والفلاسفة يجتمعون فيه « للمفاوضة آمنين من السفهاء ورعاع العامة، وأقيمت لهم رسوم تصل إليهم، وكرامات تتصل بهم، فعاشت هذه العلوم وكانت مواتاً، وتراجع أهلها وكانوا أشتاتاً، ورغب الأحداث في التأدب والشيوخ في التأديب، وانبعثت القرائح، ونفقت أسواق الفضل وكانت كاسدة، وأخرج من بيت المال أموال عظيمة صرفت في هذه الأبواب »[1].

كما تغاضى البويهيون عن النشاط السري لجماعة إخوان الصفا [2]، وكانوا ممثلين للفلسفة اليونانية [3].

وكان في أيامهم مجالس يجمعون فيها الفرق من السنة والمبتدعة واليهود والنصارى والمجوس والدهرية[4]، ولكل فرقة رئيس يتكلم وينصر مذهبه، فإذا

---

(١) مسكويه: تحت تجارب الأمم ( ٢/٤٠٨) .

(٢) جماعة وجدت في دولة بني بويه ببغداد ، وكانوا من صائبة المتفلسفة ، جمعوا في رسائلهم بين دين الصابئة والحنفية وكلام المتفلسفة، وفي رسائلهم من الكفر والجهل شيء كثير. ابن تيمية: الفتاوى ( ٣٥/٧٩ ) .

(٣) د.عبد المجيد بدوي : التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي في القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، ص٥٧. عالم المعرفة – جدة، ط١ سنة ١٤٠٣هـ.

(٤) هم الذين ينكرون المعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الدار، ومنهم القائلون بتناسخ الأرواح . وبهذا تقول طائفة من الفلاسفة والقرامطة وبعض مشركي العرب .
انظر:عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٧٠. وابن حزم: الفِصل في المِلل والأهواء والنحل (١/٩٠)، المطبعة الأدبية – مصر، ط١ سنة ١٣١٧هـ .

جـاء رئيس قام الكل له، فيقول واحد: تناظروا ولا يحتج أحد بكتابه، ولا نبيه، فإنا لا نصدق بذلك ولا نقر به، بل هاتوا العقل والقياس[1].

وإذا أضـيف إلى هـذا نشاط حركة الترجمة عن اليونانية والفارسية وغيرهما وانتـشار المكتـبات لـدى الملـوك والوزراء، فقد كان لهذه العوامل مجتمعة أثر في توافـر الكـثير مـن الباحثين - ومنهم مسكويه- على دراسة الفلسفة والنقل عن الفلاسفة اليونان والنسج على منوالهم.

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء (٢٥٢/١٦) .

## ٢ـ ابن القيم

### نسبه ومولده:

هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حَرِيز بن مكّي الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، المعروف بابن قيم الجوزية [١].

وكان مولده سنة إحدى وتسعين وستمائة من الهجرة [٢].

### أسرته:

نشأ ابن القيم في أسرة علم وصلاح ودين، فوالده أبوبكر بن أيوب الحنبلي، قيم الجوزية، كان رجلاً صالحاً متعبداً فاضلاً، قليل التكلف [٣].

وأخوه زين الدين أبوالفرج عبدالرحمن بن أبي بكر [٤]، كان إماماً عالماً من تلامذته الحافظ ابن رجب[٥] ، ولعبد الرحمن ابن فاضل هو إسماعيل، اقتنى أكثر مكتبة عمه شمس الدين ابن القيم بعد وفاته [٦].

---

(١) لأن والده أبا بكر كان قيماً على المدرسة الجوزية، وهي من أعظم مدارس الحنابلة بدمشق، وهي منسوبة إلى محيي الدين يوسف ابن الإمام أبي الفرج بن الجوزي، المتوفى سنة ٦٥٦هـ.
انظر: عبد القادر النعيمي: الدارس في أحكام المدارس (٢٩/٢) ، مطبعة الترقي — دمشق سنة ١٣٦٧هـ .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات (٢/٢٧٠) باعتناء س. ديدرينغ، ط٢ سنة ١٣٩٤هـ.
ابن كثير: البداية والنهاية (٢٣٤/١٤) . ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٤٧)، دار المعرفة — بيروت . ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٣/٤٠٠) .

(٣) توفي سنة ٧٢٣هـ قال ابن كثير:((وكانت جنازته حافلة، وأثنى الناس عليه خيراً)).
انظر: البداية والنهاية (١٤/١١٠) .

(٤) توفي سنة ٧٦٩هـ . الدرر الكامنة ( ٣٢٦/٢ ) . شذرات الذهب ( ٢١٢/٦).

(٥) عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، الإمام الحافظ الزاهد، صاحب التصانيف النافعة، منها جامع العلوم والحكم، وغيره، توفي سنة ٧٩٥هـ .
انظر: الدرر الكامنة ( ٣٢١/٢) . شذرات الذهب (٣٣٩/٦) .

(٦) توفي سنة ٧٩٩هـ . شذرات الذهب (٣٥٨/٦) .

وقد امتد هذا التوجه العلمي في أبناء ابن القيم - رحمه الله - .

- فابنه عبد الله- شرف الدين- كان مفرط الذكاء، وكان من العلم والصلاح بمكان، تولى التدريس في مكان والده بعد وفاته [1].
- وابنه إبراهيم- برهان الدين- علامة نحوي فقيه متقن، أخذ عن أبيه وغيره، وأفتى ودرس وناظر وألف[2].

هذه البيئة العلمية الصالحة كان لها أثرها في توجيه طاقات ابن القيم واستثمار مواهبه، وسعيه للتحصيل العلمي منذ نشأته.

## تحصيله العلمي:

توجه ابن القيم لطلب العلم وتحصيله منذ صغره، فقد بدأ السماع من شيوخه وهو في السابعة من عمره[3]، ثم لم يزل يثابر في طلب العلم ويترقى في درجاته حتى حاز علمًا جمًا وبلغ منزلة رفيعة.

وقد هيأ الله له جملة من الأسباب التي مهدت لبروزه، وأسهمت في تفوقه في العلم ورسوخ قدمه فيه، منها:

- قوة حافظته ووفور عقله، وسلامة فكره، وتعدد مواهبه.
- رغبته الصادقة في العلم، وجده التام، واجتهاده البالغ في تحصيله، وإفناؤه عمره في ذلك[4] .

---

(١) توفي سنة ٧٥٦هـ. انظر: البداية والنهاية ( ١٤/٢٥٣). الدرر الكامنة (٢/٢٩٠) .

(٢) توفي سنة ٧٦٧ هـ .
انظر: الدرر الكامنة (١/٨٥) . شذرات الذهب (٦/٢٠٨).

(٣) حيث سمع أجزاء على شيخه الشهاب العابر، المتوفى سنة ٦٩٧ هـ.
انظر: بكر أبو زيد : التقريب لفقه ابن قيم (١/٤٣)، مطبعة دار الهلال – الرياض .

(٤) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية (١٤/٢٣٤) .

- ما تهيأ له من العلماء الراسخين في مختلف العلوم والفنون، « فقد كانت الأمصار آنذاك تكتظ بعلماء الإسلام المتخصصين، والحفاظ البارزين، والمؤلفين المتقنين، خصوصًا في دمشق الشام مضرب دار ابن القيم ومحل إقامته » [1]. وقد اغتنم ذلك ابن القيم فنهل منهم، وأخذ عنهم، وانتفع بهم غاية النفع. ولاسيما شيخ الإسلام ابن تيمية الذي اتصل به بعد عودته من مصر إلى دمشق سنة ٧١٢هـ، وبقي ملازمًا له إلى أن مات سنة ٧٢٨هـ[2]، أي طوال ستة عشر عامًا، فأخذ عنه علماً جماً، وتلقى منه فنوناً كثيرة[3].
- وفرة الكتب والمؤلفات في عصره، بما تضمنته من تحقيقات واستنباطات واستدراكات جاءت ثمرة جهود فكرية مضنية في قرون متتابعة، وقد كان ابن القيم حريصًا على جمع الكتب وتحصيلها، قال عنه ابن كثير: «واقتنى من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عُشره من كتب السلف والخلف»[4].

وقد كان من ثمرة هذه المواهب، وهذا الجهد وما صاحبهما من توفيق وتسديد من الله تعالى، أن أخرج للناس علماً جماً وفكراً خصباً نيراً.

**شيوخه:**

تتلمذ ابن القيم على عدد من كبار العلماء في عصره، من أشهرهم[5]:

١. أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم المقدسي الحنبلي، المعروف بالشهاب العابر[6]، المتوفى سنة ٦٩٧هـ، وهو أقدم شيوخ ابن القيم [7].

---

(١) بكر أبو زيد : التقريب لفقه ابن القيم (٤٦/١) .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية (٦٧/١٤) .
(٣) بكر أبو زيد : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره ص٧٩ ، مطابع دار الهلال – الرياض، ط١ سنة ١٤٠٠هـ .
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٥).
(٥) وهم مرتبون بحسب تاريخ وفياتهم .
(٦) سمي بالعابر لاشتهاره بتعبير الرؤيا. انظر: شذرات الذهب (٤٣٧/٥) .
(٧) وقد أشار ابن قيم إلى الأخذ عنه في كتابه زاد المعاد (٦١٤/٣ - ٦١٦) تحقيق : شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط١ سنة ١٣٩٩هـ .

٢. أبو الفتح شمس الدين محمد بن أبي الفتح البعلبكي الحنبلي الفقيه اللغوي، المتوفى سنة ٧٠٩هـ، أخذ عنه العربية والفقه [١].

٣. والده أبو بكر بن أيوب (قيم الجوزية) أخذ عنه الفرائض[٢].

٤. شيخ الإسلام ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، المتوفى سنة ٧٢٨هـ [٣]، وهو أجل شيوخه وأكثرهم أثراً في تكوينه الفكري ونضوجه العلمي وتوجهه السلفي، لازمه حتى تفقه به وأخذ عنه علمًا جمًا [٤].

٥. مجد الدين إسماعيل بن محمد الفراء الحراني، شيخ الحنابلة بدمشق، المتوفى سنة ٧٢٩هـ [٥]، أخذ عنه الفرائض والفقه والأصول[٦].

٦. أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن زكي الدين عبد الرحمن الدمشقي الشافعي المعروف بالمزي، من الأئمة الحفاظ، توفي سنة ٧٤٢هـ. وانتفع به في علم الحديث ورجاله[٧].

---

(١) شذرات الذهب ( ٦/٢١-٢٢) . الوافي بالوفيات ( ٢/٢٧١) .

(٢) الوافي بالوفيات (٢/٢٧١) .

(٣) البداية والنهاية (١٤/١٣٥) . الدرر الكامنة (١/١٤٤) .

(٤) البداية والنهاية (١٤/٢٣٤) ، الوافي بالوفيات (٢/٢٧١) .

(٥) شذرات الذهب (٦/٨٩) .

(٦) الوافي بالوفيات (٢/٢٧١) .

(٧) شذرات الذهب (٦/١٣٦). وقد أشار ابن القيم إلى الأخذ عنه في مواضيع من كتبه، منها في كتابه جلاء الإفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ص ١٢ ،١٧ . دار المحمدية بالأزهر سنة ١٣٩٢هـ .

## منزلتـه العلميـة:

بـرع ابـن القـيم في عامـة علوم الشريعة وما يتصل بها، وإن نظرة متأنية في تـراثه العلمـي الـضخم لدالـة بـصدق وشـاهـدة بحق على رسـوخ علمه، وسعة معارفه ودقة تحقيقه.

وقـد أثنى عليه الأئمة والعلماء من المعاصرين له ومن بعدهم، فقال عنه ابن كثير: ((سمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة ))[1].

وقـال ابن رجب: ((تفقه في المذهب، وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين ابـن تيمـية، وتفـنن في علـوم الإسـلام، وكـان عارفـاً بالتفـسير لا يجـارى فـيه، وبأصـول الـدين وإليه فيهما المنتهى، والحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط مـنه لا يلحـق في ذلـك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكـلام والـنحو وغـير ذلـك، وكـان عالمـاً بعلـم السلوك، وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى )) [2].

وقـال الحـافظ ابـن حجـر[3]: (( كـان جـريء الجـنان، واسـع العلم، عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف))[4].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (١٤/٢٣٤) .

(٢) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٤٨) .

(٣) أحمـد بـن علـى بـن حجـر العسقلاني، الإمام الحافظ، علامة عصره في الحديث والتاريخ والـرجال، مـن مـصنفاته: فـتح الـباري في شـرح صـحيح الـبخاري، وتهـذيب التهـذيب وغيرها، توفي سنة ٨٥٢هـ .

انظر: شذرات الذهب (٧/٢٧٠). الأعلام (١/١٧٨) .

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة (٣/٤٠١) .

وقال السيوطي[1]: « قد صنف وناظر واجتهد، وصار من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفروع والأصلين والعربية » [2].

وقال الشوكاني[3]: « برع في شتى العلوم وفاق الأقران، واشتهر في الآفاق وتبحر في معرفة مذاهب السلف » [4].

## عقيدته ومذهبه:

### أ- عقيدته:

سلك ابن القيم - رحمه الله- مسالك السلف في عقيدته، فقررها - في عامة كتبه - أحسن تقرير ودعا إليها ورد على المخالفين لها. وبين ذلك أحسن بيان في قصيدته النونية المشهورة [5].

ولقد كان لصلته بشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية وطول ملازمته له الأثر البالغ في سلامة معتقده وصدق توجهه، وقد أبان- رحمه الله- ذلك في قوله:

---

(١) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين السيوطي، جلال الدين ،إمام حافظ مؤرخ أديب، مكثر من التأليف، توفي بالقاهرة سنة ٩١١هـ .
انظر: شذرات الذهب (٥١/٨). الأعلام (٣٠٢/٣) .

(٢) السيوطي : بغية الوعاة (٦٣/١) ، المكتبة العصرية – بيروت .

(٣) محمد بن على بن محمد الشوكاني، فقيه مجتهد، من كبار علماء اليمن، له مصنفات نافعة، ولد سنة ١١٧٣هـ، وتوفي سنة ١٢٥٠هـ .
انظر: الأعلام (٢٩٨/٦) .

(٤) الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع (١٤٣/٢) . مطبعة السعادة القاهرة، ط١ سنة ١٣٤٨هـ .

(٥) المسماة ((بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية )) من كتاب (مجموعة القصائد المفيدة)، وقد تضمن النونية لابن القيم وغيرها. نشر مكتبة الرياض الحديثة – الرياض .

يَـا قَـومُ وَاللهِ العظـيـمِ نَـصيحةً — مِـنْ مُشفقٍ وأخٍ لكـمْ معـوانِ

جَـرَّبتُ هَـذا كلَّـهُ وَوَقَعـتُ في — تلـكَ الشِّباكِ وَكُنتُ ذَا طيرانِ

حتـى أَتَـاحَ لـي الإلـهُ بِفَضْلِهِ — مَـنْ لـيس تَجْزيْهِ يَـديْ وَ لساني

حَبْرٌ أتى من أرضِ حَرَّان فـيا — أهـلاً بِمَـنْ قَـدْ جَـاءَ مِـنْ حَـرَّانِ

فـاللهُ يَجـزيـهِ الـذي هُـوَ أَهلُـهُ — مِـنْ جَنَّةِ المأوى مَعَ الرِّضوانِ

أَخَـذَتْ يَـدَاهُ يَـديْ وَ سَارَ فَلَمْ يَرمْ — حتـى أَرَانِـيْ مطلـعَ الإيمـانِ[١]

ولقد كانت كتبه وكتب شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية - ولم تزل - مرجعاً معتمداً في تقرير عقيدة السلف في مسائل التوحيد، والنبوات، وأركان الإيمان، وأفعال العباد، وغيرها.

### ب- مذهبه:

وأما مذهبه فهو موصوف في ترجمته بالحنبلي، كأسلافه وعقبه[٢]، ووصفه بعضهم بالاجتهاد[٣].

وأياً كان حال ابن القيم في شأن اجتهاده أو تمذهبه فإن ما ينبغي الإشارة إليه هو أنه امتاز في بحوثه واختياراته بأمور ثلاثة:

**أحدها:** محاربته للتقليد وتشنيعه على المقلدة[٤]، وقد نقل عن أبي عمر ابن عبد البر[٥] قوله: « أجمع الناس على أن المقلد ليس معدوداً من أهل العلم،

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٦- ١٠٧ .

(٢) انظر: الوافي بالوفيات (٢/٢٧٠ ) .ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٤٧) . التقريب لفقة ابن القيم (١/٦٠) .

(٣) كابن العماد : شذرات الذهب (٦/١٦٨) . والشوكاني: البدر الطالع (٢/١٤٣) .

(٤) وقد أطال الكلام على مسألة التقليد في كتابه القيم إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ١٦٨) وما بعدها، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر - بيروت، ط٢ سنة ١٣٩٧هـ .

(٥) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، الإمام الحافظ، إمام عصره، من مصنفاته: التمهيد، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، توفي سنة ٤٦٣هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/١٥٣ ) . شذرات الذهب (٣/٣١٤) .

وأن العلم معرفة الحق بدليله" ثم قال: ((وهذا كما قال أبو عمر- رحمه الله تعالى-، فإن الناس لا يختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصلة عن الدليل، وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد [1].. والمقلد خارج عن زمرة العلماء)) [2].

**الثاني**: اتباعه للدليل، وتركه ما خالفه كائناً من كان قائله، وفي هذا يقول: ((كثيراً ما ترد المسألة نعتقد فيها خلاف المذهب فلا يسعنا أن نفتي بخلاف ما نعتقده، فنحكي المذهب الراجح ونرجحه، ونقول: هذا هو الصواب وهو أولى أن يؤخذ به))[3].

ويرى أن تقليد المفتي للمذهب في مسألة معينة وهو يعلم أن مذهب غيره في تلك المسألة أرجح منه وأصح دليلاً خيانة لله ولرسوله وللسائل وغشاً له[4].

**الثالث**: احترام الأئمة ومعرفة فضلهم، والبعد عن تنقصهم أو الوقيعة فيهم، مع ترك ما خالف الحق من أقوالهم. وقد وضع في هذا المعني قاعدة هي في غاية النفع لطالب العلم ولكل باحث عن الحق، يقول فيها: إن من الواجب (( معرفة فضل أئمة الإسلام ومقاديرهم وحقوقهم ومراتبهم، وأن فضلهم وعلمهم ونصحهم لله ورسوله لا يوجب قبول كل ما قالوه، وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي عليهم فيها ما جاء به الرسول فقالوا بمبلغ علمهم والحق في خلافها لا يوجب اطراح أقوالهم جملة وتنقصهم والوقيعة فيهم، فهذان طرفان جائران عن القصد، وقصد السبيل بينهما، فلا نؤثم ولا نعصم[5].. ))

---

(١) ابن القيم : إعلام الموقعين (١/٧) .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) ابن القيم : إعلام الموقعين (٤/١٧٧) .

(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) المرجع السابق (٣/ ٢٩٥) .

## عبـــادتـه:

كـان ابـن القـيم- رحمـه الله - علـى درجـة عالـية من الاجتهاد في العبادة والحـرص عليها، وكان له عناية خاصة بأعمال القلوب من محبة وخشوع ويقين وإنابـة إلى الله تعـالى.. لمـا تقـرر عـنده مـن بالـغ أثـرها في زيـادة الإيمان وتحقيق العبودية، وعظيم أجرها وثوابها عند الله - عز وجل- [1].

قـال عـنه ابـن كـثير: « لا أعـرف في هـذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدًا، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك - رحمه الله -»[2].

وقـال ابـن رجب: «وكان- رحمه الله- ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغايـة القـصوى، وتألـه ولهـج بالذكـر، وشـغف بالمحبة، والإنابـة والاسـتغفار، والافـتقار إلى الله، والانكـسار لـه، والاطـراح بـين يديـه علـى عتبة عبوديته، لم أشـاهد مـثله في ذلـك، ولا رأيـت أوسـع مـنه علمـاً، ولا أعرف بمعاني القرآن والـسنة وحقائـق الإيمـان منه... وكان مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/٢٢٨) ، بتحقيق : محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٢ سنة ١٣٩٣ هـ ، قـال بـن القـيم : العـبودية أربـع مراتب ؛ قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح ، قال: (( وعمل القلب كالمحبة ( لله )، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، والموالاة فيه، والذل له والخضوع له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والذل له، والخضوع والإخبات إليه والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضُها أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة )) المرجع نفسه (١/١٠١) .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٥) .

والتفكر ففُتح عليه من ذلك خير كثير.. وحج مرات، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمراً يتعجب منه »[1].

وقال ابن حجر: « وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار، ويقول: « هذه غدوتي، لو لم أقعدها سقطت قواي، وكان يقول: بالصبر والفقر تنال الإمامة في الدين، وكان يقول: لابد للسالك من همة تسيره وترقيه، وعلم يبصره ويهديه »[2].

**أخــــلاقـه:**

نشأ ابن القيم في أسرة ذات علم وفضل - كما تقدم - وكان حريصاً على مجالس العلماء من ذوي الصلاح والفضل، يتقلب فيها ويقتبس منها العلم والفضيلة، فنشأ نشأة كريمة على أخلاق عالية وصفات حميدة.

كما كان لطيب نفسه، وقوة استعداداته، وعلو همته، وعنايته الفائقة بالفضائل الخلقية بحثاً وتحقيقاً ودراسةً أثرها في كمال خلقه وحسن سيرته.

وصفه تلميذه ابن كثير فقال: « وكان حسن القراءة والخُلُقِ كثير التودد، لا يحسد أحدًا ولا يؤذيه، ولايستعتبه، ولا يحقد على أحد... وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير والأخلاق الفاضلة» [3].

ولعل أبرز خلق امتاز به ابن القيم - رحمه الله- « التواضع » ، الذي هو سمة العلماء الصادقين، وشواهده كثيرة في مؤلفاته.

فمن ذلك قوله: بعد بيانه لقولــه تعالى: ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً

---

(١) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ( ٤٤٨/٤) .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة (١٠٤/٣) .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ( ٢٣٤/١٤ -٢٣٥) .

طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)[1] فهذا بعض ما تضمنه هذا المثلُ العظيم الجليل من الأسرار والحِكم، ولعلها قَطْرة من بَحرٍ بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجبُ التوبة والاستغفار، وإلا فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله؛ لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحِكَمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق، وبهذا تعرف قدرَ علوم الصحابة ومعارفهم، وأنّ التفاوت الذي بين علومهم وعلوم مَن بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومَن يختص برحمته » [2].

ويقول في ثنايا حديثه عن « السكينة » ولزومها للمفتي: « ولشدة الحاجة إلى السكينة وحقيقتها وتفاصيلها، وأقسامها، نشير إلى ذلك بحسب علومنا القاصرة، وأذهاننا الجامدة، وعباراتنا الناقصة.. » [3].

كما امتاز - رحمه الله - بالنصح للأمة، وقد تجلي هذا في عطائه الوافر، وبذله المتواصل في ميادين التدريس والتأليف.

وقد كان لهذه الخصلة وسابقتها بالغ الأثر في تلقي الأمة تراثه بالقبول وانتفاعها به غاية النفع.

---

(١) سورة إبراهيم ، الآيتين {٢٤-٢٥} .

(٢) إعلام الموقعين ( ١/١٧٥ ) .

(٣) المرجع السابق ( ٤/ ٢٠٠-٢٠١ ) .

**أعــمـالـه:**

ارتبطت أعمال ابن القيم - رحمه الله - بحياته العلمية فلم تخرج عنها، وأهم أعماله التي أمضى فيها عمره:

- الإمامة بالمدرسة الجوزية التي كان والده قيمها، وقد أمّ الناس فيها مدة طويلة، وكذا الخطابة في بعض جوامع دمشق(١).
- التدريس: وقد بدأ الجلوس له أيام ملازمته لشيخه ابن تيمية إلى أن مات(٢)، وقد عُني في دروسه بتقرير مسائل الاعتقاد(٣)، كما درس الفقه والحديث(٤) وغيرهما، وكانت تقرأ عليه أكثر تصانيفه(٥). وقد أخذ عنه العلم خلق كثير، وارتفع شأن عدد منهم كالذهبي، وابن كثير، وابن رجب وغيرهم.
- الإفتاء والمناظرة(٦): وقد سعى ابن القيم إلى نشر السنة من خلالهما، وبيان الحق للناس، مستشعرًا في ذلك نعمة العلم ومسؤولية تبليغه للناس، وصابراً على تبعات ذلك من المحنة والابتلاء والأذى.

---

(١) ابن رجب : ذيل الطبقات الحنابلة (٢/٢٤٩) . البداية والنهاية ( ١٤/١٧٤) .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٣/٢٤٩) . البداية والنهاية (١٤/٢٠٢) .

(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٤٨) .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ( ٣/٦٣-٦٤ ) . شذرات الذهب (٦/٢٠٨) .

(٥) قال بن رجب (( لازمت مجالسه أزيد من سنة، وسمعت عليه ( قصيدته النونية الطويلة ) في السنة وأشياء من تصانيفه، وغيرها )). ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٤٨) . وانظر: شذرات الذهب (٦/٣٤٩) .

(٦) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٢٤٨) . الوافي بالوفيات (٢/٢٧١) . الحسيني: ذيل العبر في خبر من غبر للذهبي ، ص ٢٨٢ ، تحقيق : محمد رشاد عبد المطلب ، مطبعة حكومة الكويت. وقد أشار ابن القيم – رحمة الله – إلى شيء من مناظرته في بعض كتبه ، فمن ذلك قوله : (( وقد جرت لي ( مناظرة ) بمصر مع أكبر من يشير إلية اليهود بالعلم والرياسة .... )) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص ٧٨ ، دار الكتب العلمية – بيروت .

- التأليـــف: وقد أولاه ابن القيم جل عنايته، فجاءت مؤلفاته وافرة العدد، متينة المحتوى، على درجة عالية من التحرير والإتقان والجمال[1].

قال ابن رجب: « صنف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلوم، وكان شديد المحبة للعلم وكتابته وتصنيفه » [2].

وقال الشوكاني: « وله من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالب المصنفين، بحيث تعشق الأفهام كلامه وتميل إليه الأذهان، وتحبه القلوب » [3].

**محنتـــه:**

أوذي ابن القيم - رحمه الله - لصدعه بالحق وإنكاره بعض ما كان شائعاً في عصره من مخالفات، فقد حبس مدة لإنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل[4].

كما أثارت بعض آرائه واختياراته بعض علماء عصره ممن جمدوا على التقليد، وضاقت نفوسهم عن تقبل الخلاف وتقدير الرأي المدعوم بالدليل، فسعوا إلى إيذائه، والنيل منه، وتأليب الولاة عليه.

قال ابن حجر: «اعتقل مع ابن تيمية بالقلعة بعد أن أهين وطيف به على جمل.. فلما مات (ابن تيمية) أفرج عنه » [5].

وجرى له بسبب فتواه في مسألة الطلاق، وفتواه بجواز المسابقة بغير محلل محن طويلة مع قاضي القضاة السبكي[6] وغيره[7].

---

(١) يأتي الحديث عن أهم مؤلفاته .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٤٩) .

(٣) البدر الطالع (١/١٤١) .

(٤) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٤٨) .

(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة ( ٣/٤٠١) .

(٦) تقي الدين أبو الحسن على بن عبد الكافي بن تمام الأنصاري السبكي المصري الشافعي، قاضي القضاة ، له تصانيف كثيرة ، توفي سنة ٧٥٦ هـ .
انظر: البداية والنهاية (١٤/٢٥٢) . الدرر الكامنة (١٣/٦٣) .

(٧) انظر: البداية والنهاية ( ١٤/٢٣٥) . الدرر الكامنة (٣/٤٠١) .

## تلامذته:

تصدى ابن القيم لإقراء العلم ونشره، وبذل في ذلك كثيراً من وقته، ولقد كان - رحمه الله- مقصداً لطلبة العلم لما كان عليه من سعة العلم مع التقوى والصلاح وكريم الأخلاق. قال ابن رجب: «أخذ عنه العلم خلق كثير من حياة شيخه وإلى أن مات، وانتفعوا به، وكان الفضلاء يعظمونه ويتتلمذون له»[1].

ومن أشهر تلامذته[2]:

١- شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي الحافظ، المتوفى سنة ٧٤٤هـ [3]

٢- الحافظ الذهبي[4].

٣- تقي الدين السبكي[5].

٤- الحافظ ابن كثير[6].

٥- الحافظ ابن رجب[7].

## مؤلفاته:

لابن القيم - رحمه الله- عدد كبير من المؤلفات القيمة والنافعة في جوانب العلوم المختلفة، وعامتها مطبوع ومتداول ومعتمد عند العلماء والباحثين.

---

(١) ابن رجب : ذيل الطبقات الحنابلة (٢/٤٤٩) .

(٢) وهم مرتبون بحسب وفياتهم .

(٣) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ( ٢/٤٤٩ ) .شذرات الذهب (٦/١٤١) .

(٤) انظر: بكر أبو زيد: التقريب لفقه ابن القيم (١/١٥٥) .

(٥) الدرر الكامنة (٣/١٣٤) .

(٦) البداية والنهاية ( ١٤/٢٣٤ - ٢٣٥ ) .

(٧) ذيل طبقات الحنابلة ( ٢/٤٤٨) .

قال ابن حجر: « كل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف »[1]، ومجموع مؤلفاته تقارب المائة[2]، من أشهرها:

- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية.
- أحكام أهل الذمة.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين.
- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان.
- بدائع الفوائد.
- التبيان في أقسام القرآن.
- تحفة المودود في أحكام المولود.
- تهذيب مختصر سنن أبي داود.
- جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام.
- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين.
- زاد المعاد في هدي خير العباد.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين.
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

---

(١) الدرر الكامنة (٤٠٢/٣) .

(٢) انظر: بكر أبو زيد : التقريب لفقه ابن القيم (١٦٨/١) وما بعدها ، فقد اعتنى بها وتتبعها وضبطها، ولذا اكتفيت بالإشارة إلى أهمها مما هو مطبوع ومتداول .

- الفروسيـــة.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

## عنـــايتـه بالأخلاق:

يـرى ابـن القـيـم- رحمـه الله- أن من العلم المفروض تعلمه على كل مسلم «علـم أحكـام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس، خصوصاً وعموماً، والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم ...» [١].

ومـن هـذا المنطلق كانـت عـناية الإمـام ابن القيم بمسائل الأخلاق وقضايا السلوك كبيرة، ومتوافقة مع ما لها من مكانة وأهمية.

وقد تجلت هذه العناية في صور شتى:

- مـنها أنـه وهـو يـتحدث عـن جوانب السيرة النبوية يولي الجانب الخلقي حظه من الاهتمام والبيان، فيذكر هدي النبي - ﷺ- وسيرته مع أزواجه وما كان عليه من حسن الخلق وطيب المعاشرة [٢]، وكذا خلقه في تعامله مـع غـيره. ويجمـل في بعـض المواضـع الحديث عن أخلاقه -عليه الصلاة والـسلام- فـيقول: « وأمـا سـيرته في أولـيائه وحـزبه، فأمـره (ربه تبارك وتعـالى) أن يـصبر نفـسه مـع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهـه، وألا تعـدو عيـناه عـنهم، وأمـره أن يعفـو عـنهم، ويـستغفر لهـم ويشاورهـم في الأمر وأن يصلي عليهم.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٥٦) . مكتبة الرياض الحديثة .- الرياض .

(٢) انظر: زاد المعاد (١/١٥٠) .

وأمره بهجر من عصاه، وتخلف عنه، حتى يتوب، ويراجع طاعته، كما هجر الثلاثة الذين خلفوا.

وأمره أن يقيم الحدود على من أتى موجباتها منهم، وأن يكونوا عنده في ذلك سواء شريفهم ودنيئهم.

وأمره في دفع عدوه من شياطين الإنس، أن يدفع بالتي هي أحسن، فيقابل إساءة من أساء إليه بالإحسان، وجهله بالحلم، وظلمه بالعفو، وقطيعته بالصلة، وأخبره أنه إن فعل ذلك عاد عدوه كأنه ولى حميم[1] ››[2].

- ومن شواهد عنايته بالأخلاق، اجتهاده في بيان معاني الفضيلة الخلقية وضوابطها، والفروق بين المتشابه منها[3]. يقول عن خلقي الشجاعة والجرأة والفرق بينهما: ‹‹ الشجاعة من القلب، وهى ثباته واستقراره عند المخاوف، وهو خلق يتولد من الصبر وحسن الظن، فإنه متى ظن الظفر وساعده الصبر ثبت...

وأما الجرأة فهي إقدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر في العاقبة، بل تقدم النفس في غير موضع الإقدام معرضة عن ملاحظة العارض، فإما عليها وإما لها ››[4].

ويبين الفرق بين خلقي العفو والذل، فيقول: ‹‹ العفو إسقاط حقك جوداً وكرماً وإحساناً مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ سورة فصلت الآية ٣٤ .

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (١٦١/٣) .

(٣) انظر: كتابه الروح ص ٢٣٠- ٢٥٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣٦- ٢٣٧ .

ومكـارم الأخلاق، بخلاف الذل، فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً وخوفاً ومهانة نفس، فهذا مذموم غير محمود» [1].

- ومـن صـور عنايتـه بـالأخلاق حرصـه على بيان ثمرات الأخلاق الفاضلة وآثارهـا الخـيرة، ونتائج أضدادها، وآثارها السيئة وعواقبها الوخيمة، وفي هـذا يقـول: « ملاطفـة الخلـق هـي معاملـتهم بمـا يحب أن يعاملوه به من اللطف، ولا يعاملهم بالعنف والشدة، فإن ذلك ينفرهم عنه، ويغريهم به، ويفسد عليه قلبه وحالـه مـع الله، ووقـته. فليس للقلب أنفع من معاملة الـناس باللطـف، فـإن معاملـة الـناس بـذلك؛ إمـا أجـنبي فتكـسب مودته ومحبـته، وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته، وإما عدو مبغض فتطفـئ بلطفـك جمرته، وتستكفي شره، ويكون احتمالك لمضض لطفك بـه، دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظـة عليـه والعنف بـه » [2].

ويقـول مبينـاً مـنافع الـصدق ومـضار الكذب: « كل عمل صالح ظاهر أو بـاطن فمنـشؤه الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب. والله تعـالى يعاقـب الكـذاب بـأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته. فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق، ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب » [3].

وعـن خلقي الجبن والبخل وآثارهما يقول: « الجبن والبخل قرينان؛ لأنهما عـدم الـنفع بالمـال والـبدن، وهمـا مـن أسباب الألم؛ لأن الجبان تفوته محبوبات

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤١- ٢٤٢ .

(٢) مدارج السالكين (٢/٥١١) .

(٣) الفوائد ص ١٣٦ ، دار الفكر .

ومفرحات وملذوذات عظيمة لا تنال إلا بالبذل والشجاعة، والبخل يحول بينه دونها أيضًا، فهذان الخلقان من أعظم أسباب الآلام » [1] . ويقول أيضًا: « من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته، سلبه الله إياه، أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلاً وآجلاً، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به ونقله إلى غيره، فيكون له مهنؤه وعلى مُخلفه وزره. وكذلك من رفه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله ، أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته ، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب » [2].

- من شواهد عنايته بالأخلاق: توجيهه إلى الاهتمام بها في الأطفال؛ بتربيتهم على الأخلاق الفاضلة والآداب الحسنة؛ لأن هذه المرحلة أفضل الأوقات للتوجيه والتأديب، ولأنها ذات تأثير بالغ على الأخلاق والسلوك في المستقبل، يقول ابن القيم: « ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمور خُلُقه، فإنه ينشأ على ما عوده المربى في صغره؛ من غضب ولجاج، وعجلة، وطيش، وحدة، وجشع، فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، فلو تحرز منها غاية التحرز فضحته -ولابد- يومًا ما، ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم، وذلك من قبل التربية التي نشأ عليها » [3].

---

(١) بدائع الفوائد ( ٢/٢٠٧ ) .

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/١٩٥) ، بتحقيق : محمد حامد الفقي ، مكتبة عاطف بمصر .

(٣) تحفة المودود في أحكام المولود ص ١٤٦، مكتبة دار البيان – دمشق، ط٢ سنة ١٤٠٧هـ.

ويذكر بعض الأخلاق المهمة التي ينبغي أن تلحظ في الطفل فيقول: «وينبغي لوليه أن يجنبه الأخذ من غيره غاية التجنب، فإنه متى اعتاد الأخذ صار له طبيعة، ونشأ بأن يأخذ لا بأن يعطي. ويعوده البذل والإعطاء، وإذا أراد الولي أن يعطي شيئًا أعطاه إياه على يده ليذوق حلاوة الإعطاء. ويجنبه الكذب والخيانة أعظم مما يجنبه السم الناقع، فإنه متى سهّل له سبيل الكذب والخيانة أفسد عليه سعادة الدنيا والآخرة، وحرمه كل خير» [1].

- وأخيرًا فقد تجلت عنايته بالأخلاق في عدد من مؤلفاته التي عامة ما فيها عن الأخلاق والسلوك كمدارج السالكين، وطريق الهجرتين وباب السعادتين، وعدة الصابرين، والفوائد. بل إنه لا يكاد يخلو كتاب من كتبه من مباحث ومسائل ذات صلة بالأخلاق والسلوك .

**وفاته:**

توفي ابن القيم في الثالث عشر من رجب، سنة إحدى وخمسين وسبعمائة للهجرة، بدمشق، ودفن فيها[2].

قال ابن كثير: «وقد كانت جنازته حافلة -رحمه الله-، شهدها القضاة والأعيان والصالحون من الخاصة والعامة، وتزاحم الناس على حمل نعشه » [3].

ورؤيت له منامات حسنة[4]، رحمه الله وأعلى منزلته.

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) البداية والنهاية ( ١٤/٢٣٤) . ذيل طبقات الحنابلة ( ٢/٤٥٠) . الدرر الكامنة (٣/٤٠٣).

(٣) البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٥ ) .

(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٥٠) . الدرر الكامنة (٣/٤٠٣) .

# عصر ابن القيم

## ١ - الأوضاع السياسية:

عاش المسلمون في القرن السابع الهجري ضروبًا من الصراع المرير مع التتار والصليبيين من جهة، ونزاعًا بين أمراء الدويلات من جهة ثانية، مما جعل المدن الإسلامية تعيش في خوف وشدة وبلاء.

فقد داهم التتار بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية سنة ٦٥٦هـ فأعملوا فيها القتل والنهب والتخريب، « وعادت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة»[١].

ثم توجه التتار إلى الشام فاستولوا على بعض مدنها، وعاثوا فيها فسادًا، فقتلوا ونهبوا وسبوا [٢].

ثم عزموا على دخول مصر فبادرهم المماليك بجيوش من مصر، يقودهم المظفر قطز[٣] فهزموهم في عين جالوت[٤] شر هزيمة[٥].

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية (٢٠٢/١٣) .

(٢) المرجع السابق ( ٢١٨/١٣ ) .

(٣) الملك المظفر قطزبن عبد الله، التركي، أحد مماليك المعز أيبك التركماني، صاحب مصر، كان بطلاً شجاعاً حازماً ، لما قتل أستاذه المعز قام في تولية ولدة نور الدين المنصور علي، فلما سمع بأمر التتار خاف أن تختلف الكلمة لصغر ابن أستاذه فعزله ودعا إلى نفسه، بويع سنة ٦٥٧هـ ، وقتل سنة ٦٥٨هـ - رحمه الله - .

(٤) هي بلدة بين بيسان ونابلس ، من أعمال فلسطين ، ياقوت : معجم البلدان (٢٠٠/٤) ، تحقيق: فريد الجندي ، دار الكتب العلمية – بيروت ط١ سنة ١٤١٠هـ .

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ( ٢٢٠/١٣-٢٢١ ) .

ثـم كانـت وقعـة شـقحب[1] سنة ٧٠٢هـ، والتي هزم فيها التتار من قبل جيوش الشام ومصر هزيمة مرة[2]، فحدث من طغيانهم وحسرت من نفوذهم، وأزالت خطرهم على المدن الإسلامية في الشام ومصر إلى حد بعيد، بينما بقيت العراق والمشرق في قبضتهم يعيثون فيها فسادًا[3].

كمـا تمكن السلاطين المماليك سنة ٦٩٠هـ من تطهير عكا وبقية السواحل من الوجود الصليبي[4]، منهين بذلك ما كان من صراع مرير مع الصليبيين، دام قرنين من الزمان.

بهـذه الانتـصارات الكبيرة نعمت مدن الشام ومصر بحال أفضل من حيث الأمن والاستقرار والرخاء في القرن الثامن الهجري.

وأمـا الخلافـة العباسـية فقـد انتهت على يد التتار لما اجتاحوا بغداد، حيث قـتلوا آخر خلفاء بني العباس المستعصم بالله[5]، إلا أن السلاطين المماليك نصبوا خلفاء من بني العباس[6] رمزاً للدولة دون أن يكون لهم من الأمر شيء، بل غاية

---

(١) نـسبة إلى المكـان الذي دارت فيه رحى الحرب ، ويعرف أيضاً بمرج الصُفّر ، وهو موقع قرب دمشق .

(٢) البداية والنهاية (٢٥/١٤) .

(٣) الرجع السابق ( ٢٩/١٤ ،٦٦، ٤٤) .

(٤) المرجع السابق (٣٢١/١٣ ) .

(٥) أبـو أحمـد بـن المستنـصر بـالله منـصور العباسي ، كان خيراً صالحاً ، ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ ، حكم خمس عشرة سنة وقتل سنة ٦٥٦هـ .

(٦) وأول مـن بويـع هـو المستنـصر بـالله أحمـد بـن الظاهـر محمد بن الناصر لدين الله العباسي، بويع بالخلافة بمصر أيام السلطان بيبرس سنة ٦٥٩هـ سار إلى بغداد لقتال التتار فقتل سنة ٦٦٠هـ . انظر: البداية والنهاية ( ٢٣١/١٣ -٢٣٢ ) شذرات الذهب ( ٢٩٧/٥) .

أمر الخليفة - كما يقول ابن القيم- أن «اسمه على السكة، وفوق المنابر مرفوع، والحكم النافذ لغيره، فحكمه غير مقبول ولا مسموع» [١].

## ٢ـ الأوضاع العلمية:

ازدهرت الحياة العلمية في دمشق والقاهرة في القرنين السابع والثامن إلى حد بعيد، ولاسيما بعد تدمير التتار لبغداد. فظهر في ذلك العصر العديد من المؤلفات القيمة في علوم الشريعة المختلفة، منها كتب شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم. كما ألفت في هذين القرنين الكثير من الموسوعات والمطولات في اللغة والتأريخ والتراجم[٢]. واشتهر جمع من العلماء، منهم[٣] العلامة ابن دقيق العيد[٤]، وابن جماعة[٥]، وابن سيد الناس[٦]، وابن هشام[٧]،

---

(١) ابن القيم : مدارج السالكين (٣٤٩/١) .

(٢) منها : لسان العرب لابن منظور، المتوفى سنة (٧١١هـ )، والبداية والنهاية لابن كثير، المتوفى (٧٧٤هـ ) . والوافي بالوفيات للصفدي ، المتوفى سنة ( ٧٦٤هـ ) .

(٣) سوى من تقدم ذكره من شيوخ ابن القيم وتلامذته .

(٤) تقي الدين أبو الفتح بن علي بن وهب بن مطيع القشيري المنفلوطي الشافعي المالكي المصري، الإمام العلامة الحافظ ، قاضي القضاة ، انتهت إليه رياسه العلم في زمانه، وله مصنفات عديدة ومفيدة ، منها : إحكام الأحكام . توفي سنة ٧٠٢هـ .
انظر: البداية والنهاية (١٦٩/١٤) . شذرات الذهب (٥/٦) .

(٥) بدر الدين أبوعبدالله محمد بن أبي إسحاق إبراهيم بن جماعة الكناني الحموي، الإمام العالم الزاهد، قاضي القضاة بمصر، له تصانيف فائقة ونافعة، توفي سنة ٧٣٣هـ .
انظر: البداية والنهاية (١٦٣/١٤) .شذرات الذهب (١٠٥/٦) .

(٦) محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله الأشبيلي المصري الشافعي ، الإمام الحافظ العلامة ، صاحب تصانيف نفيسة، توفي سنة ٧٣٤هـ.
انظر: البداية والنهاية (١٦٩/١٤) ، شذرات الذهب (١٠٨/٦).

(٧) جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري الحنبلي النحوي العلامة، له فوائد دقيقة، واستدراكات عجيبة، وتحقيق بالغ. قال ابن خلدون: مازلنا ونحن في المغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه.

وابن مفلح[1] وغيرهم.

وقد أسهم السلاطين المماليك في هذه النهضة العلمية، حيث قربوا العلماء، وعنوا بالوظائف العلمية كالقضاء والإفتاء والخطابة.

كما انتشرت المدارس في ذلك العصر[2]، واهتم بها الأمراء، ورصدت لها الأوقاف، فأسهمت في تنشيط الحركة العلمية، ويسرت سبل التحصيل العلمي للراغبين فيه، إلا أن وقف كل مدرسة على مذهب فقهي معين أذكى روح التقليد في المشتغلين بالعلم في ذلك العصر. ولذا يمكن القول إن التقليد كان السمة البارزة آنذاك. ومما يؤكد ذلك ما لقيه الأئمة المجتهدون، كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير[3] من محن بسبب بعض فتاويهم المتحررة من ربقة التقليد.

---

= له تصانيف عديدة نافعة ، منها : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب، وقطر الندى، وغيرها، مات سنة ٧٦١هـ .

انظر: الدرر الكامنة ( ٣٠٨/٢ ). شذرات الذهب ( ١٩١/٦ ).

(١) شمس الدين أبوعبدالله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي، أحد الأئمة الأعلام، كان بارعاً فاضلاً متقناً في علوم كثيرة، ولاسيما في الفروع، ولم يكن أحد في زمانه أعلم بمذهب الإمام أحمد منه، تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، وله تصانيف، منها: الفروع في الفقه، وهو من أجل الكتب وانفعها، وله الآداب الشرعية وغير ذلك. مات سنة ٧٦٣هـ .

انظر: الدرر الكامنة (٢٦١/٤) . شذرات الذهب ( ١٩٩/٦) .

(٢) منها: الناصرية، والصالحية، ودار الحديث الأشرفية، والعذراوية، والجوزية، والشبلية، والغزالية، والسامرية وغيرها، كما وجدت الحلقات العلمية المنتظمة في الجامع الأموي بدمشق، وجامع الحاكم بمصر .

انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ( ٣٤٠/١٣، ٣٥١، ٣٥٢ )، ( ٥٨/١٤، ٦١ ).

النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ( ٢٥٨/١ ) ومابعدها .

(٣) انظر: شذرات الذهب ( ٢٣٢/٦ ) .

ولغلبة التقليد وفقد روح الابتكار والتجديد توجهت جهود أكثر العلماء إلى تراث المتقدمين دراسة له، وشرحاً لمختصراته، أو اختصاراً لمطولاته.

ومن مثالب ذلك العصر وشواهد الانحراف فيه وجود نشاط واسع للمتصوفة [(١)] باتجاهاتهم الفلسفية وطرائقهم البدعية. كما سعى أهل الذمة من اليهود والنصارى إلى إظهار دينهم ونشر معتقداتهم، ولاسيما أيام استيلاء التتار على أجزاء من بلاد الشام[(٢)].

كما كان للرافضة شأن في دولة التتار في العراق وخراسان [(٣)].

في هذه البيئة العلمية بمعطياتها المختلفة عاش الإمام ابن القيم فاعلاً ومؤثرًا في مجتمعه، فدرس وأفتى وناظر وألف، ومتفاعلاً مع قضايا عصره، فحارب التقليد، ودعا إلى تحكيم نصوص الكتاب والسنة واعتمادها، ودرس علم التصوف وتبحر فيه، فبين ما له وما عليه[(٤)]. كما تصدى لأهل الذمة من اليهود والنصارى وبين ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، سالكًا سبيل العدل والإنصاف ومسترشداً بنصوص الكتاب والسنة [(٥)].

---

(١) البداية والنهاية ( ١٤ /٣٦، ٤٥ ،٢٢٠) .

(٢) المرجع السابق (١٤/٥٥) .

(٣) المرجع السابق (١٤/٥٦) .

(٤) كما في كتابه مدارج السالكين .

(٥) انظر: كتابه أحكام أهل الذمة ، تحقيق : د. صبحي الصالح . نشر دار العلم للملايين — بيروت، ط٢ سنة ١٤٠١هـ. وكتابه: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى. أما الرافضة فلعله اكتفى بما سطره شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية .

## ٣ـ الأوضاع الاجتماعية:

حفل عصر الإمام ابن القيم- رحمه الله- بعدد وافر من العلماء الصادقين والدعاة المخلصين، الذين كان لهم الأثر الكبير في المحافظة على تماسك المجتمع، وشيوع الفضيلة ومحاربة الرذيلة [١].

كما أسهم الصراع مع الغزاة من الصليبيين والتتار في إذكاء روح الجهاد في الأمة، كما كان للشدة التي عانى منها الناس بين حين وآخر أثر في توجيه القلوب إلى الله وخضوعها له[٢].

ولذا ظل الاعتزاز بالدين - بالجملة- سائداً في أبناء ذلك العصر، ولا أدل على ذلك من دخول الأمة الغازية المتغلبة من التتار في دين الإسلام.

ومع ذلك فقد تأثر المجتمع الإسلامي في ذلك العصر بطوائف التتار الذين أسروا في الحروب بين جيوش الشام ومصر وقبائل التتار؛ فرغم إسلامهم لم يتركوا كثيراً من عاداتهم السيئة، فكان لهم أثر سيء على المجتمع. يقول المقريزي[٣]. مصوراً ذلك: « لما كثرت وقائع التتار في بلاد المشرق والشمال، وأسروا كثيراً منهم وباعوهم في الأسواق، تنقلوا في أقطار مصر والشام. وملكت طائفة منهم تسمى « البحرية » ديار مصر، وغصت أرض مصر والشام بطوائفهم، وانتشرت عاداتهم السيئة، رغم أنهم رُبوا بدار الإسلام،

---

(١) انظر: الأمثلة والشواهد على هذا في البداية والنهاية ( ١٤/٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٠ ) .

(٢) انظر: المرجع السابق ( ١٤/٦٦ ، ٢٢٦ ) .

(٣) أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي المصري، الإمام العالم البارع، عمدة المؤرخين، ولي حسبة القاهرة غير مرة، وله مؤلفات كثيرة نافعة، توفي سنة ٨٤٥ هـ بالقاهرة .
انظر: شذرات الذهب (٧/٢٥٤) ، الأعلام (١/١٧٧) .

ولقنوا القرآن وأحكام الملة المحمدية، فجمعوا بين الحق والباطل وضموا الجيد إلى الرديء.. )) [1].

كما أوغل كثير من المسلمين في الظلم والفواحش والفجور والبدعة والغلو في الدين[2]. وزاد الأمر سوءاً انتساب بعض من يقع منهم مثل هذه الأمور للدين من المتصوفة ونحوهم، فصاروا بذلك من الموانع من دخول الناس في هذا الدين، يقول ابن القيم: (( لقد دعونا نحن وغيرنا كثيرًا من أهل الكتاب إلى الإسلام، فأخبروا أن المانع لهم ما يرون عليه المنتسبين إلى الإسلام، ممن يعظمهم الجهال؛ من البدع والظلم، والفجور، والمكر والاحتيال، ونسبة ذلك إلى الشرع ولمن جاء به، فساء ظنهم بالشرع وبمن جاء به ))[3].

أما عن الأحوال المعيشية؛ فقد كانت الزراعة المصدر الرئيس لغالب السكان، وهي تعتمد - في ذلك الوقت- على الأمطار والأنهار، ولذا كانت تتأثر كثيرًا بتأخر المطر.

ففي مستهل سنة خمس وتسعين وستمائة حصل في الديار المصرية قحط شديد، ووباء مفرط، فتفانى الناس إلا القليل، حتى كان يدفن في الحفرة الفئام من الناس. والأسعار في غاية الغلاء، والأقوات في غاية القلة والغلاء. وقد امتد الغلاء إلى بلاد الشام، ثم زال في منتصف تلك السنة [4].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٢/٢٢١) مختصراً ، دار صادر – بيروت .

(٢) ابن القيم: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ( ٢/٢٨٩) .

(٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ( ١٣/٣٤٣ ) . ابن عماد : شذرات الذهب ( ٥/٤٢٨ ) .

وفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة حصل على الناس في دمشق وبعض مدن الشام شدة وبلاء، وغلاء شديد بسبب تأخر المطر. قال ابن كثير: (( ولما كان العشر الأخير من شعبان من هذه السنة مَنّ الله - سبحانه وتعالى- وله الحمد والمنة على عباده بإرسال الغيث المتدارك الذي أحيا العباد والبلاد، وتراجع الناس إلى أوطانهم لوجود الماء في الأودية والغدران.. واطمأنت القلوب وحصل فرج شديد ))[1].

ومما وقع في ذلك العصر، كثرة منكرات الأسواق، من الغش في الصناعات، وتطفيف المكيال والميزان، والاحتكار، وعقود الربا، حتى أضرت بالناس. وقد تصدى لها العلماء، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، فدعوا إلى قيام أهل الحسبة بواجبهم من إزالة المنكرات وتأديب أهلها، والأخذ على أيديهم[2]. كما دعوا إلى التسعير إذا دعت الحاجة إليه، وإلى إلزام أرباب السلع بيع سلعهم بقيمة المثل، إذا امتنعوا من بيعها مع ضرورة الناس إليها إلا بالزيادة على القيمة المعروفة[3].

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (١٤/٢٢٤ ) .

(٢) انظر: ابن تيمية : الحسبة ص١١، دار الكتاب العربي ، ابن القيم : الطرق الحكمية ص ١٩، دار الكتب العلمية — بيروت .

(٣) انظر: الحسبة ص ١٧. الطرق الحكمية ص ٢٢٣- ٢٢٤ .

## ثانياً: لمحة عن جهود المتقدمين في الأخلاق

### ١- الأخلاق عند غير المسلمين

لقد عرفت الأمم والشعوب على اختلاف أزمانها وبيئاتها القيم والأخلاق. فلم تخل أمة من الأمم من ممارسات خلقية فاضلة، ومن تمجيد وتفاخر بالفضائل وإن اختلفت في مقدار ذلك.

فالصينيون وضع لهم فلاسفتهم تعاليم خلقية حوت كثيراً من التوجيهات الخيرة والصائبة[١]، كما تضمنت الديانة الكونفشيوسية[٢] الدعوة إلى جملة من الأخلاق الهادفة إلى إصلاح الفرد والمجتمع.

وأما الهند فكانت مرتعاً لمذاهب مختلفة، ونحل متعددة، ولكل نحلة طريق ومنهج ولها موافقون وأتباع. وقد جاء في بعض هذه المذاهب الأمر بجملة من الفضائل الخلقية، كالجود والكرم، والعفو عن المسيء، ودفع الغضب بالحلم...، والنهي عن عدد من الرذائل، كالقتل، والزنا، والكذب، والنميمة[٣]... وقال

---

(١) محمد سيد الكيلاني : ذيل الملل والنحل للشهرستاني ص٢١-٢٤. في نهاية المجلد الثاني من كتاب الملل والنحل للشهرستاني .

(٢) ديانة تنسب إلى كونفشيوس الفيلسوف الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد ، انتشرت في الصين وتضمنت إحياء الطقوس والعادات الصينية القديمة، وتعد الأخلاق عنصراً رئسياً في هذه الديانة .

انظر: المرجع السابق ص١٩. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ص٤١٧، ط٢ سنة ١٤٠٩هـ.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل (٢/٢٥٢- ٢٥٣).

الجاحظ[1]: « وأما الهند فإنما لهم معان مدونة وكتب مجلدة لا تضاف إلى رجل معروف، ولا إلى عالم موصوف، وإنما هي كتب متوارثة، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة »[2].

وأما الفلاسفة اليونان فقد بحثوا في قواعد الأخلاق وغاياتها، وكان لهم نظريات ومذاهب في الأخلاق [3].

وعند الفرس تنتشر الديانة الزرادشتيه التي وضعها زرادشت[4]، الذي ادعى النبوة وخرج على الناس بكتاب ضمنه بعض الوصايا والتوجيهات الخلقية مع ما فيه من شرك وضلال وباطل.

كما كان للعرب في جاهليتهم حكم ووصايا وتوجيهات خلقية حفظ كثير منها في أشعارهم، سار بعضها على ألسنتهم، وكان لها أثر كبير في أخلاقهم وسلوكهم.

---

(١) عمرو بن بحر البصري المعتزلي، أبو عثمان، كان من بحور العلم، صاحب فنون وأدب باهر، تصانيفه كثيرة جداً، توفي سنة ٢٥٥هـ .

انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٢٦) . البداية والنهاية (١١/١٩ — ٢٠) .

(٢) الجاحظ : البيان والتبين ( ٣/١٢ ) . دار الكتب العلمية — بيروت .

(٣) محمد يوسف موسى: تاريخ الأخلاق ص ٨٨، دار الكتاب العربي بمصر، ط٣، سنة ١٣٧٣ هـ .ابن خلدون: المقدمة ص٥١٥، ٥١٩.

(٤) فارسي عاش في القرن السادس أو السابع قبل الميلاد، وله كتاب يتضمن بعض العقائد والشعائر والطقوس والقوانين والأناشيد، كان يرى نكاح المحارم، وكان له أثر كبير في شيوع الإباحية في الفرس، وتعد الزردشتية فرقة من فرق المجوس.

انظر: الشهرستاني : الملل والنحل ( ١/٢٣٦ ) . محمد يوسف موسى : تاريخ الأخلاق ص ٢٨ — ٢٩ . الموسوعة العربية الميسرة (١/٩٢١).

ولهذا التوجه الخلقي لدى سائر الأمم أصول ومنابع استمدته من داخل النفس ومن خارجها. ويمكن إجمالها في الأمور الآتية:

**أولاً :** الأصول الفطرية للمعرفة الخلقية التي هي مشتركة بين الناس جميعًا على اختلاف أزمانهم وأقطارهم وثقافاتهم.

**ثانيًا:** بقاء آثار الرسالات في سائر الأمم [1]، فما من أمة إلا جاءها رسول، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [2]، وقد اتفقت الرسل على الدعوة إلى أصول الأخلاق، وصالح الأعمال [3].

**ثالثًا:** دوافع الاجتماع البشري، والتعايش مع الأمم والشعوب الأخرى التي تحتم الأخذ بجملة من الفضائل لينعم المجتمع بقدر مناسب من الاستقرار والأمن والوفاء بالحاجات والمصالح، وتحقيق النفع من الصلة بالآخرين.

إلا أن هذه الأصول والمنابع وحدها لم تكن لتفي ببيان سائر وجوه الفضيلة وحدودها.

كما لم يكن في وسعها أن تلزم بالفضيلة وتحمل على الأخذ بها لما فيها من قصور، ولما يعتريها من مؤثرات، ولذا جاء تراث الأمم - مع ما فيه من توجيهات خلقية صائبة، وحكم سائرة نافعة، وأمثلة سلوكية رائعة - مشوبًا بالنقص، مشتملاً على الخلل والدخل..

---

(١) انظر: ابن تيمية : مجموع الفتاوى (١٣٨/٩) .

(٢) سورة فاطر، الآية ( ٢٤ ) .

(٣) انظر: مناع القطان: التشريع والفقه الإسلامي تاريخاً ومنهجاً ص ١٣، مكتبة وهبة، ط١ سنة ١٣٩٦ هـ .

ففـي الهند تضمنت الوصايا الخلقية البرهمية[1] الدعوة إلى الانقطاع عن الدنيا، وتطهير النفس من خلال رياضات بدنية ونفسية تتسم بالقسوة والشدة [2].

كما ساد المجتمع الهندي - وما زال- نظام طبقي « لم يعرف تاريخ أمة من الأمم نظامًا أشد قسوة على الإنسان واستهانة بكرامته وهدرًا لقيمته منه » [3].

كمـا وجـد لـدى اليونان نزعة عنصرية حكموا بمقتضاها بكمال إنسانيتهم ونقـص مـن عداهم. وجاء فلاسفتهم فبنوا على أساس هذه النظرة الغالية قواعد اجتماعية وخلقية حددوا من خلالها ما لليونان من حقوق، وما على غيرهم من واجـبات، أهـدروا بموجـبها إنـسانية غيرهـم، وسـخروهم لخدمـة أغراضـهم ومطامعهم[4].

---

(١) البرهمية ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند، لا يعرف لها مؤسس معين، وهي تشمل أراء فلسفية وطقوساً عبادية وقيماً خلقية .
انظـر: محمـد سـيد الكيلانـي : ذيـل الملـل والـنحل ص٩ . الموسـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٥٣١.

(٢) انظـر: المـسعودي : مـروج الذهـب ( ١/ ٢١٥ ) ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ سـنة ١٤٠٦هـ . أسعد السحراني : الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة ص ٥٢ ، دار النفائس – بيروت ، ط١ ، سنة ١٤٠٨هـ .

(٣) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٥٨ ، دار السلام ، ط٩ سنة ١٣٩٦ هـ .

(٤) انظـر: عمـر عـودة الخطيب : نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري ص٣٦-٤١، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط ٢سنة ١٣٩٨هـ.

كما جاءوا بآراء غريبة وشاذة لا تتفق مع المبادئ الخلقية والقيم الإنسانية، فقد نادى أفلاطون [1] بإعدام الأولاد الذين يولدون لآباء أشرار حصرًا -كما زعم- للشر ومنعًا لسرايته وامتداده.

كما دعا إلى عدم السماح للضعفاء والمرضى من الأولاد بالبقاء [2].

أما أرسطو[3]، فقد أباح استرقاق الأعاجم وحرم استرقاق اليونان. كما رفض المساواة بين الناس، ودعا إلى أن تخص الأقلية بأحسن الأشياء، ويطالب غيرهم بالقناعة [4]، وأما الرومان فقد تأثروا بالفلسفة اليونانية، فسادت لديهم النزعة العنصرية وروح الاستعلاء والاستبداد. وقد تجلت هذه الروح في الأسلوب الذي اتبعوه في حكمهم للبلاد التي تغلبوا عليها كالشام ومصر، وفي القوانين التي سادت المجتمع الروماني فترة من الزمن، وفي صلاتهم بالأمم الأخرى، حيث كانوا يعلنون الحرب لمجرد غرض واحد وهو قهر الأمم المجاورة وإخضاعها، ويعقدون المعاهدات والمواثيق وينقضونها حسب الحاجة وما تمليه مصلحة الرومان [5].

---

(١) فليسوف يوناني مشهور، تتلمذ على سقراط ، له عناية بالأخلاق والسياسة ، من أشهر مؤلفاتة ( الجمهورية ) توفي سنة (٣٤٧ ق . م). الموسوعه العربية الميسرة ( ١/١١٧).

(٢) عمر عودة الخطيب : المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية . ص٤٦. مؤسسة الرسالة — بيروت ،ط٣ ، سنة ١٣٩٩هـ .

(٣) فليسوف يوناني، تتلمذ على أفلاطون، له كتب في الأخلاق والسياسة والخطابة والشعر، وهو واضع علم المنطق، توفي سنة (٣٢٢ ق. م ).
انظر: الموسوعة العربية الميسرة ( ١/١١٧ ) .

(٤) د. توفيق الطويل: الفلسفة الخلقية ص ٦٥. منشأة المعارف بالإسكندرية .

(٥) عمر عودة الخطيب: نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري ص ٤١- ٤٤. أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٤٠ ، ٧٧ .

وفي فارس وعند العرب في جاهليتهم مظاهر جمة للانحرافات الخلقية.. وفي المجتمعات المعاصرة البعيدة عن هداية الوحي، والمتحللة منه تلمس بجلاء صور الانحراف عن القيم الخلقية والفضائل الإنسانية، سواء في أخلاق الشعوب أو تعاملات الدول.

## ٢ـ جهود العلماء المسلمين في الأخلاق

جاءت اهتمامات علماء الإسلام بالأخلاق امتداداً لعناية الإسلام بها، ومتناسبة مع مكانتها من الشريعة الإسلامية.

وقد كان المعتمد في الفكر الخلقي في العصور المتقدمة التلقي عن العلماء وأهل العبادة والزهد، شأنه في ذلك شأن سائر العلوم قبل تدوينها[١]. ثم جاءت العناية بالأخلاق من المفسرين والمحدثين والفقهاء في ثنايا مؤلفاتهم تبعاً لورودها في الآيات والأحاديث أو مناسباتها في مؤلفاتهم الفقهية.

وأما المظهر الأهم لاهتمام العلماء بالأخلاق فيتمثل في إفرادهم مؤلفات مشتملة على آداب خاصة للمشتغل ببعض العلوم، أو المتقلد لبعض الأعمال والوظائف، كآداب حملة القرآن، وآداب المحدث، وآداب الفقيه والمتفقه، وآداب القاضي والمفتي والكاتب والوزير وهكذا [٢].

وقد امتازت إسهامات علماء المسلمين في الأخلاق بجملة من الخصائص يمكن إجمالها في الآتي:-

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٦٩ .

(٢) انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ( ١/٣٨ -٤٨ ) ، دار الفكر، ١٤٠٢هـ .

**أولاً:** الوقـوف مـع النصوص والاكتفاء بها في كثير من الأحيان، ولاسيما في عـصور الإسـلام الأولى -عـصور الـصحابة والـتابعين- حـيث كانـوا يـستمدون مـنها قواعد السلوك وأحكامه وضوابطه، وكانت هي المعيار المعتمد للحكـم علـى الأقـوال والأفعـال. وكـان اكتفاؤهم بها لكمال علمهـم بمدلـولاتها، وحرصـهم علـى العمـل بموجـبها، وقلة تكلفهم في البحث عن معانيها وشواهدها.

وقد ظهر امتداد هذا التوجه في مؤلفات علماء الحديث الذين أفردوا مسائل الأخـلاق والآداب بكـتب وأبـواب مـستقلة في مـؤلفاتهم؛ كالإمام البخاري[١] الـذي أفـرد كـتاباً في صـحيحه لـلأدب. وكـذا الإمـام مسلم [٢] خص الآداب ومكـارم الأخـلاق بجـزء مـن صـحيحه، كمـا ضـم جامع الترمذي[٣] أبوابًا في الآداب والصلة..

---

(١) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي ، أبو عبد الله البخاري ، جبل الحفظ، وإمام الدنيا في فقة الحديث، مات سنة ٢٥٦هـ .
انظـر: ابن حجر : تقريب التهذيب ص ٤٦٨، دراسة ومقابلة محمد عوامة ، دار الرشيد – حلب، ط١ ، سنة ١٤٠٦هـ .

(٢) هو مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، الإمام الحافظ صاحب الصحيح ، كان عالماً بالفقه، مات سنة ٢٦١هـ .
انظر: تقريب التهذيب ٥٢٩.

(٣) محمـد بـن عيسى بـن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي، أبو عيسى الترمذي، الإمام الحافظ العلم، صاحب السنن، مات بترمذ سنة ٢٧٩هـ .
انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٣/٢٧٠) . تقريب التهذيب ٥٠٠ .

كمـا سـار علـى هـذا بعـض الأئمة الذين أفردوا مسائل الأخلاق والآداب بمـؤلفات مستقلة، كما فعل الإمام أبو إسحاق إبراهيم الحربي[1] في كتابه إكرام الـضيف، حـيث جمع فيه ما جاء في السنة من الأمر بإكرام الضيف وما ثبت في ذلـك مـن الأجـر والـثواب، كمـا ذكر شواهد من كرم النبي-ﷺ- وصحابته، ومـن كـرم الخليل -عليه السلام-، ثم ما جاء من حد للضيافة بثلاثة أيام، ومن نهي الضيف من إطالة المكث عند مضيفه [2].

**ثانيًا:** أن الـبحث في المـسائل الخلقـية اتجـه عـند علمـاء المسلمين إلى الناحية العملـية، و لم يـنح إلى الناحـية النظرية، حيث توجهوا إلى الحديث عن قـواعد الـسلوك الـتي تجـب مراعاتها والأخذ بها، وعن آثار الأخلاق الفاضلة وثمراتها، ونتائج الأخلاق السيئة وعواقبها.

وفي تعـريفهم لمفردات الأخلاق لفتوا الأنظار إلى الصورة الفعلية لهذا الخلق أو ذاك، دون تكلـف في وضـع حـدود لـه. وشواهد هذا كثيرة جداً، فقد سُئل الفـضيل بـن عـياض[3]عـن التواضع فقال: (( أن تخضع للحق، وتنقاد له، وتقبل الحق من كل من تسمعه منه ))[4].

---

(١) إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم البغدادي الحربي، إمام حافظ، كان رأساً في الزهد، عارفاً بالفقه، صاحب تصانيف، توفي سنة ٢٥٨ هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء (٣٥٦/١٣) . شذرات الذهب (١٩٠/٢) .

(٢) انظر: إبراهيم الحربي: إكرام الضيف، تحقيق:عبد الله الغرازي، مكتبة الصحابة بطنطا، ط سنة ١٤٠٧هـ .

(٣) الفـضيل بـن عـياض بـن مـسعود التميمـي، أبـو علـي الإمـام الـزاهد المشهور، أصله من خرسان، مات سنة ١٧٨هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء (٤٢١/٨) . تقريب التهذيب ٤٤٨.

(٤) أبوعبدالـرحمن الـسلمي: طبقات الصوفية ص١٢، تحقيق: نور الدين شريبة، دار الكتاب النفيس – حلب ط٢، سنة ١٤٠٦هـ .

وسئل ذو النون المصري[1] عن المحبة فقال: « أن تحب ما أحب الله، وتبغض ما أبغض الله، وتفعل الخير كله، وترفض كل ما يشغل عن الله، وألا تخاف في الله لومة لائم، مع العطف على المؤمنين، والغلظة على الكافرين، واتباع رسول الله -ﷺ- في الدين »[2].

وقيل للأحنف بن قيس[3] ما الحلم ؟ قال: أن تصبر على ما تكره قليلاً [4].

وقد تأثر علماء المسلمين بالوحي في هذا، فالرسول -ﷺ- وهو يسعى إلى تصحيح مفهوم جاهلي عن واحدة من قوى النفس، وهى الشدة يصورها في مفهومها الصحيح بصورتها العملية، فيقول: « ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » [5].

ونراه أيضًا يرغب في جملة من الفضائل فيذكر وجوبها ولزومها دون تكلف بذكر معانيها وحدودها اكتفاءً بعلم المخاطبين بها من خلال وجدهم لها الذي

---

(١) هو أبو الفيض ثوبان، ويقال الفيض بن إبراهيم، أحد رجال الطريقة الصوفية، كان حكيماً فصيحاً، توفي سنة ٢٤٥هـ

انظر: البداية والنهاية (١٠ / ٣٤٧) . شذرات الذهب (١٠٧/٢) .

(٢) أبوعبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية ص ١٨.

(٣) هو الأحنف بن قيس بن معاوية التميمي، أبو بحر الأمير الكبير، العالم النبيل، أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل، من المخضرمين، مات سنة ٦٧هـ وقيل غيرها.

انظر: سير أعلام النبلاء(٨٦/٤) . تقريب التهذيب ٩٦.

(٤) ابن أبي الدنيا: الحلم ص٥٩ ، تحقيق: مجدي إبراهيم، مكتبة القرآن – القاهرة.

(٥) متفق عليه، رواه البخاري في الأدب، باب الحذر من الغضب. ومسلم في البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب .

يكفي في تصورهم لها [(١)]، كما في ترغيبه بالصبر والاستعفاف في قوله -عليه الصلاة والسلام-: (( من يتصبر يصبره الله، ومن يستعفف يعفه الله ))[(٢)]، ونهيه عن الغضب في قوله (( لا تغضب ))[(٣)]، ونحو ذلك.

**ثالثاً:** سعي علماء المسلمين إلى إبراز مبدأ الإلزام، أو ما يمكن التعبير عنه بالفرض أو الوجوب في الفضائل الخلقية، والتحريم لأضدادها، وهو أمر قد جاء تقريره في نصوص الكتاب والسنة. ففي القرآن الكريم يحذرنا الله -عز وجل- من الغيبة، ويعد المغتاب بمثابة الذي يأكل لحم أخيه وهو ميت ﴿ **وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ** ﴾[(٤)]، مما يوقع الجزم بحرمته، بل وشدة قبحه وشناعته.

ويبين الرسول -ﷺ- حرمة عدد من الرذائل الخلقية ببيان أنها من شعب النفاق في قوله: (( أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)) [(٥)].

---

(١) انظر: ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٩/٤٨) .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم، البخاري في الزكاة، باب في الاستعفاف عن المسالة. ومسلم في الزكاة، باب فضل التعفف والصبر.

(٣) أخرجة البخاري في الأدب ، باب الحذر من الغضب .

(٤) سورة الحجرات، الآية {١٢}.

(٥) رواه البخاري ومسلم. البخاري في كتاب الإيمان، باب: علامة المنافق. ومسلم في كتاب الإيمان، باب: أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً.

وقد جاء تأكيد العلماء للإلزام في بيانهم أن الفضيلة الخلقية جزء من الإيمان الواجب، ففي كتاب الإيمان من صحيح الإمام البخاري: باب الحياء من الإيمان. وباب إطعام الطعام من الإسلام. وباب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وفي صحيح مسلم: باب الحياء من الإيمان. وباب من الإيمان حسن الجوار وإكرام الضيف..

وكل هذه فضائل خلقية ساق لها الشيخان الأحاديث الدالة على أنها من الإيمان. ومن ذلك أنهم ذكروا الرذائل الخلقية كالكذب والكبر والخيانة والظلم وغيرها في جملة الكبائر، كما في كتاب الكبائر للإمام الذهبي وغيره[1].

**رابعاً:** **دقة إسهاماتهم في الأخلاق، وقرب دراساتهم إلى الصواب؛ لكونها معتمدة على الوحي أو موافقة لما جاء به.**

بل إنه يمكن القول إن الآراء التي جاء بها المتصوفة، كالحارث المحاسبي [2] والغزالي [3] مع ما في بعضها من دخل كانت أكثر صوابًا، وأقرب إلى الحق من

---

(١) كابن حجر الهيثمي في كتابه الزواجر عن اقتراف الكبائر. وابن نجيم المصري في رسالة الصغائر والكبائر.

(٢) هو الحارث بن أسد البغدادي المحاسبي، أبو عبد الله الزاهد العارف، شيخ الصوفية، له كتب كثيرة في الزهد، منها الرعاية، وللأئمة عليه مآخذ، توفي سنة ٢٤٣هـ .
انظر: طبقات الصوفية ص ٥٦ . سير أعلام النبلاء(١٢/١١٠ ) .

(٣) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، يلقب بحجة الإسلام، فليسوف متصوف، ولد وتوفي في خرسان (٤٥٠- ٥٠٥هـ).
انظر: الأسنوي: طبقات الشافعية (٢/٢٤٢ )، مطبعة الإرشاد – بغداد ، ط١، سنة ١٣٩١ هـ. شذرات الذهب (٤/١٠).

آراء الفلاسفة، كالفارابي[١] وابن سينا [٢] وغيرهما، للسبب ذاته وهو زيادة عنايتهم بالكتاب والسنة [٣].

وبعد فإنه مع ما قدمه علماء المسلمين من جهد عظيم وفكر أصيل في مباحث الأخلاق، فإن هناك من حاول النيل من جهودهم والغض منها والتهوين من شأنها[٤].

والعلة في ذلك هو توجه اهتماماتهم إلى الحديث عن قواعد السلوك وأنواع الفضائل التي يجب مراعاتها والتحلي بها، وهو ما يعرف بالأخلاق العملية. ونأيهم عن البحث في بواعث السلوك الخلقي وغاياته، ومعاني الفضيلة ومعاييرها، ومصدر إيجابها ونحو ذلك، مما عرف بالأخلاق النظرية.

وأيضًا لعدم مسايرتهم لخطى الفلاسفة اليونان في منهجهم في البحث في الأخلاق[٥].

---

(١) هو محمد بن طرخان التركي الفارابي، أبو نصر، شيخ الفلاسفة، له تصانيف مشهورة، متهم في دينه، توفي سنة ٣٣٩هـ .
انظر: الفهرست ٣٦٨. سير أعلام النبلاء (١٥/٤١٦ ) . شذرات الذهب (٢/٣٥٠).

(٢) هو الحسين بن عبد الله بن الحسين بن علي بن سينا، البلخي ثم البخاري، الفيلسوف الشهير، صاحب تصانيف في الطب والفلسفة والمنطق ، قال الذهبي: له أشياء لا تحتمل، توفي سنة ٤٢٨ هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/٥٣١).

(٣) لعل هذه الدارسة تجلي شيئاً من هذا .

(٤) منهم: أحمد أمين: الأخلاق ص ١٣٦-١٣٧، دار الكتاب العربي – بيروت، سنة ١٩٧٤م.

(٥) والذي خلاصته تتمثل في الصدور عن الواقع بالاستقراء له والصعود إلى النظريات، وليس الصدور عن المبادئ أو العقائد أوعن ( ميتافيزيقا ).
انظر: أحمد صبحي: الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ص ١٩-٢٠ ، دار المعارف – القاهرة ط ٢.

والحق أن ليس في وجهة علماء المسلمين ما يعاب، بل فيها الدلالة على أصالة فكرهم، ورسوخ علمهم، وسمو منهجهم. فتوجههم إلى الحديث عن الأخلاق العملية دون الأخرى له أسبابه ودوافعه، كما أن لبعدهم عن مناهج الفلاسفة اليونان بواعثه.

ويمكن إجمال أسباب توجه علماء المسلمين إلى الحديث عن الأخلاق العملية في الأمور الآتية:

**أولاً:** إن مفهوم الأخلاق في اللغة وفي الاصطلاح - كما سيأتي بيانه- ألصق في الدلالة على الجانب العملي منه على الجانب النظري، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن كثيرًا من المباحث النظرية التي ألحقت بعلم الأخلاق ليست في واقع الأمور مختصة به، فمعايير الفضيلة، ومصادر القوانين الخلقية هي مصادر المعرفة بوجه عام. كما أن مسألة البواعث والغايات ليست موصولة بالسلوك الخلقي وحده، بل إنها في الجانب العقدي والعبادي أكثر أهمية وأعظم خطرًا، ولذا جاءت دراسات علماء المسلمين لهذه المسألة أكثر شمولاً، وأوسع بيانًا [1].

**ثانياً:** إن بعض القضايا الرئيسة في الأخلاق النظرية، والتي شغلت الباحثين طويلاً وتعددت فيها المذاهب والاتجاهات، كمسألة الإلزام الخلقي ومصدره لم تكن محل إشكال في الفكر الإسلامي، فمن المتفق عليه

---

(١) انظر: ما كتبه السيوطي في الأشباه والنظائر ص١٢، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، سنة ١٣٩٩هـ. وابن نجيم في الأشباه والنظائر ص ١٩، دار الكتب العلمية – بيروت ط ١ سنة ١٤٠٠هـ.

بين سائر المذاهب أن الأمر والنهي في الإسلام هو لله تعالى ولرسوله - عليه الصلاة والسلام- [1].

وإنما جاءت عناية العلماء في هذه المسألة من باب بيان درجة الإلزام في الفضيلة الخلقية، والكشف عما هو متعين منها وما هو مندوب إليه فحسب - كما تقدم ذلك- من باب إثارة بواعث الرغبة والرهبة في النفوس، لتنشط إلى الفضائل والطاعات، وتتباعد عن الرذائل والمعاصي. ولذا فلا غرابة أن تخلو كتب الأخلاق والآداب في الإسلام من الحديث عن مصدر الإلزام الخلقي أو أن يكون محلاً للبحث والدراسة.

**ثالثاً**: أن التوجه لدراسة الأخلاق العملية هو الأكثر نفعاً والأعظم إيجابية، ويتجلى هذا فيما حققته الأخلاق الإسلامية - بفضل ذلك- من رسوخ في المجتمع، وامتداد في الواقع، وبقاء على مدار الأيام على مستويات متفاوتة، ولكنها تفوق سائر المجتمعات الأخرى.

وفي المقابل أخفقت الفلسفات الأخرى، وبالأخص الفلسفة اليونانية في بناء مجتمع إنساني تسوده القيم، وينعم أفراده بآثار الأخلاق الخيرة، لأنهم اتجهوا بالعلوم- ومنها علم الأخلاق- وجهة نظرية، ولاسيما في بيان حدود الأسماء والأشياء، وشغلوا بهذه القضايا [2]، فجاءت بحوثهم ضعيفة الصلة بالواقع،

---

(١) قال الشوكاني – رحمة الله - : (( لاخلاف في كون الحاكم الشرع بعد البعثة وبلوغ الدعوة )).
انظر: إرشاد الفحول ص ٧، دار الفكر– بيروت .

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى (٨٢/٩) وما بعدها .

متضمنة للتطويل والتكلف، وبيان البين الواضح، والوقوع أحياناً في أنواع من السفسطة [1].

هذا مع أن الطريق الذي سلكته يتضمن تعطيل الصلة بالله التي هي العامل الأهم في البعث على الفضيلة، وتنمية بواعث الخير في النفوس.

**رابعاً:** ما كان لعلماء المسلمين من منهج متميز في ظل الوحي، حيث استغنوا به عن طرق الفلاسفة من اليونان وغيرهم ومناهجهم المختلفة، ذلك أن نصوص الكتاب والسنة دلت على سائر الأخلاق والفضائل، ودعت إلى صالح الأقوال والأفعال، دعت إلى ذلك وبينته بالأدلة العقلية والسمعية[2]، ففي أكثر أوامر الإسلام الخلقية خطاب للعقول السليمة بالحكم المعقولة المقبولة، وسائرها مما يقضي العقل بحسنها ويدعو إليها ويأمر بمتابعتها[3]. فمما جاء مقروناً بالحكم المعقولة[4] قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[5]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا

---

(1) ابن تيمية: الرد على المنطقين ص ١٦٧ ، إدارة ترجمان السنة – باكستان ،ط٢ ، سنة ١٣٩٦هـ . والمراد بالسفسطة : نوع من الاستدلال يقوم على الخداع والمغالطة. أو هي خطأ مقصود للتموية على الخصم .

انظر: التعريفات ص ١٥٧، والمعجم الفلسفي ص ٩٧ .

(2) ابن تيمية: الرد على المنطقين ص ٣٢٤ .

(3) ابن القيم : مفتاح دار السعادة (٢/٨١- ٨٢) .

(4) انظر: د. محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية ص ١١٤، دار القلم – الكويت ، ١٤٠٥هـ .

(5) سورة فصلت ، الآية {٣٤} .

بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[(١)]، وقوله: ﴿ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ ﴾[(٢)].

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله - إلى نماذج من المقاييس العقلية التي جاءت بها الشريعة، فكملت بها الفطر، واستنارت بها العقول.

- فمنها ((اعتبار الشيء بمثله وخلافه، فيسوي بين المتماثلين، ويفرق بين المختلفين بما جعله الله في فطر عباده وعقولهم من معرفة التماثل والاختلاف))[(٣)].

وقد أنكر الله على من يخرج عن ذلك، كما في قوله: ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [(٤)].

- ومنها النظر في عواقب الأمور ونتائجها، وهو حقيقة التوجيه إلى الاتعاظ والاعتبار بقصص الأولين، وما جرت به سنة الله -عز وجل- فيهم في حال طاعتهم واستقامتهم، وفي حال معصيتهم وانحرافهم [(٥)].

بهذا كله صار لدى العلماء المسلمين موازين عادلة يزنون بها الأمور ويتعرفون من خلالها على حقائق الأشياء. ويستغنون بها عن طرق الفلاسفة اليونان ومناهجهم. هذا مع ما تبين لهم في الفلسفة اليونانية من قصور وانحراف،

---

(١) سورة الحجرات ، الآية {٦} .

(٢) سورة البقرة ،الآية {٢٨٢}.

(٣) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص٣٨٢ .

(٤) سورة الجاثية، الآية {٢١}.

(٥) انظر: ابن تيمية: الرد على المنطقين ص ٣٧١ .

ففلسفتهم الخلقية موصولة بنظراتهم العقدية الباطلة، من عدم إيجابهم اتباع الأنبياء أو التعبد لله -عز وجل- بما جاءوا به، لجهلهم بالنبوة وبعدهم عن هداية الوحي[1].

كما أن الحكمة العملية (الخلقية) غايتها عندهم العلم النظري، وأما الإسلام فقد جاء بالعلم والعمل جميعًا[2]، ثم إن كثيرًا مما جاءوا به مما يعرف الحق بدونه، أو هو من التكلف الذي لا يحتاج إليه، بل مما يحصل بالعلم الضروري الذي لا يفتقر إلى نظر.

---

(١) انظر: ابن تيمية: كتاب النبوات ص٢٢، مكتبة الرياض الحديثة — الرياض .

(٢) انظر: ابن تيمية: الرد على المنطقين ص ٤٤٧ .

# الباب الأول

# مفهوم الأخلاق ومصادرها

# الفصل الأول

# مفهوم الأخــلاق

# المبحث الأول
# مفهوم الأخلاق اللغوي والاصطلاحي

## أولاً: الأخلاق في اللغة:

الأخلاق: جمع خُلُق، وأصلها خَلَق، قال ابن فارس: « خلق: الخاء واللام والقاف أصلان، أحدهما: تقدير الشيء، والآخر: ملاسة الشيء.

- قال: ومن الأول: الخُلُق، وهي السجية، لأن صاحبه قد قُدِّر عليه.
- وأما الأصل الثاني: فصخرة خَلْقاء: أي ملساء »[١].

والخُلُق: الدين والطبع والسجية[٢]. ويطلق على صفات النفس الباطنة. قال الراغب[٣]: « الخَلْق والخُلُق في الأصل واحد، كالشَرْب والشُرب، ولكن خص الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة »[٤].

---

(١) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، كتاب الخاء – باب الخاء واللام وما يثلثهما (٢/٢١٣)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، الفيروزبادي: القاموس المحيط، كلاهما باب القاف، فصل الخاء.

(٣) هو الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني – أوالأصبهاني – المعروف بالراغب، أديب من حكماء العلماء، سكن بغداد وتوفي سنة ٥٠٢هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء(١٨/١٢٠). الأعلام (٢/٢٥٥).

(٤) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٤١٧- ٤١٧، دار المعرفة – بيروت.

وقـال ابـن الأثير[1]، وابن منظور[2]:« وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة، وهـي نفـسه وأوصـافها ومعانـيها المختـصة بهـا، بمنـزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة » [3].

ويظهر من معنى الأخلاق في اللغة:

- أن الأخلاق صفات للنفس الباطنة، والتي من طبيعتها الرسوخ والثبات.
- وأنها خاصة بسجايا النفس وقواها التي يمكن وصفها بالحسن والقبح.

## ثانيًا: الأخلاق في الاصطلاح:

يعـد التعـريف المنـسوب ليحيى بن عدي من أقدم ما قيل في تعريف الخلق، وقد جاء فيه: « إن الخلق هو حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعًا، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد » [4].

---

(١) المبارك بـن محمـد الـشيباني الجـزري أبوالـسعادات، المحـدث اللغوي الأصولي. أخو ابن الأثيرالمؤرخ وابن الأثير الكاتب. ولد سنة ٥٤٤هـ وتوفي سنة ٦٠٦هـ.
انظر: ابن الأثير: الكامل (٢٥٠/١٠). الأعلام (٢٧٢/٥).

(٢) محمـد بـن مكرم بن علي، ابن منظور الأنصاري الإفريقي الإمام اللغوي الحجة، ولد سنة ٦٣٠هـ وتوفي سنة ٧١١هـ .
انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٢٦٢/٤). الأعلام (١٠٨/٧).

(٣) ابـن الأثـير: الـنهاية في غريب الحديث، باب الخاء مع اللام (٧٠/٢)، ابن منظور: لسان العرب باب القاف ، فصل الخاء.

(٤) تهذيب الأخلاق ص ٤، تعليق: إبراهيم بن محمد، ط١، دار الصحابة للتراث. وقد نسبها إلى الجـاحظ، وممن صحيح نسبة الرسالة ليحيى بن عدي الأستاذ محمد كرد علي، وكان قد نسبها للجاحظ قبل ثم رجع عن ذلك .
انظر: مقدمة الرسالة ص ٧. رسائل البلغاء: لمحمد كرد علي.

ولم يبعد الغزالي كثيرًا عن هذا، فقد عرف الخلق بقوله: «الخلق عبارة عن هيئة راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية. فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقًا حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقًا سيئاً» [١].

وبنحوه عرفه الجرجاني[٢]، وكذا قيل في تعريفه في المعاجم الفلسفية [٣].

وفي الدراسات الحديثة ذات الوجهة الفلسفية انصبت التعريفات للخلق على بيان معناه بوصفه علماً، وأشهر ما قيل في تعريفه: «إنه ذلك العلم الذي يسعى للكشف عن المثل الأعلى للسلوك الإنساني، ووضع المفاهيم التي تحدد ما ينبغي أن يكون عليه ذلك السلوك »[٤].

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين (٥٣/٣)، دار المعرفة – بيروت سنة ١٤٠٢هـ .

(٢) هو علي بن محمد بن علي الجرجاني، من كبار علماء العربية، ولد سنة ٧٤٠هـ وتوفي في شيراز سنة ٨١٦ هـ .
انظر: الأعلام (٧/٥).

(٣) التعريفات ص ١٣٥، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، طبع عالم الكتب – بيروت، ط١ سنة ١٤٠٧هـ. مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي ص٨١، عالم الكتاب – بيروت جميل صليبا: المعجم الفلسفي (٥٣٩/١ )، دار الكتاب اللبناني – بيروت.

(٤) انظر: د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة ص ٤٣٦، دار النهضة العربية – القاهرة.
د. عبدالرحمن بدوي: الأخلاق النظرية ص ١٠ وما بعدها، وكالة المطبوعات – الكويت.
زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة ص ٢٠٧ – ٢٠٨، مكتبة مصر – القاهرة ١٩٧١م.
د. مصطفي حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام ص ٥، ٨.

ومن التعريفات الحسنة للخلق ما عرفه به الدكتور محمد عبد الله دراز[1] بقوله: « الخلق هو قوة راسخة في الإرادة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح (إن كان الخلق حميداً) أو إلى ما هو شر وجور(إن كان الخلق ذميمًا) »[2].

وقيل في تعريفه: «إنه صفة مستقرة في النفس – فطرية أو مكتسبة- ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة » [3].

## ثالثا: الخلق في الإسلام:

يطلق الخلق في الإسلام ويراد به الدين بشرائعه وأوامره ونواهيه وآدابه. كما يطلق على الفضائل التي يتعامل بها الناس.

فيطلق ويراد به الدين، قال ابن عباس[4] في قول الله -عز وجل- عن نبيه – عليه الصلاة والسلام- ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[5]، قال: على دين عظيم وهو الإسلام[6] .

---

(١) محمد بن عبد الله دراز، عالم أزهري مصري، من أعلام الفكر الإسلامي الحديث، له كتاب دستور الأخلاق في القران وغيره، ولد سنة ١٨٩٤م توفي سنة ١٩٨٥م.
انظر: مقدمة كتابه: الدين، دار القلم – الكويت ١٤٠٠هـ.

(٢) د. محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية ص ٨٨.

(٣) عبد الرحمن حبنكة الميداني: الأخلاق الإسلامية وأسسها (١/٧ )، دار القلم – دمشق ط ١ سنة ١٣٩٩هـ.

(٤) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم الرسول الله – ﷺ -، حبر الأمة وفقيه العصر وإمام التفسير، كان يسمي البحر لسعة علمه، توفي سنة ٦٧هـ بالطائف، وكان مولده قبل الهجرة بثلاث سنين.
انظر: سير أعلام النبلاء (٣٣١/٤). تقريب التهذيب ص ٣٠٩.

(٥) سورة القلم، الآية {٤}.

(٦) ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير ( ٤٢٨/٨)، المكتب الإسلامي – بيروت، ط٤ سنة ١٤٠٧هـ. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٤٠٢/٤)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، سنة ١٣٨٨هـ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (( وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمدًا - ﷺ - فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً، هكذا قال مجاهد [(١)]، وغيره[(٢)]. وهو تأويل القرآن كما قالت عائشة [(٣)] - رضي الله عنها-: ((كان خُلُقه القرآن))[(٤)]، وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر))[(٥)].

ومن الشواهد على شمول الخلق لسائر شعب الدين قوله - عليه الصلاة والسلام- : (( إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق )) [(٦)]، وقد جاء بشريعة كاملة ودين قويم.

وبهذا الشمول فهم السلف الأخلاق في الإسلام: قال ابن قدامة [(٧)] : ((الخلق: هو مجموع صفات المؤمنين))[(٨)].

---

(١) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي مولى السائب المخزومي من التابعين، إمام في التفسير وفي العلم، مات سنة ١٠١هـ أو بعدها بقليل.
انظر: سير وأعلام النبلاء (٤/٤٤٩). تقريب التهذيب ص ٥٢٠.

(٢) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٤/٤٠٢) .

(٣) عائشة بنت أبي بكر الصديق القرشية التيمية، أم المومنين زوج النبي - ﷺ - وأحب نسائه إليه، أفقه نساء الأمة. روت عن رسول الله علماً جماً.ماتت سنة ٥٧ هـ على الصحيح، وكان مولدها قبل الهجرة بسبع سنين.
انظر: سير وأعلام النبلاء (٢/١٣٥) . الإصابة (٤/٣٥٠).

(٤) رواه حمد وغيره: انظر: أحمد البنا: الفتح الرباني (٢٢/١٧) وصححه الألباني. انظر: صحيح الجامع الصغير(٤/٢٣٨)، المكتب الإسلامي- بيروت ط٣ سنة ١٤٠٢هـ.

(٥) ابن تيمية: مجموع الرسائل الكبرى ( الوصية الصغرى ) (٤/٢٣٨)، دار الفكر.

(٦) سبق تخرجه ص٧.

(٧) عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي، من كبار الحنابلة، عالم مجاهد قاتل مع صلاح الدين، وكتابه (المغني) من أوسع كتب الفقه وأفضلها. توفي سنة ٦٢٠ هـ، وكان مولده سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.
انظر: البداية والنهاية (١٣/٩٩). شذرات الذهب (٥/٨٨).

(٨) ابن قدامة: مختصر منهاج القاصدين، تعليق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ص١٥٨، مكتبة دار البيان ـ دمشق ١٣٩٨ هـ.

وقال الطيبي[1]: (( حسن الخلق هو ما اطمأنت إليه النفوس الشريفة الطاهرة من أوضار الذنوب ومساوئ الأخلاق، المتحلية بمكارم الأخلاق من الصدق في المقال، واللطف في الأحوال والأفعال، وحسن معاملته مع الرحمن ومعاشرته مع الإخوان وصلة الرحم والسخاء والشجاعة ))[2].

- ويطلق الخلق ويراد به ما يكون في المعاملات بين الناس، كما قال - عليه الصلاة والسلام- : (( إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق)) [3].

وقال- عليه الصلاة والسلام-: (( إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه )) [4].

---

(١) الحسن بن محمد بن عبد الله الطيبي، العلامة في المعقول والعربية والمعاني والبيان، له مصنفات عديدة، توفي سنة ٧٤٣هـ. انظر: شذرات الذهب ( ١٣٧/٦).

(٢) محمد بن السنوسي الحسيني: مكمل إكمال الإكمال، حاشية على إكمال إكمال المعلم، لأبي عبد الله محمد الأبي المالكي ( ١٠/٧)، دار الكتب العلمية – بيروت. وانظر: في هذا المعنى: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٦٦/١٠)، دار إحياء التراث العربي– بيروت سنة ١٩٦٥م.

(٣) أخرجه البزار والحاكم، الحاكم: المستدرك (١٢٤/١). انظر: كنز العمال (٦/٣)، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٣٩٩هـ. قال زين الدين العراقي في هذا الحديث: أخرجه البزار وأبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – وبعض طرق البزار رجاله ثقات. المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، بهامش إحياء علوم الدين للغزالي (٥٠/٣).

(٤) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، في أبواب النكاح، باب ما جاء في من ترضون دينه فزوجوه. انظر: تحفة الأحوذي (٢٠٥/٤) ، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ط٢ سنة ١٣٨٥ هـ. والألباني:صحيح سنن الترمذي (٣١٥/١)، المكتب الإسلامي– بيروت ط١ سنة ١٤٠٨هـ .

وعن معاذ بن جبل[1]- ﷺ- قال: آخر ما أوصاني به رسول الله - ﷺ- حين وضعت رجلي في الغرز أن قال: « أحسن خلقك للناس يا معاذ ابن جبل » [2].

وعن أبى هريرة[3]- ﷺ- قال: سُئل رسول الله -ﷺ- عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، قال: « تقوى الله وحسن الخلق »[4].

قال الطيبي: قوله: « تقوى الله » إشارة إلى حسن المعاملة مع الخالق، بأن يأتي جميع ما أمره به، وينتهي عما نهى عنه، وحسن الخلق إشارة إلى حسن المعاملة مع الخلق »[5].

وقال القرطبي[6]: « الأخلاق أوصاف الإنسان التي يعامل بها غيره »[7].

---

(١) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن، من أعيان الصحابة، شهد بدراً وما بعدها، أعلم الأمة بالحلال والحرام، مات بالشام سنة ١٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء(١/٤٤٣). الإصابة (٣/٤٠٦).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ص ٦٥٠، دار النفائس، ط٧ سنة ١٤٠٤ هـ.

(٣) عبد الرحمن بن صخر على الأشهر في اسمه واسم أبيه: الدوسي حافظ الصحابة، قدم المدينة ورسول الله – ﷺ – في خيبر فلزمه حتى وفاته، استعمله عمر على البحرين. مات سنة ٥٧هـ أو بعدها بقليل وهو ابن ثمان وسبعين سنة.
انظر: الإصابة (٤/٣٠٠). تقريب التهذيب (٦٨٠).

(٤) أخرجه الترمذي وقال: حديث صحيح غريب ، أبواب البر والصلة ، باب ما جاء في حسن الخلق .
انظر: تحفة الأحوذي (٦/١٤٢) . الألباني : صحيح سنن الترمذي ( ٢/ ١٩٤).

(٥) المباركفوري: تحفة الأحوذي (٦/١٤٢). وانظر: ابن تيمية : مجموع الرسائل الكبرى (١/٢٣٤) .

(٦) هو محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المالكي، من كبار المفسرين والفقهاء، مات سنة ٦٧١هـ.
انظر: شذرات الذهب (٤/١٠).

(٧) ابن حجر: فتح الباري ( ١٠/٤٥٦).

## رابعًا: المختار في تعريف الخلق:

للوصول إلى تعريف دقيق للخلق لابد من ملاحظة إطلاقات هذا اللفظ واستعمالاته، فهو يطلق على ما يقوم بالإنسان من صفات وملكات ذات أثر حسن أو سيء على سلوكه، فيقال: فلان ذو خلق حسن، أو على خلق سيء.

كما يطلق الخلق على مجرد الأفعال والتصرفات لبيان ما فيها من حسن أو قبح، وخير أوشر. فيقال: الصدق خلق فاضل، والكذب خلق رديء.

وعلى هذا فيمكن تعريف الخلق باعتباره وصفاً للإنسان بأنه « صفة راسخة في النفس لها آثار حسنة أو قبيحة في السلوك » فالأخلاق في أصلها صفات للنفس، والسلوك هو المظهر العملي والأثر الفعلي الدال على وجود خلق معين في النفس، وإن لم يكن شرطاً في وجود الخلق أو عدمه؛ لأن السلوك وإن اقتضته صفات النفس فإنه قد يتخلف لفقد شرط أو وجود مانع، « فالفقير الذي لا يجد ما ينفقه مع أن في نفسه نزعة البذل والسخاء لا نحكم عليه بالبخل لمجرد عدم إنفاقه»[1]. وفي المقابل فإن السلوك العارض لا يكفي لوصف صاحبه بالخلق، بل الذي «يدل على خلق المرء هو جملة تصرفاته في عامة الأوقات والأحوال لا في النادر منها» [2].

وأما كون السلوك حسناً أو قبيحًا فهو الضابط في بيان السلوك الصادر عن صفات النفس الخلقية.

---

(١) انظر: د. محمد عبد الله دراز – دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية ص ٨٩. وانظر: الغزالي: إحياء علوم الدين ( ٥٣/٣ ) .

(٢) انظر: د. محمد عبد الله دراز– دراسات إسلامية ص ٨٩. وانظر: الغزالي: المرجع السابق، الصفحة نفسها .

- وأمـا الخلـق باعتباره وصفاً للسلوك فيمكن تعريفه بأنه « صفات سلوكية إرادية حسنة أو قبيحة » . وأما الأخـلاق الفاضلة فهي «صفات سلوكية إرادية مستحسنة بالفطرة والعقل والشرع، لما لها من آثار خيرة ».

ومما يـؤكد الأخـذ بهذا التعريف واعتباره من إطلاقات الخلق أن مفردات الأخـلاق تطلـق علـى مجـرد الأقوال والأفعال الإرادية الحسنة أو القبيحة ولو لم تكن صادرة عن ملكة نفسية راسخة، فيقال فلان كريم لما يظهر من كثرة بذله وعطائه، ولو كان تكلفاً أو رياءً. يدل على هذا حديث أبي هريرة -ﷺ- قال: سمعـت رسـول الله -ﷺ- يقول: « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه... - الحـديث وفـيه - ورجـل وسـع الله علـيه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعـرفه نِعَمـه فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فـيها إلا أنفقـت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقى في النار»[(١)].

ففـي الحـديث إخـبار عـن أحـد الأصناف الذين هم أول المعذبين في النار، وفيه أن إنفاقه كان رياءً وسمعة وليس عن ملكة راسخة وإرادة خيرة، ومع ذلك فقـد قـيل إنـه جـواد، وفي الحـديث إقـرار لهـذه التـسمية مع بيان ما أعد له من العقوبة لتخلف أحد أركان قبول العمل وهو النية الخالصة لله -عز وجل-.

---

(١) رواه مسلم، في كتاب الإمارة – باب من قاتل للرياء والسمعة.

# المبحث الثاني
# مفهوم الأخلاق عند مسكويه

## أولاً: تعريف الخلق:

عرف مسكويه الخلق بأنه (( حال للنفس داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا روية ))[1].

**فالخلق عنده:** هيئة النفس وطبيعتها التي تصدر عنها الأفعال والتصرفات صدورًا تلقائيًا دون تأمل أو تفكر أو نظر. وفي تعريف الخلق بهذا نظر من وجهين:

**أحداهما:** أن قوى النفس وملكاتها كثيرة ومتعددة، منها قوة التفكر والتذكر.. كما في النفس الغرائز والوجدانات، وكل هذه قوى نفسية تصدر عنها آثارها في سهولة ويسر، فأي هذه القوى يسوغ أن نسميه خلقًا؟ [2].

**الثاني:** أن من الأخلاق ما لا سبيل إلى الظفر به إلا بالفكر والروية . فالحكمة[3] -مثلاً- حتى يوافقها المرء في أقواله وأفعاله لابد لها من التأمل والنظر قبل الإقدام على الفعل.

---

(١) تهذيب الأخلاق ص ٥١. وقد سُبق مسكويه إلى تعريف الخلق بهذا المعنى، فقد تقدم ص١٠٢ أن يحي بن عدي – وهو ممن تأثر بهم مسكويه – قد عرف الخلق بأنه: ((حال للنفس بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولاختبار )). وهو في معنى ما ذكره مسكويه.

(٢) انظر: د. محمد عبد الله دراز – دراسات إسلامية ص ٨٧ -٨٨.

(٣) الحكمة لها معان عدة، منها: العدل، كما في القاموس المحيط مادة (حكم )، وهي بهذا المعنى تعد من مفردات الأخلاق. وقيل في بيانها: (( الحكمة: معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. والحكمة معرفة الحق والعمل به........الخ )).
انظر: النهاية في غريب الحديث (١/٤١٩ ). مدا رج السالكين ( ٢/٤٧٨).
والمعجم الفلسفي ص ٧٦. وفيه : (( الحكيم من تصدر أعماله وأقواله عن روية ورأي سليم )).

## ثانيًا: طبيعة الخلق:

يقرر مسكويه بعد تعريفه للخلق أن منه ما هو فطري ومنه ما هو مكتسب، فيقول: « وهذه الحال [ حال النفس ] تنقسم إلى قسمين:

منها ما يكون طبيعيًا من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل الأسباب ... ومنه ما يكون مستفادًا بالعادة والتدريب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولاً فأول حتى يصير ملكة وخلقاً » (١).

ولكنه يتراجع سريعًا عن هذا التقسيم للخلق، فقد ذكر أن القدماء اختلفوا في الخلق « فقال بعضهم: من كان له خلق طبيعي لم ينتقل عنه. وقال آخرون: ليس شيء من الأخلاق طبيعيًا للإنسان، ولا نقول إنه غير طبيعي، وذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق، بل ننتقل بالتأديب إما سريعًا أو بطيئًا » قال مسكويه: « وهذا الرأي الأخير هو الذي نختاره لأنا نشاهده عياناً » (٢).

وهنا يختار مسكويه القول الأخير المتضمن لأمرين:

**إحداهما**: قابلية الأخلاق للتغيير واستعداد النفوس لذلك.

**الثاني**: نفي أن يكون شيء من الأخلاق طبيعيًا للإنسان.

**أما الأول**: فلا إشكال فيه. وأما الثاني: فهو تراجع من مسكويه عما قرره قريبًا من أن من الأخلاق ما هو فطري ومنه ما هو مكتسب، ولعل الذي حمل مسكويه على هذا هو ميله إلى المذهب القائل بوجود علاقة بين مصدر الخلق

---

(١) تهذيب الأخلاق ص٥١. وقد جاء هذا المعنى في الرسالة المتقدمة المنسوبة إلى الجاحظ، حيث جاء فيها، إن الخلق (( قد يكون في بعض الناس طبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد )) ص ١٢.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

والقـدرة علـى تغـييره، فمـا كان من الأخلاق فطرياً وجبليا فهذا لا قدرة على تغييره، وما كان منها مكتسب فإن في الإمكان تغييره.

وإذا كـان قـد اختار إمكان تغيير الخلق فهذا يستلزم أن لا يكون شيء منه فطريًا، وقـد أكـد مسكويه هـذا بجلاء بعـد ذكره لأقوال الفلاسفة اليونان في إمكـان تغيير الخلـق فقـال: « ونحـن نؤلف من ذلك قياسًا وهو هذا: كل خلق يمكـن تغـييره، ولاشـيء ممـا يمكـن تغييره هو بالطبع »[1]. ويقول: «والأخلاق بأجمعهـا لـيست طبيعـية، ولـو كانت كذلك لما عالجناها، ولا أمرنا بإصلاحها، ولا طمعنا في نقلها وإزالتها إذا كانت قبيحة... » [2].

**ثالثاً : مجال الأخلاق :**

يخـص مـسكويه الأخـلاق ويقـصر مجالهـا على ما يكون من المعاملات بين الـناس فحـسب. لـذا فهـو يـؤكد على أن « القوم الذين رأوا الفضيلة في الزهد وتـرك مخالطـة الـناس، وتفـردوا عـنهم إما بملازمة المغارات في الجبال، وإما ببناء الـصوامع في المفـاوز، وإما بالسياحة في البلدان، لا يحصل لهم شيء من الفضائل الإنـسانية ... وذلـك أن من لم يخالط الناس و لم يساكنهم في المدن لا تظهر فيه العفة، ولا النجدة، ولا السخاء، ولا العدالة. بل تصير قواه وملكاته التي ركبت فـيه باطلـة؛ لأنها لا تتوجه لا إلى خير ولا إلى شر. فإذا بطلت و لم تظهر أفعالها الخاصة بها صاروا بمنزلة الجمادات والموتى من الناس » [3].

ويقـول: « ولـيست الفـضائل إعـداماً، بـل هـي أفعـال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم، وفي المعاملات وضروب الاجتماعات » [4].

---

(١) تهذيب الأخلاق ص٥٣.

(٢) الهوامل والشوامل ص ١١٩.

(٣) تهذيب الأخلاق ص ٤٩، وانظر: ص ١٤٧.

(٤) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

# المبحث الثالث

# مفهوم الأخلاق عند ابن القيم

## أولاً : تعريف الأخلاق :

تقـدم أن الخلق يطلق على الدين بما يتضمنه من عقائد وشرائع ، كما يطلق علـى مـا يكون من معاملة بين الناس. وقد سار ابن القيم في أثناء تناوله المسائل الخلقية مع إطلاقات الشريعة في بيان معنى الخلق .

ففـيما يـتعلق بـالإطلاق الأول، ساق ابن القيـم- رحمه الله- حديث النواس بـن سمعـان[1] - رضي الله عنه -، وفـيه أنـه سـأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن البر والإثـم ؟ فقال : « البر حسن خلق ، والإثـم ماحاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الـناس » [2]. ثـم قـال مبيـناً مـادل عليه من شمول الأخلاق: « قابل البر بالإثـم، وأخـبر أن الـبر حـسن الخلق والإثـم حواز[3] الصدور. وهذا يدل على أن حسن الخلـق هـو الدين كله . وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، ولهذا قابله بالإثـم ... وهذا غير حسن الخلق وسوئه في عرف كثير من الناس » [4].

---

(١) النواس بن سمعان بن خالد الكلابي أو الأنصاري، صحابي مشهور سكن الشام.
ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ( ٥٩١/٤ ). تقريب التهذيب ص ٥٦٦.

(٢) أخرجه مسلم، في كتابه البر والصلة .

(٣) قال ابن الأثير: جاء في حديث ابن مسعود (( الإثم حواز القلوب )) هي الأمور التي تحز فـيها، أي تؤثـر كما يؤثر الحز في الشيء ، وهو ما يخطر فيها من أن تكون معاصي لفقد الطمأنيـنة إليها. وهي بتشديد الزاي جمع حاز، وقيل بتشديد الواو: أي يحوزها ويمتلكها ويغلب عليها.
انظر: النهاية في غريب الحديث ( ٣٧٧/١ ).

(٤) مدا رج السالكين ( ٣٠٦/٢ ).

وقال مؤكداً هذا المعنى : « الدين كله خلق، فما زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين » [1].

وقد ذكر بناءً على هذا الإطلاق تعريفاً للخلق فقال : « الخلق: هيئة مركبة من علوم صادقة، وإرادات زاكية، وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقاً هي أزكي الأخلاق وأشرفها وأفضلها » [2].

وهذا تعريف بالرسم وهو تعريف متين للخلق باعتباره مرادفاً للدين، فهو شامل لما يقوم بالإنسان من قوى وصفات تتعلق بعلمه وإرادته وأقواله وأعماله.

في مقام آخر يلحظ ابن القيم أن الخلق قرن بالتقوى كما في حديث أبي هريرة - ﷺ - قال :سُئل رسول الله - ﷺ - عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله وحسن الخلق»[3]. فبين معنى آخر للخُلق غير المعنى المتقدم، فيقول: «جمع النبي - ﷺ - بين تقوى الله وحسن الخُلُق؛ لأن تقوى الله يصلح مابين العبد وربه، وحسن الخلق يصلح مابينه وبين خلقه»[4]. وهذا هو الإطلاق الآخر للخلق الذي يحدد مجاله فيما يكون في المعاملات بين الناس.

---

(١) المرجع السابق ( ٣٠٧/٢).

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص ١٣٥ – ١٣٦، مكتبة الرياض الحديثة – الرياض .

(٣) أخرجه الترمذي، وسبق تخريجه ص١٠٧.

(٤) الفوائد ص ٥٤.

وبعد هذا كله فإن ابن القيم يتابع من تقدمه من السلف بتعريف الخلق بالمثال، فينقل عن عبدالله بن المبارك قوله[1] : (( حسن الخلق : طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى )) [2].

وقال في موضع آخر: ((وقيل حسن الخلق: بذل الجميل، وكف القبيح، وقيل: التخلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل )) [3].

**ثانياً : طبيعة الخلق :**

من الأخلاق ما هو فطري ، ومنها ما هو كسبي ، هذا ما اختاره ابن القيم، وقد استدل على هذا بحديث الأشج [4] - ﷺ -، الذي قال له النبي- ﷺ -: (( إن فيك لخلقين يحبهما الله، قال: قلت: وما هما يا رسول الله؟ قال الحلم والحياء - وفي لفظ والأناة - قلت: قديماً كان أو حديثاً. قال: قديماً، قلت: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله )) [5].

قال ابن القيم: ((فدل على أن من الخلق ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب)).

---

(١) عبد الله بن المبارك المروزي، مولى بني حنظلة ، العالم الجواد المجاهد الذي جمعت فيه خصال الخير، توفي سنة ١٨١هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء( ٤/٤٤٤). تقريب التهذيب ( ٢٥٥ ).

(٢) تهذيب سنن أبي داود ( ١٣/١٣٠). بهامش عون المعبود، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ط١، سنة ١٣٨٩ هـ.

(٣) مدارج السالكين( ٢/٣٠٧ ).

(٤) هو المنذر بن عائذ العبدلي، من عبد القيس، قدم إلى النبي - ﷺ - في وفد قومه.
انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ( ٤/ ٤٩١ ). دار الفكر. الإصابة ( ٣/ ٤٣٩ ) .

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ٨٦ ، دار الكتب العلمية - بيروت . وانظر: الألباني: صحيح الجامع الصغير، حديث رقم ٢١٣٢.

وعلى الرغم من أن اكتساب الأخلاق وتغيير الطباع ليس بالأمر اليسير، فإنه غير مستحيل، لما يشاهده من تغير أخلاق كثير من الناس وطباعهم[1].

ولاكتساب الأخلاق وسائل وطرق منها؛ مزاولتها واعتيادها وتكلفها، فإن المرء لا يزال يتكلف الصبر مثلاً حتى يصير الصبر له سجية، وكذا الحلم والوقار والسكينة، وسائر الأخلاق [2]. ويدل على هذا - كما يقول ابن القيم - قوله- عليه الصلاة والسلام -: ((ومن يتصبر يصبره الله))[3].

ومن الوسائل المقارنة والمعاشرة، فالإنسان ((يكتسب بالمقارنة والمعاشرة أخلاق من يقارنه ويعاشره )) [4].

وبالجملة فإن ابن القيم يؤكد في مقامات عدة أن من الخلق ما هو فطري ومنه ما هو مكتسب، مما يعني مسؤولية الإنسان عن خلقه السيء الضار ولزوم سعيه للخلاص منه. ومشروعية أخذه بالخلق الكريم النافع وبذل الجهد لتحصيله والاتصاف به .

---

(١) انظر: عدة الصابرين ص ١٢، دار الكتب العلمية- بيروت.
ص ٧٤- ٧٥ .

(٢) انظر: عدة الصابرين ص ١٢-١٣. ومفتاح دار السعادة ( ١/ ٢٨٤ ). والفوائد ص ٧٤ -٧٥.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، وسبق تخريجه.

(٤) مدارج السالكين ( ٢/٤٨٨). وانظر: تحفة المودود ص ١٤٦، تحقيق: بشير عيون، دار البيان – دمشق ، ط٢ سنة ١٤٠٧ هـ .

**ثالثاً : مجال الأخلاق :**

للأخلاق عند ابن القيم ثلاثة مجالات رئيسة، مع النفس، ومع الخلق ومع الخالق سبحانه. وقد جاء بيانه لذلك في مواضع عدة، منها عند حديثه عن خلق المروءة حيث قال: « حقيقة المروءة تجنب الدنايا والرذائل من الأقوال والأخلاق والأعمال ...

**وهي ثلاث درجات :**

**الدرجة الأولى:** مروءة المرء مع نفسه : وهي أن يحملها قسراً على ما يجمل ويزين، وترك ما يدنس ويشين ..

**الدرجة الثانية:** المروءة مع الخلق: بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء، والخلق الجميل ..

**الدرجة الثالثة:** المروءة مع الحق سبحانه، بالاستحياء من نظره إليك واطلاعه عليك في كل لحظة، وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان»[1].

وهذه الدرجة أساس لما قبلها، فرعاية حق الله -عز وجل-، وتعظيمه في قلب العبد وإجلاله ووقاره ، أساس لإصلاح النفس والأدب مع الخلق، يقول ابن القيم: «مراقبة الحق- سبحانه -هي الموجبة لكل صلاح وخير عاجل وآجل. ولا تصلح الدرجتان الأوليان ( محاسبة النفس وتزكيتها، وملاطفة الخلق) إلا بهذه. وهي المقصودة لذاتها، وما قبله وسيلة إليه، وعون عليه. «فمراقبة الحق -سبحان وتعالى- توجب إصلاح النفس، واللطف بالخلق » [2].

---

(١) مدارج السالكين ( ٢/٣٥٢-٣٥٣ ). وانظر: حديثه عن أنواع الأدب ( ٢/٣٧٦ )، وعن أقسام حسن الخلق في تهذيب السنن ( ١٣/١٣٠).

(٢) المرجع السابق ( ٢/٥١١ ) .

# المبحث الرابع
# الدراسة والتقويم

## أولاً : تعريف الخلق :

قدم مسكويه تعريفاً للخلق، وهو تعريف قد سبق إليه من جهة، وتنقصه الدقة من جهة أخرى، كما تقدم.

وأيضاً في ما ذكر من تعريف غفلة عن إطلاق مهم من إطلاقات الخلق ،هو الإطلاق المتعلق بصفات السلوك بعيداً عن صلتها بالإنسان؛ كالصدق والكذب، والشجاعة والجبن ...، أو مع صلاتها الظاهرية به دون أن يكون لها رسوخ وتمكن في نفس الإنسان، وهي بهذا لا تعدو أن تكون « صفات سلوكية إرادية، حسنة أو قبيحة ».

وكذا الحال عند ابن القيم الذي لا نجد له تعريفاً يحدد معالم الخلق، ويتميز به عن غيره، ولكنه يكتفي بتعريف الخلق أو حسن الخلق بذكر آثاره وثمراته، كقوله: «حسن الخلق: بذل المعروف قولاً وفعلاً، وكف الأذى قولاً وفعلاً »[1].

ولكن ابن القيم ساق تعريفاً حسناً للخلق باعتباره مرادفاً للدين — وهو أحد إطلاقات الخلق في الشرع - فقال: «الخلق : هيئة مركبة من علوم صادقة،

---

(١) تهذيب السنن (١٣٠/١٣) . وهذا التعريف ونحوه و إن كان أقل دقة فإنه أكثر نفعاً وأعظم فائدة من التعريفات الحدية؛ لأنه يبين معنى الخلق الحسن من خلال آثاره في السلوك، فيسهل تحصيله لطالبه. ولذا درج السلف على تعريف الخلق بنحوه .
ثم إن ابن القيم وهو ينقل هذه التعريفات ويصححها ( المدارج ٣١٧/٢ ) يدرك أنها ليست حداً في تعريفه، وإنما لأنها أقرب في بيانه وتقريب معناه. ولذا نجده وهو يتحدث عن منزلة المحبة من منازل السائرين يقول: (( لاتحد المحبة بحد أوضح منها. فالحدود لاتزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من ( المحبة ) وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الست ..)) مدارج السالكين (٩/٣) .

وإرادات زاكية، وأعمال ظاهرة وباطنة، وموافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقاً هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها ))[1].

**ثانياً : طبيعة الخُلق :**

الحق الذي لا مرية فيه أن من الأخلاق ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب، كما قرر ذلك ابن القيم وساق له الأدلة والشواهد.

ولكن مسكويه تردد في هذه المسالة، وانتهي - كما تقدم - [2] إلى نفي أن يكون شيء من الأخلاق فطرياً. لأن القول بفطرية شيء منها يعني عدم القدرة على تغييره، ووضع في هذا قاعدة صاغها بقوله: (( كل خلق يمكن تغييره، ولاشيء مما يمكن تغييره هو بالطبع )) [3].

وقد برهن على ذلك بمقدمتين؛ المقدمة الأولى بما يشاهد من أثر للتأديب ((ونفعه في الأحداث والصبيان، ومن الشرائع الصادقة التي هي سياسة الله لخلقه))[4]، وبما يستلزم القول بعدم القدرة على تغيير الخلق من (( إبطال قوة التمييز والعقل، وإلى رفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين ))[5].

وأما المقدمة الثانية وهي أنه لا شيء مما يمكن تغييره هو بالطبع فقال مستدلاً لها (( إن أي أحد لا يروم أن يغير حركة النار التي إلى فوق بأن يعودها

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ١٣٥- ١٣٦ .

(٢) انظر: ص ١١١ .

(٣) تهذيب الأخلاق ص ٥٣ .

(٤) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٥) المرجع السابق ص ٥١ .

الحركة إلى أسفل، ولا أن يعود الحجر حركة العلو يروم أن يغير حركة الطبيعة التي إلى أسفل))[1].

وفي هذه النتيجة التي انتهى إليها مسكويه نظر من وجهين :

**الأول**: أن قياس النفوس البشرية على الأمور الطبيعية قياس غير مستقيم ؛ لأن الله - عز وجل - غرس في النفوس بواعث الخير والشر، وجعل في الإنسان قوة القبول والتعلم، ولذا فنفسه مهيأة ومستعدة للارتقاء في مراتب الفضيلة والانحدار في دركات الرذيلة، قال الله تعالى ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾[2].

كما أن الكتاب والسنة مملوآن بالأوامر والنواهي الخلقية، وفي المقابل فقد أخبر الله - عز وجل- أنه لا يكلف عباده مالا طاقة لهم به، ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾[3] فدل هذا على أن في النفس الاستعداد والقابلية لاكتساب الأخلاق الفاضلة والخلاص من الصفات الرذيلة، سواء كانت فطرية أو مكتسبة.

**الثاني**: إن تبديل الطبع السيء إلى الحسن ليس هو المتعين دائماً، وان كان أمراً مرغوباً فيه، ولكن بحسب المرء إذا لم يستطع ذلك أن لا تتجاوز آثار طبعه السيء إلى إلحاق ضرر بالآخرين أو منع حق واجب لهم.

فالمبتلى بالحسد مثلاً ينبغي له السعي إلى تطهير قلبه وتنقية نفسه ليكون أقدر على قبول الخير والبذل فيه، ولكن لا تلحقه تبعة من وجود هذا الداء بقلبه

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣ .

(٢) سورة الشمس ، الآيات { ٧-١٠} .

(٣) سورة البقرة الآية {٢٨٦} .

مـا لم يتجاوز إلى أذى غيره بقول أو فعل. وهذا ما فطن إليه ابن القيم فقال: (( الـرجل قـد يكـون عـنده حسد ولكن يخفيه، ولا يرتب عليه أذى بوجه مـا، لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك، ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله، فهـذا لا يكـاد يخلـو مـنه أحـد إلا مـن عـصمه الله )) [1]. وقـد قيل للحـسن البـصري [2]: أيحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك إخوة يوسف لا أبا لك، لكنه عمّه[3] في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعد به يداً ولساناً [4].

وعلـى هذا يكون أثر التأديب والتقويم والتربية في منع صدور الآثار السيئة الناشـئة عـن الطـبائع المتأصـلة في الـنفس والراسـخة فـيها. فيبقـى للـتأديب أثره وللسياسات والشرائع فائدتها.

هـذا وقـد نـبه ابـن القـيم إلى أمـر آخـر مهـم فيما يتعلق بالأخلاق الفطرية الـسيئة الـتي يـشق على الإنسان الخلاص منها، أو لا يمكنه إزالتها ورسم منهجاً للتعامل معها، وعقد لهذا فصلاً قال فيه: (( فصل نافع جداً عظيم النفع للسالك، يوصـله عـن قـريب، ويـسيره بأخلاقه التي لا يمكنه إزالتها، فإن أصعب مـا على الطبـيعة الإنـسانية تغـيير الأخـلاق الـتي طـبعت الـنفوس عليها))[5]. وحاصل ما ذكـره، أن في الإنـسان قـوتين فطريتين، هما الغضب والشهوة، وهاتان القوتان

---

(١) بدائع الفوائد ( ٢٣٦/٢ ) .

(٢) هو الحسن بن أبي يسار البصري ، مولى الأنصار ، تابعي فقيه فاضل مشهور، مات سنة ١١٠هـ وقد قارب التسعين.

انظر: سير أعلام النبلاء( ٥٦٣/٤ ). تقريب التهذيب ١٦٠.

(٣) أي: أخفه، انظر: المعجم الوسيط ص ٦٢٩.

(٤) ابن تيمية: الفتاوى (١٢٥/١٠). بدائع الفوائد (٢٣٦/٢).

(٥) مدارج السالكين (٣١١/٢).

مـركوزتان في الإنـسان ليـتمكن بهمـا مـن جلـب المنافع إلى نفسه ودفع المضار عـنها، ولكـن مـن طبيعـتهما أن يـورثا الإنـسان الأخلاق الذميمة -من الحرص والحقـد والحـسد والـبخل والـشح والبغي والظلم والكبر... - في أثناء سعيه في مصالحه. ولا سبيل إلى القضاء على هذه الصفات بالمجاهدات والرياضات؛ لأنها راسخة في النفس، وبالتالي فإن في السعي لإزالتها مصادمة للفطرة البشرية. وإنما الطـريق للخلاص من آثارها الضارة وتبعاتها المؤلمة هو في صرفها إلى ما فيه خير ونفـع، فالكـبر- مثلاً - « نهر يسقى به العلو والفخر والبطر والظلم والعدوان، ويـسقى بـه علـو الهمـة والأنفـة والحمـية، والمراغمة لأعداء الله، وقهرهم والعلو علـيهم ... قـال: فانظـر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية، وكيف استحال القاطع موصلاً ؟ » [1].

مـن هـذا يتـبين كمـال فقـه ابـن القـيم ومعرفته بالنفوس وسبل إصلاحها، وطرق اكتسابها للأخلاق الفاضلة ونجاتها من الأخلاق السيئة.

وقـبل ذلك سلامة آرائه واختياراته لاعتماده الكتاب والسنة المعصومين من الخطأ والاختلاف، فجاءت آراؤه صائبة واختياراته موفقة.

وفي المقابـل لم يـسلم مسكويه، من الزلل والتناقض لتأثره بالفلاسفة اليونان ومن سلك سبيلهم.

---

(١) المرجع السابق (٣١٣٤/٢). ويأتي - إن شاء الله - زيادة بيان لهذه المسألة عند الحديث عن الأساس الفطري للأخلاق.

## ثالثاً: مجال الأخلاق:

يقرر مسكويه أن الأخلاق لا تظهر إلا عند مشاركة الناس ومخالطتهم، ولا شك أن مخالطة الناس مجال واسع لكثير من الممارسات الخلقية. ولذا جاء الإسلام آمراً بالاجتماع ومرغباً فيه؛ لأن كثيراً من واجباته لا تقام إلا باجتماع المسلمين وتعاونهم، كما أن كثيراً من الفضائل لا تظهر إلا في حال الاجتماع بين الناس. بل يبلغ الأمر في الإسلام إلى الحث على مخالطة الناس في الخير، والاجتماع بهم على نصرته ولو مس الإنسان شيء من الأذى في سبيل ذلك، ففي الحديث عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » (١).

ولكن قد تقوم - في فترة زمنية معينة - بعض الموانع في وجه المخالطة الإيجابية، كما في حال الفتن، فهنا تشرع العزلة، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شَعف الجبال، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن » (٢). فهل تنطمس الفضائل، وينعدم الخير في هذا المتباعد عن الفتن؟ هذا ما يؤدي إليه قول مسكويه، وليس الأمر كماقال، بل إن تباعد المرء في مثل هذه الأحوال خير وفضيلة؛ لأن فيه سلامة من جملة من المخالفات والرذائل التي لا سبيل إلى الخلاص منها في حال الاجتماع بالناس في مثل تلك الظروف.

---

(١) رواه أحمد والترمذي، أحمد البنا: الفتح الرباني، كتاب المجالس وآدابها، باب هل الأفضل العزلة عن الناس أو الاختلاط بهم، وحسنه الحافظ في بلوغ المرام ص٣٠٩، دار الفكر سنة ١٣٥٢هـ .

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الدين الفرار من الفتن.

وأيضاً فإن في تخصيص مسكويه للممارسات الخلقية بما يكون من المعاملة بين الناس غفلة عن مجالات أخرى لا تقل أهمية عن هذا المجال - كما أشار إلى ذلك ابن القيم - وتتمثل في معاملة الإنسان لخالقه، ومعاملته لنفسه.

بل إن الأخذ بالأخلاق في معاملة الإنسان لخالقه ركيزة رئيسة للأخذ بها في المجالات الأخرى، كما أن في تعطيلها في هذا الجانب تضييعاً أو إضعافاً لها في الجوانب الأخرى. ذلك أن محبة الله طريق إلى محبة عباده، والخوف من عقابه من أعظم الموانع من ظلمهم أو الإساءة إليهم، ورجاء ثوابه من أعظم البواعث على الإحسان إليهم وإيصال النفع لهم. وبالجملة فعلى قدر صلة الإنسان بالله، وحسن قيامه بحقه يكون أثر ذلك في صلته بالناس من حوله.

# الفصل الثاني

# مصـــادر الأخـــلاق

# مدخل في مفهوم المصادر

المصدر في اللغة: هو ما ينشأ عنه الشيء، من صدر ويصدر صدوراً.

يقال: صدر الأمر: وقع وتقرر، وصدر الشيء عن غيره: نشأ.

ويقال: فلان يصدر عن كذا: أي يستمد منه.(١)

والمقصود بالمصادر: الأصول والمنابع التي يستمد منها المرء في سعيه للوصول إلى الحق.

وتتجلى أهمية الأصول باعتبارها الطريق إلى الوصول إلى الحقائق المختلفة. فإن كانت الأصول صحيحة قادرة عن الكشف عن الحق وبيانه أورثت السائر على ضوئها السلامة في طريقه، وبلغته إلى معرفة يمكن الوثوق بها واعتمادها. وإن كانت الأصول قاصرة عن تحقيق ذ لك أوقعت المعتمد عليها في الباطل بحسب ما فيها من قصور.

ومكمن الخطأ في هذا الباب هو في المبالغة في الركون إلى مصدر من المصادر والتعويل عليه في تحصيل معرفة لا يمكن الحصول عليها من خلاله؛ فالمتكلمون والفلاسفة ( حاولوا أن يعتمدوا على الحدس (٢) في الحصول على

---

(١) ابن منظور : لسان العرب : باب الراء فصل الصاد ز المعجم الوسيط : مادة (صدر).

(٢) الحدس يطلق ويراد به سرعة انتقال الذهن من المبادئ إلى المطالب.

انظر: الجرجاني : التعريفات ص ١١٦.

الشيء الذي لا يحصل بالحدس والتخمين )[1] وعظموا هم وغيرهم العقل وقدموه على النقل، وقدم آخرون الذوق [2] على الشرع [3]..

ولقد كان الخلل في الأصول المعتمدة للوصول إلى الحق من الأسباب في نشأة الفرق والمذاهب، وشيوع الانحرافات الفكرية والسلوكية في الأمة، وتخلف المجتمع المسلم ، ورسوخ الفرقة و الاختلاف فيه [4] .

---

(١) أبو الحسن الندوي: الحافظ أحمد بن تيمية ص٢١٢، دار القلم ـ الكويت،١٤٠١هـ.

(٢) قال الجرجاني: الذوق: نور عرفاني يقذف الحق بتجلية في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل، من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره. انظر: التعريفات ص ١٤٣ وقيل : المقصود به عند المتصوفة : أن يجدوا في العمل مصلحة في قلوبهم وأديانهم ويذوقوا طعم ثمرته. انظر: ابن تيمية مجموع الفتاوى ( ٣٤٣/١١ )

(٣) انظر: ابن تيمية: مجموع الرسائل الكبرى (١٧٦/١) مجموع الفتاوى (٣٣٨/١١-٣٣٩ ).

(٤) انظر: إغاثة اللهفان (١٦٧/٢). ابن تيميه : مجموع الفتاوى ( ٣٦٦/١٠ / ٣٦٧ ).

# المبحث الأول
# مصادر الأخلاق عند مسكويه

تنوعت المصادر في المباحث الخلقية أيام مسكويه، فقد توافرت المؤلفات في البيئة الإسلامية باتجاهاتها السلفية، والصوفية، والفلسفية، ونشطت حركة الترجمة عن اليونانية والفارسية وغيرهما في القرن الذي عاش فيه مسكويه والذي قبله.

وقد جعل مسكويه العقل معياراً للوصول إلى المعارف والحقائق المختلفة، ولذا تساوت تلك المصادر في مصداقيتها أمامه، وظهر هذا تماما في كتابة المسمى بـ « الحكمة الخالدة » الذي قال في مقدمته: إنه جمع فيه ما التقطه من وصايا وآداب الأمم ( ليرتاض بها الأحداث، ويتذاكر بها العلماء ما تقدم لهم من الحكم العلوم. والتمست بذلك تقويم نفسي ومن يتقوم به بعدي[1] ».

ثم شرع في ذكر الحكم المأثورة عن الأمم المختلفة: مبتدئاً بحكم الفرس! ثم الهند، ثم العرب، ثم الروم. وفي الفصل الخاص بحكم العرب بدأ بجملة من المرويات عن النبي- ﷺ - مما هو ثابت عنه ومما هو منسوب إليه ولا يصح عنه[2]. ثم أتبع ذلك بطائفة من الحكم المأثورة من بعض الصحابة والتابعين وبعض السلف، كما حكى جملاً عن الصوفية، وعن العرب في الجاهلية.

---

(١) الحكمة الخالدة ص٦ .

(٢) مما نسبه مسكويه إلى النبي- ﷺ - (العلم خزائن ومفتاحها السؤال) ص١٠٨، ومنها (اشتدي أزمة تنفرجي) وكلاهما موضوع. انظر: الألباني ضعيف الجامع الصغير( ٤/ ٦٩) و( ١/٢٧٨) المكتب الإسلامي – بيروت ط٢ سنة ١٣٩٩هـ . وأما الأحاديث الضعيفة فكثيرة جداً منها :
(رأس العقل بعد الإيمان مداراة الناس ) ص١٠٣. انظر: ضعيف الجامع الصغير ( ٣/١٧٦). (من كان له صبي فليستصب له) ، ص ١٠٧ضعيف الجامع (٦/٢٤١) .
(حبك الشيء يُعمي ويصم ) ضعيف الجامع (٣/٩١-٩٢) .

وهكذا تتساوى عند مسكويه توجيهات الوحي والمقصود ما صح عن النبي- ﷺ - مع سوانح الأفكار وخلاصات التجارب في الجاهلية والإسلام، فكلها من حكم العرب التي تهذب بها النفوس، وتقوم بها الأخلاق ويستعان بها على تنظيم أمور الحياة .

وأما في كتابة ( تهذيب الأخلاق ) الذي خصه مسكويه للحديث عن الخلق ونظرياته فقد ظهر جلياً تأثره بالفلسفة اليونانية، ومتابعته للفلاسفة اليونان أفلاطون وأسطو وجالينوس[1] وغيرهم، فقد نقل عنهم واستمد منهم استمداداً واسعاً، وكتابه ناطق بذلك وشاهد عليه. فهو ينقل عنهم نصاً، وربما ذكر أقوالهم مختصرة مع الإشارة إلى مصادرها، وربما تابع بعض من تقدمه من الفلاسفة في آرائهم دون أن يذكر مصدره، أو يشير إلى من قال به.

ورغم أنه أخذ عن جملة الفلاسفة اليونان، ومزج بين آرائهم، فإن عدداً من الباحثين يراه أقرب في كليات فلسفته إلى أرسطو[2]، وهو ما يدل عليه كثرة نقوله عنه واختياره لآرائه.

وشواهد استمداده من الفلاسفة اليونان كثيرة جداً: فأقواله في النفس وقواها مستقاة من أفلاطون وأرسطو [3]، وهو يحدد الفضيلة بأنها وسط بين

---

(١) عالم يوناني اشتهر في الطب والفلسفة، وله كتب في الأخلاق، مات سنة ٢٠٠م.
انظر: الفهرست ص٤٠٢. الموسوعة العربية الميسرة (٥٩٧/١)، دار إحياء التراث العربي.

(٢) د. ناجي التكريتي: أثر أفلاطون في فلسفة مسكويه الأخلاقية، مجلة المورد ص٦١، العدد الثالث ١٣٩٣ هـ
وانظر: د. على بوملحم: الأخلاق عند مسكويه: مجلة دراسات عربية ص ١١١، العدد ١٢، ١٩٩٠م.

(٣) يوسف كرم: فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلتها بالفلسفة الأغريقية، مجلة المقتطف ص ٤٩٨، العدد ٥، ذو الحجة ١٣٦١هـ.

طرفين مرذولتين، ويطبق ذلك على جملة من الفضائل، فيذكر أن الشجاعة وسط بين رذيلتين: إحداهما الجبن والأخرى التهور، أما الجبن فهو الخوف مما لا ينبغي أن يخاف منه، وأما التهور فهو الإقدام على ما لا ينبغي أن يقدم عليه.

وأما السخاء فهو وسط بين رذيلتين: إحداهما السرف والتبذير، والأخرى البخل والتقتير[١]، ثم يقرر صعوبة إدراك الوسط الفاضل، وكذا التمسك به[٢] ناقلاً في هذا كله كلام أرسطو بعينه[٣].

بل يصل به الأمر بعد أن يذكر ما يندرج تحت كل فضيلة من الفضائل الأربع المهمة، وهي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة، أن يعتذر عن ذكر الأطراف المرذولة لتلك الفضائل لتعذر وجود أسمائها لديه وقتئذ[٤]، وهي شكاية واعتذار قاله أرسطو من قبل[٥] وتابعه فيه مسكويه.

---

(١) تهذيب الأخلاق ص٤٨.

(٢) المرجع السابق ص٤٦

(٣) انظر: أرسطو: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة: أحمد لطفي السيد (١/٢٥١، ٢٦١) دارصادر ١٣٤٣هـ، ونيقوماخوس هو ابن أرسطو وقيل تلميذه، والأقرب أنه ابنه ونسبه إليه لأن أرسطو أهداه إليه، وقيل لأنه الذي تولى نشره بعد وفاة أبيه. محمد مهدي علام: نظرية الوسط بين فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين، صحيفة دار العلوم ص١٤٨ والعدد٣ ذو القعدة ١٣٥٤هـ.

(٤) تهذيب الأخلاق ص٤٥.

(٥) أرسطو: علم الأخلاق ( ١/٢٥٤)

وقد قابل هذا الاستمداد الواسع، والنقل المتتابع من مسكويه عن الفلاسفة اليونان، الإعراض عن المصادر الإسلامية الأصيلة [١]، والتغافل عن التراث الإسلامي الضخم، بل يصل به الأمر أن يقتصر في أخذه عن المؤلفين في البيئة الإسلامية على أصحاب الاتجاه الفلسفي الذين هم في واقع الأمر امتداد للفكر اليوناني، كالكندي[٢] الذي صرح بالنقل عنه[٣]، والرازي الذي تأثر به واستفاد منه، وإن كان لم يصرح بالأخذ عنه [٤].

---

(١) ليس في كتاب مسكويه ( تهذيب الأخلاق ) سوى بضع آيات في أربعة مواضع، انظر: ص ١٨/١٦٦/٩٥/٣٦، وسبعة أحاديث بعضها ضعيف أو موضوع، كحديث (أكرموا عمتكم النخلة فإنها من بقية طينة آدم ) ص ٧٦.
انظر:ضعيف الجامع الصغير ( ٣٤٦/١ ) وحديث ( الناس كأسنان المشط .. ) ص ٥٦
انظر: الألباني : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٦٠/٢) المكتب الإسلامي ط١ سنة ١٣٩٩هـ

(٢) يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي، أبو يوسف، نشأ في البصرة، وعاش ببغداد، اشتهر بالطب والفلسفة والفلك .... ألف وترجم وشرح كتباً كثيرةً، حذا في تألفيه حذو أرسطو، توفي سنة ٢٦٠هـ تقريباً.
انظر: الفهرست ص ٣٥٧ ، الأعلام ١٩٥/٨.

(٣) انظر: تهذيب الأخلاق ص١٦١.

(٤) ولاسيما في حديثه عن الأمراض النفسية -- في المقالة السادسة، ص ١٥١ وما بعدها — فقد سبقه الرازي بتأليف كتاب حول هذا الموضوع اسماه: الطب الروحاني، وبين ما قاله مسكويه وما أثر عن الرازي تشابه ظاهر في كثير من مسائل هذا الباب.
انظر: عبد العزيز عزت: ابن مسكويه فلسفة الأخلاقية ومصادرها ص١٨٥، ٤٢٠-٤٢٤.

ومـع هذا كله، فقد تأثر مسكويه بأحكام الشريعة وتوجيهاتها في جملة من المسائل، منها قوله: إن الشريعة أمرت بالعدل، و لم تأمر بالتفضل، بل ندبت إليه و لم تلـزم بـه [1] أي أن مـن الفضائل ما هو واجب متعين، منها ما هو مستحب ومندوب إليه فحسب.

وكما في حديثه عـن المـزاح حيث قـال: (( وأمـا المـزاح فإن المعتدل منه محمود وكان رسول الله - ﷺ - يمزح ولا يقول إلا حقاً )) [2].

ولكن مع هذا التأثر الظاهر بالإسلام إلا إنه يمكن القول إن فلسفة مسكويه وأراءه الخلقـية بعـيدة – إلى حـد كـبير- عـن الدين، حيث لا إشارة إلى الإيمان وأهميـته أو الـبعث والحـساب وضـرورته في البـناء الخلقـي [3]، كمـا أعـرض مـسكويه عـن النـصوص الـشرعية مـع كثـرة مـا حوته من الأوامر والتوجيهات الخلقية.

ولقد سعى مسكويه - أحياناً - إلى التوفيق بين الإسلام والفلسفة اليونانية بإخـضاع الـدين وحقائقـه لنظـريات الفلـسفة وفروضـها، فمـن ذلـك قوله: إن ((تحـصيل الـسعادة علـى الإطـلاق يكـون بالحكمـة، والحكمـة جـزءان: نظـري وعملي، فبالنظري تحصل الآراء الصحيحة، وبالعملي يمكن تحصيل الهيئة الفاضلة

---

(١) انظر: تهذيب الأخلاق ص١٢٢ .

(٢) المـرجع الـسابق، ص١٦٧. والحديث رواه الترمذي: في أبوب البر والصلة: باب ما جاء في المزاح ، ورواه غيره.
انظر: صحيح الجامع الصغير ( ١/٣٢٩، ٣٣٦).

(٣) انظـر: أحمـد صبحي: الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ص ٣١٣. د.على بوملحم: الأخلاق عند مسكويه ص١١١.

التي تصدر عنها الأفعال الجميلة، وبهذين الأمرين بعث الأنبياء - صلوات الله عليهم - ليحملوا الناس عليهما» [١].

وإذا كان مسكويه يقرر أن الحكمة العملية هي الفضائل الخلقية [٢]، فأين العبادات وأين الشرائع الأخرى في المعاملات وغيرها،بل« والأصول التي لابد منها - والتي هي أصل السعادة - من الإيمان بالله وتوحيده ، وإخلاص عبادته، والإيمان برسله واليوم الآخر والعمل الصالح » [٣].

ولذا فإن الفلسفة لا يصح بحال أن تكون في مقابل الوحي وما جاء به من شرائع وأحكام، وهي قاصرة عن تحصيل ما يوجب السعادة والنعيم والنجاة من العذاب الأليم.

وبعد فقد قيل في مسكويه - بحق - « إنه لم يجئ في الفضيلة والسعادة بجديد لم يأخذه عن فلاسفة الإغريق، وبخاصة عن أفلاطون وأرسطو ... إلا زيادة بسط في تعريف الفضائل الرئيسة، وفي بيان ما يندرج تحتها من فضائل أخرى، وفي توضيح الرذائل التي تعتبر أطرافاً لتلك الفضائل »[٤]، مع ما أفاد من الإسلام في بعض المسائل.

كما قيل عنه: إنه ليس في فلسفته أصالة أو ابتكار، وإنما الاقتباس والتلفيق[٥].

---

(١) الفوز الأصغر ص ٦٨. انظر: تهذيب الأخلاق ص٥٧.

(٢) انظر: تهذيب الأخلاق ص ٥٨. ويؤيد هذا، ما تقدم من أن مسكويه يرى أن الشريعة جائزة الاتباع ، وأن في وسع طوائف من الناس ( وهم الفلاسفة ) الاستغناء عنها.

(٣) ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٩/٣٤، ٣٧)

(٤) محمد يوسف موسى: فلسفة الأخلاق في الإسلام ص ١١٦ .

(٥) أحمد صبحي: الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ص ٣١٣.

## المبحث الثاني
## مصادر الأخلاق عند ابن القيم

اعتمد ابن القيم- رحمه الله- الكتاب والسنة في أقواله واختياراته- في مسائل الأخلاق وغيرها - فكان يستنبط منهما، ويقف مع حدودهما، ولا يلتفت إلى ما خالفهما، ولا إلى من خالفهما كائناً من كان.

كما كان يوازن بين الأقوال المختلفة على ضوئهما، فيرجح ما وافقهما، ويرد ما خالفهما.

كما كان مقدماً لأقوال الصحابة معتنياً بسيرهم وطرائقهم ومستنبطاً منها، كما اعتنى في مسائل الأخلاق بأقوال السلف واختياراتهم.

أما اعتماده الكتاب والسنة، والاستنباط منهما، فهذا منهجه في عامة كتبه ورسائله، وهو أظهر من أن يستدل له.

بل إنه ربما زاد على الاستدلال للمسألة المعينة باستقصاء الأدلة الواردة فيها. كما فعل في حديثه عن الصبر، حيث قال: إنه مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً، ثم عدها مع ذكر أدلتها وشواهدها من القرآن الكريم[1].

وكما فعل ذلك في حديثه عن المسألة، حيث ذكر أنها خلق سيء لأنها تتضمن الذل لغير الله، وتصغير النفس وتحقيرها، ثم ساق في بيان حرمتها وسوء عاقبتها إذا كانت لغير ضرورة أربعة وعشرين حديثاً[2]. منها قوله - عليه الصلاة والسلام-: « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في

---

(١) انظر: مد ارج السالكين ( ٢/١٥٣-٢٣٨).

(٢) المرجع السابق ( ٢/٢٣٣-٢٣٨).

وجهه مُزعة لحم »[1] وقوله: «من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً، فليستقل أو يستكثر»[2].

بل إنه لم يذكر منزله من منازل السائرين في كتابه مدارج السالكين إلا ذكر أدلتها وشواهدها من الكتاب والسنة ما أمكنه ذلك.

وهذه العناية منه بالكتاب والسنة وما فيهما من الأوامر والنواهي الخلقية متفقة مع ما قرره من أن مقتضى الإيمان تعظم أوامر الله ، والانقياد لدينه، والتزام طاعته، ومتابعة رسوله - ﷺ -[3].

كما أنها منسجمة مع ما أكده من أن تزكيه النفوس التزكية التامة التي تتحقق معها السعادة في الدنيا، والفلاح في الآخرة إنما هي في اتباع الرسول - ﷺ - وسلوك طريقه، وفي هذا يقول: « تزكية النفوس مسلَّمٌ إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليماً وبياناً وإرشاداً ...فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم، قال الله تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ** ﴾[4]... فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم وبمحض الانقياد والتسليم لهم »[5].

---

(١) متفق عليه، البخاري في الزكاة: باب من سأل الناس تكثرا. ومسلم في الزكاة : باب كراهة المسألة للناس.

(٢) رواه مسلم، في الزكاة: باب كراهة المسألة للناس .

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة (٩٤/١).

(٤) سورة الجمعة الآية (٢).

(٥) مدراج السالكين ( ٣١٥/٢).

وأما تقديمه لأقوال الصحابة وعنايته بسيرهم فلأنهم كانوا «أعرف بمقامات السالكين، ومنازل السائرين، ومع فضلهم ودينهم وجهادهم وقلة تكلفهم» [1].

وقد أثنى الله -عز وجل- عليهم بكمال أخلاقهم وحسن سيرهم [2]، قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [3].

ووصف سبحانه الأنصار بالإيثار في قوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [4]، وكان ذلك فيهم معروفاً [5].

كما جاءت الوصية بالتأسي بهم، والتمسك بهديهم، فعن عبد الله بن عمر [6] - ﷺ - قال: «من كان مستناً فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد - ﷺ - كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه - ﷺ - ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد - ﷺ - كانوا على الهدى المستقيم، والله رب الكعبة» [7].

---

(١) انظر: المرجع السابق (٣/٤٣٦).

(٢) انظر: إعلام الموقعين (٤/١٥٢).

(٣) سورة الفتح الآية (٩).

(٤) سورة الحشر الآية (٩).

(٥) مدارج السالكين (٢/٢٩٢).

(٦) عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، الإمام القدوة، كان من أشد الناس اتباعاً للأثر، كثير المناقب، مات سنة ٧٣هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء(٣/٢٠٣). الإصابة (٢/١٣٣٨).

(٧) أبو نعيم الأصبهاني- حلية الأولياء (١/٣٠٥-٣٠٦). وانظر: إعلام الموقعين (٤/ ١٣٩)، ومدارج السالكين (٣/٤٣٦).

وأما شواهد عنايته بأقوال الصحابة وأخلاقهم:

- فمنها أن ابن القيم يختار جواز الإيثار بالأعمال الصالحة إذا اقتضت المصلحة ذلك، لما أثر عن الصحابة - ﷺ- فمن ذلك أنه لما قدم وفد الطائف إلى النبي- ﷺ - أسرع المغيرة بن شعبة [1] ليبشر النبي - ﷺ - بقدومهم، فلقيه الصديق[2] - ﷺ - فناشده أن يدعه هو يبشر النبي- ﷺ - بذلك ففعل المغيرة - ﷺ-[3]. وكما آثرت عائشة عمر بن الخطاب[4] - ﷺ - بدفنه في بيتها جوار النبي- ﷺ - وكانت تريده لنفسها[5]. قال ابن القيم: « ومن تأمل سير الصحابة وجدهم غير كارهين لذلك ولا ممتنعين منه، وهل هذا إلا كرم وسخاء وإيثار على النفس بما هو أعظم محبوباتها، تفريحاً لأخيه المسلم، وتعظيماً لقدره، وإجابة له إلى ما سأل،

---

(١) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، من كبار الصحابة أولي الشجاعة والمكيدة، شهد بيعة الرضوان، مات سنة خمسين، وله سبعون سنة.
انظر: أسد الغابة (٤٧١/٤). سير أعلام النبلاء (٢١/٣).

(٢) هو عبد الله بن عثمان بن عامر القرشي التيمي، أبو بكر الصديق، خليفة رسول الله، أول من آمن برسول الله – ﷺ – من الرجال، وصاحبه في الغار، وهو صاحب الفضائل والمناقب المعروفة، و مات سنة ١٣ هـ شهيداً، وله ثلاث وستون سنة.
انظر: أسد الغابة ( ٢٠٥/٣) الإصابة ( ٢/ ٣٣٣)

(٣) انظر: زاد المعاد ( ٤٩٩/٣).

(٤) عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص، أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين، جم المناقب والفضائل، يضرب بعدله المثل، فتحت في عهده الفتوحات، وانتشر الإسلام. مات سنة ٢٣هـ شهيداً، وله ثلاث وستون سنة.
انظر: أسد الغابة ( ٦٤٢/٣) الإصابة ( ٢/ ٥١٢).

(٥) زاد المعاد (٥٠٥/٣) واصله في البخاري. انظر: فتح الباري (٦١/٧)

وتـرغيباً لـه في الخير، وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجحاً علـى ثـواب تلـك القـربة، فـيكون المؤثـر بهـا ممـن تاجـر فبذل قربة وأخذ أضعافها ))[1].

كمـا أن ابـن القـيم يذكـر في ثنايا حديثه عن الأخلاق شواهد لها من سير الـصحابة - رضي الله عنهم - ففـي الـصبر يذكـر صـوراً عظيمة عن عمران بن حصين [2] وسعد بن وقاص[3]. وفي الجود عن قيس بن سعد بن عبـادة [4].

وفي الـزهد يـشير إلى عـثمان[5]، وعلـي بـن أبـي طالـب، وعبد الرحمن بن عـوف[1]، والزبير [2]، والحسن بن علي[3] - رضي الله عنهم - ويذكر انهم نماذج رائعة في

---

(١) زاد المعاد (٣/٥٠٥).

(٢) عمران بن حصين بن خلف الخزاعي، أبو نجيد، أسلم عام خيبر، كان فاضلاً، ولي قضاء البصرة، ومات بها سنة ٥٢ هـ.
سير أعلام النبلاء(٢/٥٠٨) تقريب التهذيب ٤٢٩.

(٣) سعد بن أبي وقاص، مالك بن وهيب بن عبد مناف الزهري، أبو إسحاق، من السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة الذين اختارهم عمر للخلافة، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، مناقبه كثيرة، مات بالعقيق سنة ٥٥ هـ، وكان مولده قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة.
انظر: سير أعلام النبلاء (١/٩٢) تقريب التهذيب ص ٢٣٢. مدارج السالكين (٢/٢٣٧).

(٤) قـيس بـن سـعد بـن عـبادة، الخزرجـي الأنـصاري، سيد الخزرج وابن سيدهـم، صحابي جليل، ولى مصر لعلي، مات سنة ٦٠هـ، وقيل بعدها.
انظر: سير أعلام النبلاء(٣/١٠٢). تقريب التهذيب ٤٥٧. مدارج السالكين (٢/٢٩٢).

(٥) عـثمان بـن عفـان بن أبي العاص القرشي الأموي، الخليفة الراشد، من السابقين الأولين، وأحـد العـشرة المشهود لهم بالجنة، جهز جيش العسرة، وجمع القرآن، كثير المناقب، جم الفضائل، المقتول ظلماً سنة ٣٥هـ.
انظر: أسد الغابة (٣/٤٨٠)، والإصابة (٢/٤٥٥).

الـزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، مع ما كان لهم من حظ في الدنيا، وأن من سيرهم تعرف حقيقة الزهـد ومفهومه الصحيح[٤].

وفي التواضـع يذكـر شـواهد عملية عـن عمـر بـن الخطاب، وأبي هريرة، وزيـد بـن ثابـت[٥]، ومثل هذا كثير في كتب ابن القيم - رحمه الله - ويخلص إلى تقريـر أن: « حال النبي- ﷺ - وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها، بها يعلم صحيحها من سقيمها »[٦].

---

(١) عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف القرشي الزهري، من السابقين، وأحد الستة أصحاب الشورى، كان من الأغنياء الأجواد، والأتقياء الزهاد، كثير المناقب، مات بالمدينة سنة ٣١هـ.

انظر: أسد الغابة (٣/٤٨٠)، والإصابة (٢/٤٠٨).

(٢) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، أبو عبد الله القرشي الأسدي، حواري رسول الله ﷺ ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، قتل سنة ٣٦هـ بعد منصرفه من وقعة الجمل.

انظر: سير أعلام النبلاء (١/٤١)، تقريب التهذيب ص ٢١٤.

(٣) الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي، سبط رسول الله ﷺ وريحانته، وسيد شباب أهل الجنة، مات شهيداً بالسم سنة ٤٩هـ، وقيل: بعدها.

انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٢٤٥)، تقريب التهذيب١٦٢.

(٤) مدارج السالكين (٢/١٢-١٣).

(٥) زيد بن ثابت بن الضحاك بن لوذان الأنصاري النجاري، صحابي مشهور، كتب الوحي، وكان من الراسخين في العلم، كان رأساً في الفتوى والقضاء والقراءة، وإماماً في الفرائض، مات سنة ٤٥هـ، وكان مولده قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة.

سير أعلام النبلاء(٢/٤٢٦)، تقريب التهذيب ٢٢٢، وانظر: مدارج السالكين (٢/٣٣٠).

(٦) مدارج السالكين (٢/١٣٥) .

وأما علماء السلف فقد استمد منهم ونقل عنهم ولاسيما من كانت لهم مؤلفات في مسائل الأخلاق كابن المبارك والإمام احمد [1]، كما نقل عن غيرهما من العلماء الذين أثرت عنهم أقوال ووصايا في الأخلاق والسلوك[2].

إلى أن يصل إلى شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية الذي استفاد كثيراً من توجيهاته وآرائه، وكان لها أثرها المتميز في فكره وسلوكه وتراثه الفكري.

وقد سجل- رحمه الله - طرفاً من وصاياه له فقال: « قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية - ﷺ- وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد، لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقراً للشبهات، أو كما قال، - قال ابن القيم-: فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك» [3]. وقال: « قال لي يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية وإن لم يكن

---

(١) أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي، نزيل بغداد، الحافظ الفقيه، أحد الأئمة الأربعة، رحل في طلب العلم، وصنف المسند وغيره، كان إماما في الفقه والزهد والورع، أوذي في الله وسجن. مات سنة ٢٤١هـ وله سبع وسبعون سنة.
انظر: سير أعلام النبلاء (١١/١٧٧) تقريب التهذيب ص ٨٤.
انظر: أمثلة من النقل عنه، وعن ابن المبارك في مدارج السالكين (٢/١٢ ، ٢٩١، ٣/ ١٠٨، ١٤٠,١٥٢,٢٦٢، وغيرها).

(٢) كالحسن البصري، وسفيان الثوري، والفضيل بن عياض، انظر: مدارج السالكين (٢/١١، ٢٢، ١٠٤,٢٦٠، ٣٣٠، وغيرها ).

(٣) مفتاح دار السعادة (١٤٠/١٠).

تركه شرطاً في النجاة، أو نحو هذا من الكلام))[1]. وقال: (( قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- مرة: العوارض والمحن هي كالحر والبرد، فإذا علم العبد أنه لابد منها لم يغضب لورودها، ولم يغتم لذلك ولم يحزن ))[2].

ثم يمضي ابن القيم ذاكراً صوراً جميلةً عن جود شيخه بالعلم[3]، وتواضعه[4]، وإحسانه إلى من أساء إليه [5].

وأما المصادر الخلقية الأخرى- عدا هذه - فقد اختلف موقف ابن القيم منها تبعاً لقربها من الحق أو بعدها عنه. إلا أن القاعدة العامة التي سار عليها تتمثل في قبول الحق ممن جاء به[6].

ولعل أبرز اتجاهين عُنيا بالأخلاق في المجتمع المسلم هما الاتجاه الفلسفي والاتجاه الصوفي.

أما الاتجاه الفلسفي فقد اطلع علية ابن القيم، وتعرف على ما جاء به الفلاسفة، فهو يذكر أن الغاية عندهم هي تهذيب أخلاق النفوس، وتحقيق الكمال لها، ويرون أن هذه الغاية هي المقصودة بالعبادات، والشرائع، يقول ابن القيم: إن غاية ما عند الفلاسفة (( في العبادات والأخلاق والحكمة العملية أنهم رأوا النفس لها شهوة وغضب بقوتها العملية، ولها تصور وعلم بقوتها العلمية،

---

(١) مدارج السالكين (٢/٢٦).

(٢) المرجع السابق (٣/٣٨٩).

(٣) انظر: مدارج السالكين (٢/٢٩٤).

(٤) المرجع السابق (١/٥٢٤).

(٥) المرجع السابق ( ٢/٣٤٥).

(٦) انظر: المرجع السابق (٢/٢٢و٢٧٠)،(١/٢٨٧). مفتاح دار السعادة ( ٢/٥٨).

فقالوا: كمال الشهوة في العفة، وكمال الغضب في الحلم والشجاعة، وكمال القوة العلمية بالعلم، والتوسط في جميع ذلك بين الإفراط والتفريط وهو العدل. هذا غاية ما عند القوم من المقصود بالعبادات والشرائع، وهوعندهم غاية كمال النفس وهواستكمال قوتها العلمية والعملية. فاستكمال قوتها العلمية عندهم بانطباع صور المعلومات في النفس، واستكمال قوتها العملية بالعدل، هذا غاية ما عندهم من العلم والعمل ))[1].

وهذا الذي جاء به الفلاسفة غير كاف في تزكية النفوس وتحصيل السعادة لها في الدنيا والفوز في الآخرة، يقول ابن القيم: ((ما ذكره الفلاسفة من الحكمة العملية ليس فيها من العلوم والأعمال ما تسعد به النفوس وتنجو من العذاب، فليس في حكمتهم العلمية إيمان بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا لقائه، وليس في حكمتهم العملية عبادته وحده لا شريك له واتباع مرضاته واجتناب مساخطه، ومعلوم أن النفوس لاسعادة ولا فلاح لها إلا بذلك ))[2].

بل حتى المسائل الخلقية التي وجهوا إليها اهتمامهم، أولوها عنايتهم قصروا - كما يقول ابن القيم- عن بيانها، وتفصيل القول فيها، وفي هذا يقول: ((الكمالات الأربع التي ذكرها الفلاسفة للنفس[3] لابد منها في كمالها وصلاحها، ولكن قصروا غاية التقصير في أنهم لم يبينوا متعلقاتها، ولم يحدو لها حداً فاصلاً بين ما تحصل به السعادة وما لا تحصل به. فإنهم لم يذكروا متعلق

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/١١٩) مختصراً.

(٢) المرجع السابق (٢/١٢٠-١٢١).

(٣) وهي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة.

العفة، ولا عماذا تكون، ولا مقدارها الذي إذا تجاوزه العبد وقع في الفجور... وكذلك الشجاعة ..»[1].

ويخلص ابن القيم إلى أن الفلاسفة: « أبعد الخلق عن الشرائع وما جاءت به الأنبياء»[2]، ولذا فقد أعرض - رحمه الله - عن الفكر الفلسفي ولم يوجه إليه اهتمامه.

وأما أصحاب الاتجاه الصوفي - الطرقي- فقد كانوا أكثر تناولاً للمسائل الخلقية وتفصيلاً للقول فيها، كما كانوا أقرب إلى الشريعة وإلى الوقوف عند حدودها. ولذا كان لابن القيم عناية خاصة بهذا الفكر. فهو يحدد مجال نشاط المتصوفة بثلاثة ميادين رئيسة : -

**أحدها:** الكشف عن منازل السير.

**الثاني:** الكشف عن عيوب النفس وآفات الأعمال ومفسداتها.

**الثالث:** الكشف عن معاني الأسماء والصفات وحقائق التوحيد والمعرفة »[3].

وعلى هذا فالجانب الخلقي أحد الجوانب المهمة التي عُني بها المتصوفة.

وقد امتاز كثير من المتصوفة - ولاسيما المتقدمين منهم - بصفاء القلوب، وصدق العزائم، وحسن المعاملة، وجمال السلوك، كما كانت لهم الإشارات البديعة، والتوجيهات النافعة فيما يتعلق بأعمال القلوب، وزكاة النفوس، وتصحيح المعاملة، ولقد أثنى ابن القيم- رحمه الله- على أئمة الطريق كسهل بن عبد الله التستري[4]، وأبي طالب المكي، والجنيد بن محمد[5]، وأبي عثمان

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/١٢١).

(٢) مدارج السالكين (٣/٤٤٤).

(٣) المرجع السابق (٢/٣٢) .

(٤) سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أبو محمد الصوفي الزاهد، من أئمة القوم وعلمائهم، وله كلمات نافعة، ومواعظ حسنة، راسخ في الطريق، توفي سنة ٢٨٣هـ.
انظر: السلمي: طبقات الصوفية ص ٢٠٦. سير أعلام النبلاء( ١٢/٣٣٠).

(٥) الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي، أبو القاسم، شيخ الصوفية، صاحب تأله وتعبد وحكمة، كانت وفاته سنة ٢٩٧هـ.
انظر: طبقات الصوفية ص ١٥٥. شذرات الذهب (٢/٢٢٨).

النيسابوري[١]، ويحيى بن معاذ الرازي[٢]، وأبي سليمان الداراني[٣]، وعون بن عبد الله[٤]، وغيرهم فقال: (( إنهم تكلموا على أعمال القلوب، وعلى الأحوال كلاماً مفصلاً مبيناً ... وهم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة، وطهارة القلوب، وزكاة النفوس، وتصحيح المعاملة. ولهذا كلامهم قليل، فيه البركة، وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة ))[٥].

وذكر أنهم (( أعمق علماً، وأقل تكلفاً، وأكمل بصائر- وقال- كانت همة القوم مراعاة الأصول، وضبط قواعدها، وشد معاقدها، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شيء ))[٦].

ولذا أكثر من ذكر أقوالهم والنقل عنهم، كما نقل عن غيرهم من المتأخرين، ولاسيما في كتابة مدارج السالكين[٧].

---

(١) أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري النيسابوري، الإمام المحدث الواعظ القدوة، من أئمة الطريق، توفي سنة ٢٩٨هـ.
انظر: طبقات الصوفية ص ١٧٠ شذرات الذهب ( ٢/ ١٣٠ ).

(٢) يحيى بن معاذ الرازي، الواعظ من كبار المشايخ، له كلام جيد، ومواعظ مشهورة، كانت وفاته سنة ٢٥٨هـ.
انظر: طبقات الصوفية ص ١٠٧ شذرات الذهب (١٣٨/٢).

(٣) عبد الرحمن بن أحمد – وقيل بن عطية – العنسي الداراني، الإمام الزاهد، له كلام رفيع في التصوف والمواعظ، توفي سنة ٢١٥هـ.
انظر: طبقات الصوفية ٧٥ ، شذرات الذهب ( ١٣/٢).

(٤) عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، الإمام القدوة العابد، أبو عبد الله الهذلي الكوفي، توفي سنة بضع عشرة ومائة.
انظر: سير أعلام النبلاء(١٠٣/٥) شذرات الذهب (١٤٠/١).

(٥) مدارج السالكين (١٣٩/١).

(٦) المرجع السابق: الصفحة نفسها.

(٧) بل هذا الكتاب نفسه شاهد على عناية ابن القيم بالفكر الصوفي، حيث هو شرح لكتاب الإمام الهروي الصوفي: منازل السائرين.

ففي حديثة عن الشكر وبيان معناه، ينقل عن جماعة من المتصوفة فيقول:

« قال أبو عثمان: الشكر معرفة العجز عن الشكر.

وقال الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة.

وقال رويم[1]: الشكر استفراغ الطاقة.

وقال الجنيد أيضاً: الشكر أن لا يستعان بشيء من نعم الله على معاصيه»[2].

ويذكر ما قالوا عن خلق التواضع فيقول:

« قال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح، ولين الجانب.

وقال أبو يزيد البسطامي[3]: هو أن لا يدري لنفسه مقاماً ولا حالاً، ولا يرى في الخلق شراً منه.

وقال ابن عطاء[4]: هو قبول الحق ممن كان، والعز في التواضع، فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء من النار.

---

(١) رويم بن أحمد بن يزيد البغدادي، الإمام الفقيه المقرئ، الزاهد العابد، أبو الحسن شيخ الصوفية ومن فقهاء الظاهرية، مات ببغداد سنة ٣٠٣ هـ، وقيل غيرها.
انظر: طبقات الصوفية ١٨٠. سير أعلام النبلاء(١٣٤/٠١٤).

(٢) مدارج السالكين ( ٢٤٥/٢).

(٣) طيفور بن عيسى البسطامي، أحد الزهاد، له كلام حسن في المعاملات، وجاء عنه أشياء مشكلة لا مساغ لها، الشأن في ثبوتها عنه. مات سنة ٢٦١هـ وقيل غيرها.
انظر: طبقات الصوفية ٦٧، سير النبلاء (٧٦/٠١٣) .

(٤) أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء البغدادي، الزاهد العابد، المتأله، من مشايخ الصوفية وعلمائهم، مات سنة ٣٠٩هـ.

وقال حمدون القصار[1]: التواضع أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة لا في الدين ولا في الدنيا »[2].

وعند حديثه عن الصبر ومعناه ينقل عنهم أيضاً، فيقول: « سئل عنه الجنيد ابن محمد فقال: الصبر تجرع المرارة من غير تعبس.

وقال ذوالنون: هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة.

وقال عمرو بن عثمان المكي[3]: الصبر هو الثبات مع الله وتلقي بلائه بالرحب والدعة [4].

وقال الخواص[5]: الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة .

وقال رويم : الصبر ترك الشكوى » [6].

---

(١) حمدون بن أحمد بن عمارة، أبو صالح القصار النيسابوري، شيخ الصوفية، كان عالماً فقيهاً، توفي بنيسابور سنة ٢٧١ هـ.
انظر: طبقات الصوفية ١٢٣ . حلية الأولياء (٢٣١/١٠) سير أعلام النبلاء(٥٠/١٣).

(٢) مدارج السالكين ( ٣٢٩/٢-٣٣١).

(٣) عمرو بن عثمان بن كُرب، أبوعبد الله المكي، الزهد شيخ الصوفية، صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز، صاحب تصانيف وله كلام حسن، مات ببغداد سنة إحدى وتسعين ومائتين، وقيل سبع وتسعين.
انظر: طبقات الصوفية ص ٢٠٠ شذارات الذهب (٢٢٥/٢).

(٤) قال ابن القيم: ومعنى هذا أنه يتلقى البلاء بصدر واسع لا يتعلق بالضيق والسخط والشكوى. عدة الصابرين ص٩.

(٥) إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل، أبو إسحاق الخواص، من مشايخ الطريقة، من أقران الجنيد، مات بالري سنة ٢٩١ هـ.
انظر: طبقات الصوفية ص ٢٨٤. ابن الجوزي: صفة الصفوة (٩٨/٤ ) دار المعرفة — بيروت، ط٣ سنة ١٤٠٥ هـ .

(٦) عدة الصابرين ص ٨-٩.

ولكن لما كان طريق المتصوفة لم يخل من شطحات في الفكر أو في السلوك، أو فيهما جميعاً، فقد كان لغيرهم مواقف منهم يجملها ابن القيم في ثلاثة مواقف.

**أحدها** : موقف من حجبوا بشطحات القوم عن محاسنهم، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساءوا الظن بهم مطلقاً [1]. ويبين خطأ هذه الطائفة فيقول: ((وهذا عدوان وإسراف ، فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات والحكم،وتعطلت معالمها))[2].

**الثاني**: موقف الذين حجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ونقصانها، فسحبوا عليها ذيول المحاسن، وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم - قال ابن القيم- وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون.

**الثالث**: وهم أهل العدل والإنصاف، الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يقبل، وردوا ما يرد[3].

ويزيد الأمر إيضاحاً في بيان الواجب تجاه كل من جمع فيما جاء به بين حق وباطل، فيقول: ((الصادق الذكي يأخذ من كل منهم ما عنده من الحق

---

(١) مدارج السالكين (٣٩/٢).

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق ص ٤٠.

فيستعين به على مطلوبه، ولا يرد ما يجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر ويهدره به، فالكمال المطلق لله رب العالمين، وما من العباد إلا له مقام معلوم »[1].

وأما المعيار الذي اعتمده ابن القيم للحكم على الأقوال والأفعال، ومعرفة صحيحها من سقيمها، فهو الوحي المعصوم، وفي هذا يقول: « إذا وقع نزاع في حكم فعل من الأفعال، أو حال من الأحوال، أو ذوق من الأذواق، هل هو صحيح أو فاسد ؟ وحق أو باطل ؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين، وهي وحيه الذي تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه، وتعرض عليه، وتوزن به، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول. وما أبطله فهو الباطل المردود. ومن لم يبن على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله فليس على شئ من الدين »[2].

ولقد سار- رحمه الله - على هذا النهج الذي رسمه وارتضاه، فكان يعرض الأقوال والأحوال المأثورة عن المتصوفة على الكتاب والسنة، فيقبل ما وافقهما ويرد ما خالفهما. ولذا أكثر- رحمه الله - من الرد على الهروي[3] في شرحه لكتابه منازل السائرين، كما رد على كثير ممن نقل عنهم من أئمة الصوفية.

- فمن ذلك أن الهروي قال في أثناء حديثه عن منزلة الشكر: « وهو من سبل العامة » [4]، فعقب عليه ابن القيم بقوله: « يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل، إذ جعل نصف الإسلام والإيمان من أضعف السبل .

---

(١) المرجع السابق (٣٢/٢) وانظر: ص ٣٨٠.

(٢) المرجع السابق (٤٩٦/١). وانظر:(٣٣٦/٢). إغاثة اللهفان (١٦٥/٢-١٦٦).

(٣) عبد الله بن محمد بن علي الهروي، أبو إسماعيل الأنصاري، الصوفي القدوة الحنبلي الحافظ، المعروف بشيخ الإسلام، أحد الأعلام ، توفي سنة ٤٨١ هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء(٥٠٣/١٨). شذرات الذهب (٣٦٥/٣).

(٤) مدارج السالكين (٢٤٩/٢).

بـل الـشكر سـبيل الله وأنبـيائه - صـلى الله عليهم وسلم أجمعين - أخص خلقه، وأقربهم إليه .

ويا عجبا! أي مقام أرفع من الشكر الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان، حتى المحبة، والرضى، والتوكل، وغيرها ؟ فإن الشكر لا يصلح إلا بعد حصولها. وبـالله لـيس لخـواص أولـياء الله، وأهـل القـرب مـنه سـبيل أرفع من الشكر ولا أعلى »[1].

- ومـنها أن الهـروي عـد من منازل السائرين منزلة « الحزن » فاستدرك عليه ابـن القـيم بقوله: « ليس من المنازل المطلوبة، ولا المأمور بنزولها، وإن كان لا بـد للـسالك مـن نـزلها. ولم يـأت « الحـزن »في القرآن إلا منهياً عنه أو منفـياً كقـوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾[2]، وقوله: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3] »[4].

ولمـا قـال صـاحب المنازل: « وليست الخاصة من مقام الحزن في شئ لأن الحـزن فقـد، والخاصـة أهـل وجـدان »، قال ابن القيم: « هذا إن أراد به أنه لا ينبغي لهم تعمد الحزن فصحيح، وإن أراد به لا يعرض لهم حزن، فليس كذلك.

---

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) سورة آل عمران، الآية [١٣٩] .

(٣) سورة البقرة، الآية [٣٨]، وغيرها.

(٤) مدارج السالكين (١/٥٠٥).

والحزن من لوازم الطبيعة، ولكن ليس هو بمقام »[1]. إلى غير ذلك من الاستدراكات [2].

وقد تجاوزت انتقادات ابن القيم ومآخذه على الفكر الصوفي المسائل الجزئية إلى أصول هذا الفكر وأسسه. فمن القواعد المقررة عند كثير من المتصوفة تقديم الذوق على الشرع، وقالوا: « إذا تعارض الذوق والوجد والكشف[3] وظاهر الشرع قدمنا الذوق والوجد والكشف »[4]. وقد رد ابن القيم هذا القول وشنع على معتقده، وقرر أن هذا المسلك يتضمن شرع دين لم يأذن به الله وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله - ﷺ - [5]، وقال: «من ظن أنه يستغني عما جاء به الرسول بما يُلقى في قلبه من الخواطر والهواجس فهو من أعظم الناس كفراً، كذلك من ظن أنه يكتفي بهذا تارة وبهذا تارة، فما يُلقى في القلوب لا عبرة به، ولا التفات إليه، إن لم يعرض على ما جاء به الرسول ويشهد له بالموافقة، وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان »[6].

(١) المرجع السابق (٥٠٩/١).

(٢) انظر: المرجع السابق (١٨٨/١، ٢٢٧، ٥١٩، ١٣٧/٢، ١٤٢، ٢٨٢)، وغيرها كثير.

(٣) الوجد: ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع، وقيل: هو بروق تلمع ثم تخمد سريعاً، وأما الكشف: فهو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً.

انظر: التعريفات ص٣٠٥ ، ٢٣٥.

(٤) مدارج السالكين (٣٨/٢).

(٥) المرجع السابق (٦٩/٢-٧٠).

(٦) إغاثة اللهفان ( ١٢٣/١).

وخلاصة ما تقدم أن ابن القيم - رحمه الله- كان غزير العلم، واسع الاطلاع، مقدماً للكتاب والسنة، معتنياً بأقوال الصحابة وسيرهم، وما أثر عن سلف الأمة، حريصاً - بعد ذلك - على الاستفادة من كل من لديه علم نافع أو فكر صائب، مادام ما جاء به متوافقاً مع الكتاب والسنة.

ثم إن ابن القيم لم يكن ذلك الجامع للحكم، والرصد للأفكار فحسب، بل هو إلى جانب ذلك ناقد ومقوم لما بين يديه، ومتمم لجهود سابقيه، ومقدم للكثير مما لم يسبق إليه .

## المبحث الثالث
## الدراسة والتقويم
### أولاً: الكتاب والسنة:

لقد وفت نصوص الشريعة الجانب الخلقي حقه، فأمرت بكل معروف، ونهت عن كل منكر، ودعت إلى كل فضيلة، ونهت عن كل رذيلة.

فقد جاء في القرآن والسنة الدعوة إلى أصول الأخلاق، والإلزام بها والتحذير من مخالفتها، وترتيب الثواب على فعلها، والعقاب على تركها، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[6].

---

(١) سورة النحل، الآية {٩٠}.
(٢) سورة الأعراف، الآية {١٩٩}.
(٣) سورة النساء، الآية {٥٨}.
(٤) سورة المائدة، الآية {١}.
(٥) سورة التوبة، الآية {١٩٩}.
(٦) سورة المائدة، الآية {٨}.

وقال- عليه الصلاة والسلام-: (( إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا ))(١)، وقال- ﷺ-: (( إن المقسطين عند الله على منابر من نور: الذين يعدلون في حكمهم وما ولوا ))(٢)، وقال- عليه الصلاة والسلام-: (( لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ))(٣)، وقال: (( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ))(٤)، وقال: (( أد الأمانة إلى من ائتمنك ))(٥)، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

على أن السنة قد جاءت بتفصيل القول في كثير من الفضائل الخلقية التي يحتاج الناس إلى بيانها وتفصيلها.

فمن ذلك إكرام الضيف الذي جاءت السنة بالأمر به، كما في الحديث

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، البخاري في كتاب الأدب: باب قول الله تعالى . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ، ومسلم في البر والصلة – باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل.

(٣) متفق عليه: البخاري في الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. ومسلم في الإيمان ، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخية مايحب لنفسه.

(٤) متفق عليه: البخاري في الأدب، باب حق الضيف. ومسلم في الإيمان– باب الحث على إكرام الجار والضيف.

(٥) رواه أبو داود في كتاب الإجارة – باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده.
وانظر: الألباني: صحيح سنن أبي داود (٦٧٥/٢) ، المكتب الإسلامي – بيروت ط١ سنة ١٤٠٩ هـ.

المتقدم، وجاء فيها بيان القدر الواجب في هذا الإكرام، في قوله-عليه الصلاة والسلام-: (( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته)) قالوا: وما جائزته يارسول الله؟ قال: يومه وليلته، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه))[1].

كما بينت السنة ما يجب على الضيف من مراعاة حال مضيفه في قوله - عليه الصلاة والسلام-: (( ولايحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه ))[2].

- ومن ذلك خلق الغضب، فقد جاء في حديث عائشة بيان الأسباب التي يشرع الغضب من أجلها، في قولها -رضي الله عنها- في بيان حال النبي - ﷺ - ما ضرب رسول الله - ﷺ - شيئًا قط بيده ولا امرأة، ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى، فينتقم الله -عز وجل-))[3].

أما ما عدا ذلك فجاء توجيه الرسول-عليه الصلاة والسلام- عاماً في قوله: (( لا تغضب )) [4].

وبينت السنة ما يترتب على الغضب من الهجر والمقاطعة، فقد حد النبي -ﷺ- ما يحل من الهجر إذا كان الغضب لشيء من أمور الدنيا بثلاثة أيام، فعن

---

(١) متفق عليه: البخاري في الأدب – باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، ومسلم في اللقطة – باب الضيافة ونحوها.

(٢) أخرجه البخاري: في الحديث المتقدم نفسه. وقوله (( يثوي )) أي يقيم، و(( يحرجه)) أي يضيق عليه ويؤذيه. انظر: الفتح ( ٥٣٣/١٠ ).

(٣) أخرجه مسلم: في كتاب الفضائل – باب مباعدته – ﷺ – للآثام.

(٤) أخرجه البخاري، في كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب.

أبـى أيـوب الأنصاري[1] - ﷺ -، أن رسول الله -ﷺ- قال: (( لا يحل لمسلم أن يهجـر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام ))[2].

وأما إذا كان الهجر لأمر ديني فلا حد له حتى يقلع العاصي عن معصيته أو يقتـضي قطـع الهجـر مـصلحة شـرعية معتـبرة[3]، كما هجر النبي -ﷺ- الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك[4] خمسين ليلة، وأمر بهجرهم حتى تاب الله عليهم[5].

كما أن سيرة الرسول -ﷺ- تعد مثالاً للكمال الخلقي، فقد أثنى الله -عز وجـل- علـيه بكمـال خلقـه فقـال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[6]، وذكـر بعـض

---

(١) هـو خالـد بـن زيـد بن كليب الأنصاري، أبو أيوب، من كبار الصحابة، شهد بدراً وما بعدها، مات غازياً الروم سنة ٥٠هـ، وقيل بعدها.

انظر: أسد الغابة ( ٥/٢٥ ). سير أعلام النبلاء (٢/٤٠٢).

(٢) مـتفق عليـه: البخاري في الأدب، باب الهجرة. ومسلم في البر والصلة، باب تحريم الهجر فوق ثلاث أيام بلا عذر شرعي.

(٣) انظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى (١٨/٢٠٤).

(٤) وهم كعب بن مالك الأنصاري، ومراره بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي.

(٥) قصتهم في صحيحين. رواها البخاري في المغازي، باب حديث كعب بن مالك، ومسلم في التوبة، حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

(٦) سورة القلم، الآية {٤}.

شمائله في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

وحث سبحانه على الاقتداء به واتباع هديه فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ (٢).

وتظهر أهمية السيرة النبوية في البناء الخلقي لكونها تمثل وصلاً للأخلاق بالواقع، وتصويرًا للقدوة الباعثة على التأسي والمتابعة. مع ما فيها من تأكيد على يسر الفضيلة وإمكان الأخذ بها.

وبالجملة فإن الأمر كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : (( إن الشريعة لم تهمل مصلحة قط، بل الله تعالى قد أكمل لنا الدين وأتم لنا النعمة، فما من شيء يقرب إلى الجنة إلا حدثنا به النبي-ﷺ-، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعده إلا هالك ))(٣).

ولذا فإنه يمكن القول إن غاية ما يمكن الإسهام به في الجانب الخلقي هو بيان الطريق لممارسة فضيلة معينة، أو النجاة من ضدها، أو السعي في وضع ضوابط لها في ظروف معينة.. ونحو ذلك مما هو تفريع على الفضيلة وتحليل لها لابيان لأصلها.

---

(١) سورة التوبة، الآية {١٢٨}.

(٢) سورة الممتحنة، الآية {٦}.

(٣) مجموع الفتاوى ( ١١/٣٤٤ – ٣٤٥ ).

ولقد وفّى ابن القيم- رحمه الله-هذه الأصول حقها من العناية والتقديم، فراعى ما جاءت به الشريعة من أوامر ونواه وتوجيهات، كما عُني بسيرة الرسول-ﷺ- في جانبها الخلقي دراسة وتحليلاً واستنباطاً[1].

كما أضاف إلى هذا اهتمامه بسير الصحابة -ﷺ-، وحرصه على إبراز نماذج من أخلاقهم وشمائلهم. وهو اهتمام في محله، فإن الصحابة -ﷺ- جيل فريد في إيمانه وعبادته وأخلاقه وسلوكه.

جيل تجلت فيه عظمة هذا الدين وتمثلت فيه أخلاقه العظيمة وتوجيهاته الكريمة. ولقد كان لهم السبق في سائر الأخلاق والفضائل، فما من باب من أبواب الخلق إلا دخلوه، وما من طريق من طرق الفضيلة إلا سلكوه.

ولقد ضربوا أروع الأمثلة في الصبر والإيثار والبذل والشجاعة والكرم وسائر الفضائل الخلقية.

فمن صور البذل في حياة الصحابة – رضي الله عنهم-:

- عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: « أمرنا رسول الله -ﷺ- يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله -ﷺ-: ما أبقيت لأهلك؟ فقلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله -ﷺ-: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسابقك أبدًا »[2].

---

(١) كما في كتابه القيم زاد المعاد، وبالأخص القسم الخاص بغزواته – عليه الصلاة والسلام -.

(٢) رواه أبو داود، في كتاب الزكاة، باب الرخصة في التصديق بجميع المال. والترمذي في المناقب، باب مناقب أبي بكر الصديق – رضي الله عنه -. والحديث حسنه الألباني، انظر: مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي (١٦٩/٣)، المكتب الإسلامي- بيروت، ط٢ سنة ١٣٩٩هـ.

- وعن عبد الرحمن بن سمرة [1] قال: (( جاء عثمان إلى النبي -ﷺ- بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره. قال: فرأيت النبي -ﷺ- يقلبها في حجره ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم، مرتين )) [2].

وأما الإيثار فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: أتى رجل رسول الله -ﷺ- فقال: يارسول الله، أصابني الجهد. فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا. فقال رسول الله -ﷺ-: ألا رجل يضيفه الليلة يرحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يارسول الله،فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله-ﷺ- لاتدخريه شيئًا. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله -ﷺ- فقال: ((لقد عجب الله -عز وجل- أو ضحك - من فلان وفلانة. فأنزل الله -عز وجل-: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ [3][4].

---

(١) عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب العبشمي، صحابي من مسلمة الفتح، افتتح سجستان، ثم سكن البصرة ومات بها سنة خمسين للهجرة أو بعدها.
انظر: سير أعلام النبلاء(٢/٥٧١ ). الإصابة( ٢/٣٩٣ ).

(٢) رواه الترمذي، في المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان – رضي الله عنه -. وأحمد في كتابه فضائل الصحابة، فضائل عثمان– رضي الله عنه- ( ١/٤٥٧)، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١ سنة ١٤٠٣هـ. وانظر: الألباني: صحيح سنن الترمذي ( ٣/٢٠٨).

(٣) سورة الحشر، الآية {٩}.

(٤) متفق عليه، رواه البخاري في مناقب الأنصار، باب قول الله -عز وجل - ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾. ومسلم في الأشربة ، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره .

ويكفي دليلاً على شجاعتهم -ﷺ- ما يسر الله تعالى على أيديهم من نشر الدين وقمع أعدائه وكسر شوكتهم. فما توفي الرسول -ﷺ- حتى طرقت جيوشه أبواب الشام. ولم تنقض خلافة الفاروق- ﷺ- حتى فتح الله على أيديهم العراق والشام ومصر.

ثم بعد أن مكنهم الله في الأرض حكموا الأمة بالعدل، وساسوا أمورها بالشورى، كما كانوا أمناء على ما تحت أيديهم، فرعوا مصالح الأمة، وصانوا حرماتها، وحفظوا ثرواتها.

ولقد نعم المجتمع المسلم في عصرهم بسائر الآثار المباركة لتلك الفضائل، فعم العدل، وانتشر الأمن، وعم الرخاء عامة بلاد المسلمين، كما سادت بينهم المحبة، وقام فيهم التكافل على أكمل وجه وأتمه، حتى إن عمر- ﷺ- يلي القضاء لأبي بكر -ﷺ- فيمكث سنة لا يأتيه أحد(1).

وأما مسكويه فلم تحظ هذه المصادر منه بما تستحقه من الرعاية والعناية، بل يمم وجهه شطر الفلاسفة اليونان، نقلاً واستمدادًا ومتابعة. ففقدت بحوثه بذلك الأصالة، كما قصرت عن بيان حدود الفضيلة الخلقية بالقدر الذي يمكن الاكتفاء به والوقوف عنده.

على أن الأثر الأكثر خطورة هو في فقدها الروح الدافعة للأخذ بها، لكونها مقطوعة الصلة بالله ووحيه، وبالتالي فلا إلزام فيها، ولا ثقة بصحتها وسلامتها.

---

(1) ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك ( ٢/٣٥١)، دار الكتب العلمية – بيروت ط١ سنة ١٤٠٧ هـ. ابن الأثير : الكامل في التاريخ ( ٢/ ٢٦٨).

كما أنها فاقدة للرصيد العملي - المستمد من سيرة الرسول -ﷺ- وأصحابه الشاهد على يسر الفضيلة الخلقية، والباعث على الأخذ بها.

## ثانيًا: الفكر الخلقي لعلماء المسلمين:

جاءت عناية علماء المسلمين بالأخلاق في ثنايا مؤلفاتهم في التفسير والحديث والفقه، كما اشتملت كتب الزهد والرقائق على كثير من التوجيهات والأفكار الخلقية.

وأما المتصوفة فعنايتهم بالأخلاق ظاهرة، فإن من أصول اهتماماتهم البحث في منازل السير، وتتضمن ثلة من الفضائل الخلقية. وعن عيوب النفس وآفات الأعمال، ومنها بعض الرذائل الخلقية. وقد حوت كتبهم[1]، والمؤلفات في أخبارهم وسيرهم وأقوالهم[2] توجيهات وأفكاراً خلقية قيمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ما يأثره أبو عبد الرحمن[3] عن بعض المتكلمين في الطريق، أو ينتصر له من الأقوال والأفعال والأحوال؛ فيه من الهدى والعلم شيء كثير. وفيه -أحيانًا- من الخطأ أشياء، وبعض ذلك يكون عن اجتهاد سائغ، وبعضه باطل..

فالذي جمعه .. في تاريخ أهل الصفة، وأخبار زهاد السلف، وطبقات الصوفية،

---

(١) كالرعاية لحقوق الله للمحاسبي (ت٢٤٣هـ). والرسالة لأبي القاسم القشيري (ت ٤٦٥). والإحياء، وميزان العمل للغزالي (ت ٥٠٥هـ).

(٢) كطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ت ٢٤٣هـ). والحلية لأبي نعيم الأصبهاني (ت٤٣٠). وصفة الصفوة لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ).

(٣) هو محمد بن الحسين بن موسى، أبو عبد الرحمن الأزدي السلمي، النيسابوري، الإمام الحافظ المحدث، شيخ خرسان وكبير الصوفية، صاحب التصانيف. قال الذهبي: في تصانيفه أحاديث وحكايات موضوعة، وفي حقائق تفسيره أشياء لا تسوغ أصلاً. توفي سنة اثنتي عشرة وأربعمائة.
انظر: سير أعلام النبلاء (١٧ /٢٤٧). شذرات الذهب (٣/١٩٦).

يستفاد منه فوائد جليلة، ويجتنب منه ما فيه من الروايات الباطلة، ويتوقف فيما فيه من الروايات الضعيفة.

وهكذا كثير من أهل الروايات، ومن أهل الآراء والأذواق؛ من الفقهاء والزهاد والمتكلمين وغيرهم يوجد فيما يأثرونه عمن قبلهم، وفيما يذكرونه معتقدين له شيء كثير، وأمر عظيم من الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسوله -عليه الصلاة والسلام-، ويوجد -أحياناً- عندهم من جنس الروايات الباطلة أو الضعيفة، ومن جنس الآراء والأذواق الفاسدة أو المحتملة شيء كثير»[1].

وإذا كان عامة المؤلفات لعلماء السلف وأهل التصوف قد توافرت في أيام ابن القيم، فإن كثيرًا منها وجد أيام مسكويه وقبله[2] وقد ساق مسكويه جملة من المرويات عن المتصوفة وأرباب السلوك، وغيرهم من علماء السلف في كتابه (الحكمة الخالدة) ولكنها لم تحظ باهتمامه في كتابه (تهذيب الأخلاق).

وأما ابن القيم فقد انتفع بجهود علماء المسلمين واستفاد منها، كما كان له عناية خاصة بالفكر الصوفي -كما تقدم ذلك- ونقله الواسع عن علماء السلف وعن أرباب السلوك في كتابه مدارج السالكين وغيره[3] خير شاهد لذلك.

ولما كان قد صاحب التصوف عند كثير من المنتسبين له تقشف وشدة في السلوك لم يرد بها الشرع، كما تأثر في مراحله المتأخرة بتيارات مختلفة أورثته صورًا من الانحراف في الفكر والاعتقاد. فقد نقد ابن القيم صور الانحراف في الفكر الصوفي وسعى إلى تصحيحه وإزالة ما علق فيه من شوائب وأوضار.

---

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى (١١/ ٤٢ -٤٣) .

(٢) انظر: ابن النديم: الفهرست ص٢٦٠.

(٣) كإغاثة اللهفان، وروضة المحبين.

وقد سار إلى هذا على طريقين:

**إحداهما:** إقامة مباحث التصوف من أعمال قلبية، ومقامات وأحوال على أساس نصوص الكتاب والسنة، وأقوال الأئمة وسلف الأمة.

**الثاني:** عرض أقوال المتصوفة وأفكارهم على نصوص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة وقبول ما وافقها ورد ما خالفها.

وقد أسدى ابن القيم بذلك غاية النفع لهذا الفكر بإسهاماته المثمرة فيه، وللأمة بتيسره الاستفادة منه.

والحق أن التصوف في حال صفائه خير معين على إصلاح القلوب وتهذيب النفوس وتقويم الأخلاق، واستقامة الأحوال، وسيادة الفضائل بين أفراد المجتمع. كما أنه أحد السبل التي يحصّل بها المرء الكمال لنفسه بما يتحقق له من خلاله من زهد، ومحاسبة للنفس ومراقبة لها، ومن التجرد عن الدنيا وتمام الإقبال على الآخرة ..[1]

ولذا فالحاجة داعية إلى مواصلة الجهد في هذا الميدان- على وفق المنهج الذي سار عليه ابن القيم- حتى تستفيد الأمة من رصيد التصوف الضخم وتنتفع بما فيه من آراء وأفكار مقبولة.

## ثالثا: الفكر الخلقي عند الفلاسفة:

الحق أن الفلاسفة اليونان كانوا أكثر من غيرهم عناية بالمسائل الخلقية، وما أثر عنهم متميز عما أثر عن غيرهم من سائر الأمم، وقد أشار إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- ولكن مع تأكيده أن ما جاءوا به من الحق هو

---

(١) وذلك لأن الكمال يختلف باختلاف استعدادات النفوس وقدراتها، فقد يكون كمال إنسان بالعلم، وآخر بالجهاد، وثالث بالزهد.

انظر: ابن القيم: بدائع الفوائد ( ١٦٣/٣).

مما جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام-، يقول عن حكمتهم العملية: إنها تتضمن(( إصلاح الخُلق والمنزل والمدينة. ولاريب أن في ذلك من نوع العلوم والأعمال التي يتميزون بها عن جهال بني آدم الذين ليس لديهم كتاب منزل ولا نبي مرسل ما يستحقون به التقدم على ذلك. وفيه من منفعة صلاح الدنيا وعمارتها ما هو داخل في ضمن ما جاءت به الرسل.

وفيها أيضًا من قول الحق وأتباعه والأمر بالعدل والنهي عن الفساد ما هو داخل في ضمن ما جاءت به الرسل))[1].

وثم أمر آخر يلحظ في الفكر الخلقي لدى الفلاسفة اليونان؛ وهو أن ما قرروه في الفضائل الخلقية -مع ما فيه من حق وصواب- لا يمكن الاكتفاء به، لقصوره عن بيان مجالات الفضيلة وحدودها وضوابطها، كما قرر ذلك ابن القيم، وكما اعترفوا به هم أنفسهم، فقد قال أرسطو عن خلق الغضب: (( إنه ليس من السهل أن نعين بالضبط سلفًا كيف وضد من ولأي سبب ولأي مدة من الزمن ينبغي للإنسان أن يغضب )) [2] ومثل هذا في كثير من الأخلاق.

وبهذا يتبين خطأ مسكويه الذي عول كثيرًا على الفلسفة اليونانية، ووقف عند أقوال فلاسفتها وذهب يردد معهم أن الشجاعة هي الإقدام كما يجب، وبحيث يجب،وبالمقدار الذي يجب، وعلى من يجب[3]، والسخاء هو إنفاق الأموال فيما ينبغي، على مقدارما ينبغي، وعلى ما ينبغي[4]، والعفة الوقوف في

---

(١) مجموع الفتاوى ( ٢٦/٩).

(٢) أرسطو: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ( ٢٦٣/١).

(٣) مسكويه: تهذيب الأخلاق ص ١٦٦. وانظر: الهوامل الشوامل ص ٩٧.

(٤) المرجع السابق ص ٤١، ٤٨.

شهوات النفس على ما ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي[1] .. وهكذا في عامة الفضائل دون أن يبين حدود ذلك وضوابطه.

كما أن مسكويه ملوم قبل ذلك لما أخذ يجول بفكره ونظره في تراث الآخرين قبل أن يرجع إلى المصادر الأصيلة لهذا الدين- وهو ممن ينتسب إليه- معتمدًا لها ومستمدًا منها، ولاسيما وقد تكاثرت النصوص في الجانب الخلقي مبينة أوامره ونواهيه وآدابه. كان لزامًا عليه أن يفعل ذلك تأكيدًا لإيمانه بهذا الدين، ويقينه بصحة ما جاء به وأرشد إليه. ثم له بعد ذلك أن يستفيد مما لدى الأخرين من إسهام فكري صائب في هذا الميدان.

وأما موقف ابن القيم -رحمه الله- الرافض للفلسفة اليونانية وما جاءت به فهو متوافق مع ما قرره من بُعد تلك الفلسفة عما جاءت به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من عقائد وعبادات. ومن قصورها عن بيان تفاصيل الفضيلة الخلقية وحدودها. وفي المقابل كمال عناية الشريعة بهذا الجانب وتمام بيانها له[2].

وإن كان منهجه العام داعياً إلى الاستفادة من كل من لديه فكر صائب أو علم نافع.

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠، ٤٧.

(٢) انظر: تقرير ابن القيم لذلك في إعلام الموقعين (٤/٣٧٥).

# الباب الثاني

# أسس الأخلاق وخصائصها

# الفصل الأول

# أسس الأخلاق

# مدخل في مفهوم الأسس

الأسس، جمع أساس من أسَ وأسَس، أساً وأساساً.

ويُقال: أسَ وأسسَ البناء: وضع أساسه.

والأساس: قاعدة البناء التي يقوم عليها. وهو أصل كل شيء ومبدؤه[1].

وفي ضوء هذا يمكن تعريف أسس الأخلاق بأنها: المبادئ التي تنبع منها الأخلاق، والقواعد التي تقوم عليها.

والوقوف على أسس الأخلاق والكشف عن أبعادها وتأثيراتها في النفس البشرية في غاية الأهمية، لكونه يمنحنا القدرة على رعاية هذه الأسس وتنميتها، وتوجيه ما يحتاج منها إلى توجيه، ليزداد رسوخها، ويعظم أثرها، وتتنامى إمكاناتها في الإسهام في البناء الخلقي.

والأسس المهمة للأخلاق هي الأساس الفطري، والأساس الحاجي، والأساس الإيماني[2]. وقد تفاوت كلام مسكويه وابن القيم في هذه الأسس، واختلفا في مدى الاعتداد بها، والتأكيد على كونها مبادئ وقواعد تقوم عليها الأخلاق، كما سيتجلى ذلك في ثنايا هذا الفصل.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، باب السين، فصل الألف. الفيروزبادي– القاموس المحيط، باب السين، فصل الهمزة. المعجم الوسيط، باب الهمزة.

(٢) توسع بعض الباحثين في عد الأسس، فجعل كل ما هو أصل لغيره من الفضائل الخلقية أساساً من أسس الأخلاق، كما فعل عبد الرحمن حبنكة الميداني، الذي جعل محبة الآخرين وحب العطاء والصبر وسماحة النفس وعلو الهمة أسساً من أسس الأخلاق.
انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ، المجلد الثاني.
وأدخل بعضهم في الأسس ما لا يمكن عده منها، كما هو الحال عند د. مقداد يالجن، حيث جعل من أسس الأخلاق: الاعتدال بين الواقعية والمثالية، ومراعاة الطبيعة الإنسانية، والاعتداد بالحرية الأخلاقية.
انظر: كتابه: علم الأخلاق الإسلامية، ص١٣٠، ١٥٠، ٢٠٨ دار عالم الكتب – الرياض، ط١ سنة ١٤١٣هـ.
ولعل السبب في ذلك هو عدم التحديد المسبق لمعنى الأساس، حتى يمكن ضبط ما يدخل تحته وما هو خارج عنه.

## المبحث الأول:
## أسس الأخلاق عند مسكويه

### أولاً : الأساس الفطري :

تقدم أن الأخلاق عند مسكويه مكتسبة، وليس شيء منها فطرياً[1]. ويضيف مسكويه إلى هذا أن الإنسان يوجد خالياً من كل ميل أو رغبة، وفي هذا يقول: « نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة، ولا لها رأي وعزيمة تميلها من شيء إلى شيء »[2].

ولكن الناس مفطورون ومطبعون على قبول الخلق[3] أي أن الإنسان مهيأ فطرياً لاكتساب الفضائل ومستعد لقبولها.

والناس متفاوتون في هذا الاستعداد، يقول مسكويه: « فأما مراتب الناس في قبول هذه الآداب التي سميناها خلقاً، والمسارعة إلى تعلمها والحرص عليها فإنها كثيرة، وهي تشاهد وتعاين فيهم، وخاصة في الأطفال »[4]. ويقول: «إننا ننتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعاً أو بطيئاً»[5]. ويرى مسكويه أن كل إنسان مستعد لفضيلة معينة، فهو إليها أقرب بالوصول إليها أحرى[6].

وعلى هذا فغاية الأساس الفطري وجود الاستعداد للفضائل، الذي يمهد لقبولها ويدفع لممارستها.

---

(١) انظر: ما تقدم ص ١١١.

(٢) تهذيب الأخلاق ص ٦٩.

(٣) تهذيب الأخلاق ص ٥١.

(٤) المرجع السابق ص ٥٣- ٥٤.

(٥) المرجع السابق ص ٥١. والهوامل والشوامل ص ٢٦٢.

(٦) تهذيب الأخلاق ص ٨٠-٨١.

## ثانياً : الأساس الحاجي :-

الأصل في هذا الأساس هو حاجة الإنسان إلى بني جنسه، ذلك أنه « لا يكتفي بنفسه في تكميل ذاته، ولا بد له من معاونة قوم كثيري العدد حتى يتمم به حياته طيبة ويجري أمره على السداد، ولهذا قال الحكماء: ( الإنسان مدني بالطبع ) أي محتاج إلى ( مدينة ) فيها خلق كثير لتتم له السعادة الإنسانية، فكل إنسان بالطبع وبالضرورة يحتاج إلى غيره »[١].

وهذه الحاجة للمخالطة والمعاشرة توجب على الإنسان الأخذ بالأخلاق الكريمة، يقول مسكويه: «فهو لذلك مضطر إلى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة، ومحبتهم المحبة الصادقة؛ لأنهم يكملون ذاته ويتممون إنسانيته »[٢]. بل إنه ليس في مقدوره جلب المصالح إلى نفسه، ودفع المضار عنها إلا بالممارسات الخلقية الفاضلة كالعدل والعفة والشجاعة وغيرها »[٣].

---

(١) تهذيب الأخلاق ص ٤٩ وانظر: ص١١٠. والفوز الأصغر ص ٦٤-٦٤. والهوامل والشوامل ص ٣٥-٦٨- ٣٤٦.

(٢) المرجع السابق ص ٤٩.

(٣) انظر: ص ١٤٦-١٤٧.

## المبحث الثاني
## أسس الأخلاق عند ابن القيم

يبين ابن القيم- رحمة الله- أن للممارسات الخلفية أسساً تقوم عليها وتدفع للأخذ بها. وما يمكن استخلاصه من تحليلات: أن الأخلاق ترتكز على أسس ثلاثة:- وهي الأساس الإيماني، والأساس الفطري، والأساس الحاجي.

**أولاً: الأساس الإيماني:**

يتابع ابن القيم جمهور سلف الأمة في بيان معنى الإيمان وحقيقته، وفيؤكد شموله لتصديق القلب وانقياده ومحبتة، ولقول اللسان وعمل الجوارح، فيقول: « الإيمان ... حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول- ﷺ- علماً، والتصديق به عقداً، والإقرار به نطقاً، والانقياد له محبة وخضوعاً، والعمل به باطناً وظاهراً، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان »[1].

ومع هذا الشمول لمفهوم الإيمان بحيث يتضمن أقوال اللسان وأعمال الجوارح، فإن الإيمان الذي في القلب من التصديق والحب وغير ذلك أصل وأساس لسداد الأقوال، وصحة الأعمال، وهي من مستلزمات إيمان القلب وثمراته، ولذا تتأثر به وجوداً وعدماً، قوة وضعفاً. يقول ابن القيم: « الأعمال بنيان وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان »[2].

---

(١) الفوائد ص ١٠٧.

(٢) المراجع السابق ص ١٥٥-١٥٦.

ويقول أيضا: ((تخلف العمل ظاهراً مع عدم المانع - من عجز أو إكراه وخوف - دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته))(١).

وأما عن كيفية تأثير الإيمان في الأخلاق والسلوك فتظهر من خلال: ((واعظ الله في قلب عبده المؤمن الذي يأمره وينهاه، ويناديه ويحذره، ويبشره وينذره))(٢). وهذا الواعظ قد جاء ذكره في حديث النبي- ﷺ - الذي يقول فيه: (( ضرب الله مثلاً: صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتعوجوا، وداعٍ يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق واعظ الله في قلب كل مسلم))(٣).

كما أن من منافذ التأثير الإيماني بواعث الحب والخوف والرجاء((التي تبعث على عمارة الوقت بما هو الأولى لصاحبه والأنفع له، وهي أساس السلوك، والسير إلى الله. وقد جمع الله سبحانه الثلاثة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

---

(١) المراجع السابق ص ٨٥.

(٢) مدارج السالكين (٣/٧٢).

(٣) رواه أحمد والحاكم. انظر: أحمد البنا: الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد (١/٨٣-٨٤). الحاكم: المستدرك على الصحيحين كتاب الإيمان (١/ ٧٣). الألباني: صحيح الجامع الصغير (٤/٤).

يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[1]، وهذه الثلاثة هي قطب رحى العبودية وعليها دارت رحى الأعمال ))[2].

أما المحبة فمصدرها مطالعة الأسماء والصفات الناطقة بجمال الله- عز وجل- وجلاله وكماله، ومشاهدة النعماء والآلاء الشاهدة على إحسانه وإنعامه [3].

والحب الذي يحرك العزائم ويثير الهمم لفعل الطاعات وترك المخالفات هو الحب المتضمن لتعظيم المحبوب - سبحانه وتعالى-، ((وإلا فلو خلا القلب من تعظيمه لم تستلزم محبته ترك مخالفته، كمحبة الإنسان لولده وعبده وأمته، فإذا قارنه التعظيم أوجب ترك المخالفة ))[4].

وأما الخوف فمصدره مطالعة الوعيد، وما أعد الله لمن آثر الدنيا على الآخرة، والمخلوق على الخالق، والهوى على الهدى، والغي على الرشاد.

---

(١) سورة الإسراء الآية ( ٧٥).

(٢) مدارج السالكين (٣/١٣٣).

(٣) المرجع السابق ( ٣/ ٢٢٨).

(٤) المرجع السابق ( ٢/ ٢٣)، قال ابن القيم: (( المحبة إذا قارنها الإجلال والتعظيم أوجبت الحياء والطاعة، وإلا فالمحبة الخالية عنهما إنما توجب نوع أنس وانبساط وتذكر واشتياق، ولهذا يتخلف عنها أثرها وموجبها. ويفتش العبد قلبه فيرى فيه نوع محبة الله، ولكن لا يحمله على ترك معاصيه، وسبب ذلك تجردها عن الإجلال والتعظيم، فما عمر القلب شيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه. وتلك من أفضل مواهب الله لعبده، أو أفضلها وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء )). طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٣٤٩.

وبحسب تصديق الإنسان بالوعيد ويقينه به يكون تشميره في الخلاص من الأخلاق السيئة، والأفعال القبيحة [1].

وأما الرجاء فمصدره مطالعة الوعد، وحسن الظن بالرب تعالى، وما أعد لمن آثر الله ورسوله والدار الآخرة. فهو حاد يحدو القلوب ويطيب لها السير، ويحثها عليه، ويبعثها على ملازمته، فلولا الرجاء لما سار أحد [2].

كما أن من منافذ التأثير الإيماني على الأخلاق، باب الحياء من الله، وهو نور يقع في القلب يريه ذلك النور أنه واقف بين يدي ربه – عز و جل – فيستحي منه في خلواته وجلوته.فيورثه ذلك نور المعرفة، ودوام المراقبة، وصدق المعاملة [3].

وهكذا فإن الإيمان يعتبر أساساً للممارسات الخلقية الفاضلة؛ لأنه إذا رسخ في القلب حمل صاحبه على فعل الخير وترك ضده، بل هو (( روح الأعمال، وهو الباعث عليها، والآمر بإحسانها، والناهي عن أقبحها. وعلى قدرة قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وائتمار صاحبه وانتهاؤه ))[4].

**ثانياً : الأساس الفطري :**

جاء الحديث عن الفطرة في قوله تعالى ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ** ﴾[5]، وفي قوله– عليه الصلاة والسلام–:

---

(١) مدارج السالكين ( ٣/ ٢٨٧-٢٨٨)، ( ١/ ١٤٥).
(٢) المرجع السابق ( ٣/ ٢٨٧-٢٨٨) ، ( ١/ ٥٠ ).
(٣) المرجع السابق ( ٣/٣٨٠).
(٤) المرجع السابق ( ٣/ ٢٨٤).
(٥) سورة الروم، الآية (٣٠).

« كـل مولـود يـولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها »[1].

قـال ابـن القـيم: « دلالـة الكـتاب والـسنة والآثار واتفاق السلف على أن الخلـق مفطرون على دين الله الذي هو معرفته والإقرار به، ومحبته والخضوع له، وأن ذلـك مـوجب فطـرتهم ومقتـضاها، يجـب حـصوله فـيها إن لم يحـصل مـا يعارضـه ويقتـضي حـصول ضـده، وأن حـصول ذلك فيها لا يقف على وجود شـرط، بـل علـى انتفاء المانع. فإذا لم يوجد فهو لوجود منافيه لا لعدم مقتضيه. ولهـذا لم يذكـر الـنبي- ﷺ - لوجـود الفطـرة شرطاً، بل ذكر ما يمنع موجبها، حيث قـال: « فأبـواه يهـودانه ويـنـصرانه ويمجـسانه »، فحـصول هـذا التهويد والتنـصير موقـوف علـى أسـباب خارجـة عـن الفطـرة. وحـصول الحنيفـية والإخـلاص، ومعـرفة الرب والخضوع له لا يتوقف أصله على غير الفطرة، وأن توقف كماله وتفصيله على غيرها »[2].

فالفطرة قوة مقتضية لمعرفة الحق، وإرادة الخير[3].

ويتمثل الأساس الفطري للأخلاق عند ابن القيم في أمرين : -

**أحدهما**: أن الله -عـز وجـل- مكن النفوس من معرفة أصول الأخلاق[4]، وهـيأها لقـبول الحـق، وأعـدها لـسلوك طريق الخير والفضلية. يقـول ابن القيم:

---

(١) مـتفق عليه، البخاري في كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين، ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

(٢) ابـن القـيم: شـفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ص ٥٩٢-٥٩٣، مكتبة دار التراث – القاهرة.

(٣) المرجع السابق ص ٥٩٤-٥٩٥.

(٤) يأتي زيادة تقرير لهذا المسألة عند الحديث عن معيار الأخلاق.

"إن الله - سبحانه- هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد التي جعلها فيه كامنة كالنار في الزناد ... قال الله تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[1] فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام، ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى "[2].

ويقول في بيان صلة الاستعداد الفطري بالبناء الخلقي: إن مما يقوم عليه الخلق في الإنسان "أن يكون الله تعالى خلقه على طبيعة منقادة سهلة القياد، وسريعة الاستجابة لداعي الخيرات... فهذه الطبيعة ينشأ عنها كل خلق صحيح"[3]. بل إن وجود هذا الاستعداد للفضيلة شرط لحصولها، فقد يكون المرء عالماً بالفضيلة وتحقيقها لمصالحه ولذاته وسروره، ولكن لا يأخذ بها لأن نفسه غير قابلة للفضائل[4].

والاستعداد للفضائل متفاوت في الناس، فمنهم من تكون طبيعته قاسية غير لينة منقادة. ومنهم من تكون طبيعته لينة منقادة سلسة[5]. ولكن رغم هذا الاختلاف في الاستعدادات ودرجات القبول والانقياد، فإن ما يحتاج إليه الإنسان في دينه - أي الأمور المفروضة، ومنها الواجبات الخلقية - ميسر على

---

(١) سورة الشمس، الآيتين( ٧-٨).

(٢) مدارج السالكين ( ٢/٣٨١).

(٣) تهذيب سنن أبي داود (١٣ /١٣٠-١٣١).

(٤) انظر: مفتاح دار السعادة (١/٩٦).

(٥) انظر: طريق الهجرتين ص٢٠٥، ٣٠٩، دار الكتاب العربي – بيروت .

كـل أحـد لـتقوم حجة الله على العبد[1]. ومعنى هذا أن اختلاف الاستعداد إنما يظهر أثره جلياً فيما زاد عن القدر الواجب من الفضيلة الخلقية.

**الـــثاني**: أن الله تعـالى فطـر الخلـق على استحسان الأخلاق الكريمة، ومحبتها والميل إلـيها والـرغبة فـيها، يقول ابن القيم: (( وضع الله – سبحانه – في العقول والفطـر استحـسان الـصدق والعدل والإحسان، والبر والعفة والشجاعة، ومكارم الأخـلاق وأداء الأمانـات وصـلة الرحم، ونصيحة الخلق والوفاء بالعهد ... ونحو ذلك.

ووضـع في العقـول والفطـر اسـتقباح أضداد ذلك، ونسبة هذا الاستحسان والاسـتقباح إلى العقـول والفطر كنسبة استحسان شرب الماء البارد عند الظمأ، وأكل الطعام اللذيذ النافع عند الجوع، ولبس ما يدفئه عند البرد، فكما لا يمكنه أن يدفـع عـن نفـسه وطـبعه استحـسان ذلك ونفعه، فكذلك لا يدفع عن نفسه وفطـرته استحـسان صـفات الكمـال ونفعهـا، واسـتقباح أضـدادها ))[2]، وهذا الاستحـسان مـن شـأنه أن يرغـب في الفضيلة الخلقية، لأن المحبة ((هي التي تحرك المحب في طلب محبوبه الذي يكمل بحصوله له)) [3].

وعلـى هـذا فمـضمون هـذا الأسـاس هـو استعداد النفوس الفطري لقبول الفضيلة، وميلها ورغبتها في التحلي بمكارم الأخلاق.

---

(١) تحفة المودود ١٤٨.

(٢) إغاثة اللهفان(٢/١٨٣). وانظر: مدارج السالكين (١/٣٢٠). ومفتاح دار السعادة (١/ ٢٨١).

(٣) إغاثة اللهفان(٢/١٣٢).

**ثالثاً : الأساس الحاجي :**

ينطلق ابن القيم- رحمه الله- في بيانه لهذا الأساس من تقريره لحقيقة ملازمة للإنسان، وهي الفقر و الحاجة، فكل إنسان (( فقير محتاج، وفقره و حاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾[1] ))[2].

وأبرز مظاهر هذا الفقر في الإنسان فقره إلى الله-عز وجل- كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[3]. وواضح أن فقره هذا إلى الله مختلف عن فقره إلى غيره من بني جنسه، وحاجته إليه .

وهذه الحاجة - مادية كانت أو معنوية - تدفع الإنسان إلى المعاملة الكريمة مع غيره، لتكميل نقصه، وقضاء حوائجه وسد خلته، وفي هذا يقول ابن القيم: (( العباد ... إنما يحسن بعضهم إلى بعض { لحاجة الإنسان} إلى ذلك، وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً، ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه، فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلى نفسه، وجعل إحسانه إلى غيره وسيلة وطريقاً إلى وصول نفع ذلك الإحسان إليه. فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره. وهو أيضاً إنما يحسن إليه ليحصل منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير. وإما أن يريد الجزاء من الله تعالى في الآخرة، فهو أيضاً محسن إلى نفسه بذلك، وإنما أخر جزاءه إلى يوم فقره وفاقته .. ))[4].

---

(١) سورة محمد، الآية (٣٨).

(٢) إغاثة اللهفان ( ١/ ٤١).

(٣) سورة فاطر، الآية (١٥).

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ٤١). وانظر في هذا المعنى: مفتاح دار السعادة (١/ ٩٠-٩١).

وكما يلاحظ فإن ابن القيم يشير إلى تنوع حاجات الإنسان، وهي وإن اختلفت في قوة دفعها من فرد لآخر، إلا أنه لا يمكن الخروج عن تأثيرها مطلقاً، ثم إنه وهو يقرر وجود هذه البواعث في الناس يؤكد على أهمية الباعث الإيماني ويبين أن مدار النجاة والفلاح عليه، فيقول: «المخلوق .. إنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك، وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض .. فالسعيد من عاملهم لله تعالى لا لهم، وأحسن إليهم لله تعالى، وخاف الله تعالى فيهم، ولم يخفهم مع الله تعالى، ورجا الله تعالى بالإحسان إليهم ولم يرجهم مع الله ... كما قال أولياء الله -عز وجل-: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[1]»[2].

ومن مظاهر هذا الأساس وشواهده « أن الإنسان مدني بالطبع، لا بد له أن يعيش مع الناس » [3]، ولذا فهو محتاج إلى أن يعاشرهم باللطف والأدب ليكسب بذلك مودتهم ومحبتهم، ويستكفي شرهم[4].

والأخلاق الفاضلة بعد ذلك أبلغ وسيلة لظفر الإنسان بحاجاته وبلوغه ومقاصده، فالصبر «أكبر عون على نيل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة» [5].

وبالصدق تستجلب مصالح الدنيا والآخرة[6]. « وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب » [7].

---

(١) سوره الإنسان، الآية (٩).

(٢) إغاثة اللهفان (٤٢/١). وانظر: طريق الهجرتين ص ٧٦.

(٣) إغاثة اللهفان (١٩٣/٢). والفوائد ص ٢٠٨.

(٤) مدارج السالكين (٥١١/٢).

(٥) المرجع السابق (٣١٧/٢).

(٦) الفوائد ص ١٣٦.

(٧) مدارج السالكين (٣٩١/٢).

## المبحث الثالث
## الدراسة والتقويم

إن أي بناء – مادياً كان أو معنوياً – يراد له أن يكون قوياً ثابتاً، لا بد أن يُقام على أسس راسخة وقواعد صلبة، وعلى قدر قوة الأسس ومتانتها تكون صلابة البناء وشموخه.

ويرتكز البناء الخلقي في النفس البشرية على أسس وأركان، منها :

**أولاً : الأساس الفطري:**

إنه لا بد لاكتساب الإنسان الأخلاق من وجود الاستعداد الفطري لذلك، وبفقد هذا الاستعداد ينعدم أثر التعليم والتأديب. أما التكاليف الشرعية الملزمة بفضائل الأخلاق واجتناب رذائلها فتكون بذلك أيضاً تكليفاً بما لا سبيل إليه.

ولقد اتفق مسكويه وابن القيم على وجود الاستعداد في الفطرة الإنسانية لاكتساب الأخلاق، وإن تفاوت الناس في هذا الاستعداد.

وإذا كان مسكويه قد وقف عند هذا الحد في بيان الأساس الفطري للأخلاق، فقد مضى ابن القيم يذكر جانباً آخر مهماً من هذا الأساس وهو ما في الفطرة من المحبة والميل والاستحسان لمكارم الأخلاق[1]، والذي من شأنه أن يقوي الرغبة في الفضيلة والحرص على التخلق بها.

وثم أمر آخر عند ابن القيم وهو أن من الأخلاق ما هو فطري بمعنى أن الإنسان يوجد متصفاً ببعض الأخلاق الفاضلة، وهذا يعني أن الفطرة وضعت الأساس للأخلاق، وأسهمت في البناء الخلقي ذاته في طوائف كثيرة من الناس.

---

(١) انظر: ابن تيمية – جامع الرسائل، تحقيق: د. محمد رشاد سالم (١/٢٤٣-٢٤٤) مطبعة المدني بمصر ، ط٢ سنة ١٤٠٥هـ.

وأخيراً فإن ابن القيم وهو يقرر تفاوت الاستعدادات في الناس، يؤكد أن على كل إنسان أن يتوجه إلى الميدان الخير الذي يتناسب مع طاقاته واستعداداته ليحقق به كماله، ولينتفع غيره به، يقول ابن القيم: ((متى أراد الله بالعبد كمالاً وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له، قابل له، قد هيء له، فإذا استفراغ وسعه بز على غيره وفاق الناس فيه)) (1).

ويؤكد أن على المربين مراعاة ذلك فيمن تحت أيديهم فيقول: (( مما ينبغي أن يعتمد، حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها، فيعلم أنه مخلوق له، فلا يحمله على غيره ما كان مأذوناً فيه شرعاً. فإنه إن حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه، وفاته ما هو مهيأ له ))(2). وفي هذا التوجيه من ابن القيم - رحمه الله - دعوة إلى مراعاة مواهب الله - عز وجل - الفطرية، واستثمارها فيما يعود بأعظم النفع على المرء في ذاته وعلى غيره.

## ثانياً : الأساس الحاجي :-

إن الأخلاق من ركائز المجتمعات البشرية وضرورات الحياة الإنسانية، ذلك أن انتظام حياة الناس واستقرار أمورهم مرهون بسيادة القيم الخلقية بينهم، وبقدر الإخلال بها يحصل الخلل في أحوال الناس وعلاقاتهم ومصالحهم.

فالصدق مثلاً شرط ضروري للثقة بالنقول والأخبار ونتائج العلوم. وهو عنصر مهم لسلامة المعاملات وقطع الخصومات والمنازعات.

والعدل أساس لصلاح الدنيا وانتظام أحوالها، واستقامة الملك وبقائه، لأنه ((يدعوا إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال،

---

(1) عدة الصابرين ١١٧. وقوله: بز: أي غلب. انظر: المعجم الوسيط، باب الباء.

(2) تحفة المودود ص ١٤٧.

ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان .. وليس شيء أسرع في خراب العمران، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور»[1].

وبالعدل تستقر أحوال الأسر، فتذهب الشحناء والعداوة، وتسود المحبة والألفة، ويستجلب بر الأبناء ويشع نور التواصل بينهم.

وفي شيوع الأمانة رعاية للحقوق، وصيانة للأعراض والأموال، فبها يعف الإنسان عما ليس له ويؤدي ما عليه، وبالأمانة توجه الطاقات والملكات وسائر القوى إلى ما يعود على الإنسان بالخير والبر.

وفي ظل الأمانة تسند الأمور إلى أهلها، فتنعم المجتمعات بولاية الأكفياء الذين يرعون شؤونها، ويقيمون مصالحها، ويحفظون لها ثرواتها، ويسعون في تحصيل أسباب القوة و المنعة لها.

وفي الأخذ بالشورى هداية إلى أرشد الأمور وأسلم الطرق وأيسرها، ووقاية للمجتمعات من مساوئ الاستبداد وآثاره السيئة، وتبعاته المؤلمة.

والوفاء بالعهود واحترام المواثيق أساس في العلاقات بين الأمم والشعوب، وبغيابه تتسلط الدول القوية على الضعيفة، فتنتهب خيراتها، وتستولي على ثرواتها، وتذيق أهلها صنوف العذاب والأذى.

وكذا القول في سائر الفضائل الخلقية للأخذ بها أثار خيرة على الأفراد والمجتمعات، وينجم عن تعطيلها نتائج سيئة وعواقب وخيمة.

---

(١) الماوردي: أدب الدنيا والدين ص ١٤١، دار مكتبة الهلال – بيروت سنة ١٩٨٥م. وانظر: ابن خلدون: المقدمة ص ٢٨٦.

ولقد أدرك الناس بعقولهم وفطرهم ما في الأخلاق الحسنة من المصالح والمنافع، وما تتضمنه الأخلاق السيئة من المفاسد والمضار، ولذا لم يخل مجتمع من المجتمعات البشرية على اختلاف أزمانها ومللها من ممارسات خلقية فاضلة.

ولقد أحسن مسكويه عندما أكد الحاجة إلى الأخلاق في الاجتماعات البشرية والمعاملات الإنسانية. وفي هذا التأكد دعوة للتفاعل الإيجابي للفرد مع مجتمعة فيتحقق له بذلك مراده، ويظفر بحاجته مع سلامة غيره من ظلمه أو اعتدائه.

ولكن فات مسكويه ما وفق له ابن القيم من التنبيه إلى لزوم توجيه هذا التفاعل الخلقي المثمر وإصلاح غايته بجعله خالصاً لله -عز وجل-، ليكون سبباً لتحصيل الآجر من الله تعالى، مع الظفر بثمرته العاجلة بتيسير أمور الحياة والمعاش، وجلب المصالح ودفع المضار.

وقد قال الله- عز وجل- أمراً بالإخلاص: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [١].

وقال- عليه الصلاة والسلام-: (( إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى))[٢]. وعن أبي موسى الأشعري[٣]- رضى الله عنه - قال: سئل رسول الله

---

(١) سورة الكهف، الآية (١١٠).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري في كتاب الوحي، باب كيف كان بدء الوحي. ومسلم في كتاب الإمارة باب قوله -ﷺ- ( إنما الأعمال بالنيات).

(٣) هو عبد الله بن قيس بن سليم، أبو موسى الأشعري، صحابي مشهور، من فقهاء الصحابة، ولي إمرة الكوفة، وبها مات سنة ٥٠هـ وقيل بعدها.
انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٣٨٠). الإصابة (٢/٣٥١).

- ﷺ - عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله -صلى الله علية وسلم-:(( من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ))(١).

فلا بد من الإخلاص لله تعالى والرغبة فيما عنده حتى يقبل العمل ويثاب صاحبه عليه.

و التوجه إلى إصلاح القصد في غاية الأهمية ليس لكونه السبيل لنيل الثواب من الله -عز وجل- فحسب، بل لأنه يتضمن-مع ذلك - الدعوة للاستقامة على الخلق الفاضل والاستمرار عليه حتى مع فقد الجزاء والمكافأة ممن تمارس معه الفضيلة الخلقية، فالواصل لرحمه مثلاً إذا كان ينتظر مقابلة صلته بمثلها، فهذا يعني قعوده عن هذه الفضيلة إذا لم يجد من أولئك تفاعلاً مع فعله وتجاوباً مع صلته. بخلاف المتطلع إلى الآخرة فإنه ماض في صلته لقريبه وإن قطعه، والتفضل عليه وإن منعه (٢).

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري في كتاب الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا. ومسلم في الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

(٢) وهذا هو وحده المستحق لأن يوصف بهذه الفضيلة دون من سواه، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ (( ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها)). [رواه البخاري، في كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ].
قال الحافظ بن حجر: (( الناس ثلاث درجات: واصل ومكافئ وقاطع، فالواصل من يتفضل، ولا يتفضل عليه، والمكافئ الذي لا يزيد في الإعطاء على ما أخذ، والقاطع الذي يتفضل عليه ولا يتفضل. وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين، كذلك تقع المقاطعة من الجانبين، فمن بدأ فهو الواصل، فإن جُوزي سمي من جازاه مكافئاً )). فتح الباري (١٠/ ٤٢٤)، دار المعرفة ـ بيروت.

## ثالثاً: الأساس الإيماني:

إن الإيمان هوالأساس الأهم والركيزة الأعظم في البناء الخلقي.

وحقيقته: التصديق الجازم بأوامر الله ورسوله، والانقياد لها ظاهراً وباطناً.

أول مظهر من مظاهر أهمية الإيمان في البناء الخلقي أنه يرقى بالأخلاق إلى درجة الإلزام، ويجعلها مناطاً للثواب والعقاب، فالمؤمن يرى لزاماً عليه امتثال الأوامر والنواهي الخلقية.

ومن دلائل أهمية الإيمان أنه يبني في النفس الإنسانية المحبة والإجلال لله - عز وجل-، كما ينمي فيها بواعث الرغبة والرهبة، ليقين المؤمن أن الله معه حيث كان لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه سر ولا علانية ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1]. وليقينه أيضاً أن عمله مسجل ومحفوظ له كان أو عليه، وأنه محاسب عليه يوم القيامة ومجزي به ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[2]. ((وبهذا يصبح المؤمن ويمسي مراقباً لربه محاسباً لنفسه، متيقظاً لأمره متدبراً في عاقبته، لا يظلم ولا يخون، ولا يتطاول ولا يستكبر، ولا يجحد ما عليه، ولا يدعي ما ليس له، لا يفعل اليوم ما يخاف من حساب غداً، ولا يعمل في السر ما يستحي منه في العلانية))[3].

---

(١) سورة الملك، الآية (١٢).

(٢) سوره الأنبياء، الآية (٤٧).

(٣) د. يوسف القرضاوي: الإيمان والحياة ص ٢٣١، مؤسسة الرسالة - بيروت ص ٤، سنة ١٣٩٩هـ.

والإيمان يوجب محبة الفضيلة والخلقية والرغبة الأكيدة في الأخذ بها، لأن الأمر بها صادر عن الله العليم بخلقه، الحكيم في شرعه، ففي الخضوع له سلامة من الذل لغيرة أو العبودية لسواه. كما أن الخضوع له مقرون بالطمأنينة بسلامة الطريق وصحة المقصد.

والإيمان هو الذي يكمل الأساس الفطري، فمن خلاله يتحقق كمال إدراك الفضيلة والعلم بتفاصيلها، وثمراتها العاجلة والآجلة، « وبقدر كمال إدراك الحق النافع تكون إرادة المرء له، وبنقص إدراكه له تضعف إرادته له »[1].

كما أن الإيمان هو الذي يوجه المواهب الفطرية إلى الوجهة اللائقة الكريمة، فيسخرها لخدمة الحق ونشر الخير والعدل، وما لم توجه المواهب البشرية التوجيه الصحيح فإنها تعود وبالاً على أصحابها وعلى الإنسانية، فتتحول، الشجاعة فتكاً وهمجية، والجود تبذيراً وإسرافاً، والأنفة حمية جاهلية، والعقل وسيلة لابتكار الجنايات، والإبداع في إرضاء الشهوات[2].

والإيمان يقوم الأساس الحاجي، فلا يدع المرء ينساق مع دوافع حاجاته ولهيب شهواته، بل يسدد طريقه ويحدد غايته، فيجعل تحقيق العبودية غاية سعيه، والفوز برضاه -عز و جل- منتهى قصده، فتتهذب غرائزه وتستقيم حاجاته. يقول الماوردي[3] - رحمه الله- عن الدين: « إنه أقوى قاعدة في

---

(١) إغاثة اللهفان (١/١٧). وانظر: مدارج السالكين (٣/٣٠٦).

(٢) انظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٩٠.

(٣) هو علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن الماوردي، أقضى قضاة عصره، توفي سنة ٤٥٠ هـ.

انظر: شذرات الذهب (٣/٢٨٥). الأعلام ( ٤/٣٢٧).

صلاح الدنيا وسلامتها، ولذلك لم يخل تعالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف شرعي، واعتقاد ديني ينقادون لحكمه، فلا تختلف بهم الآراء، ويستسلمون لأمره فلا تتصرف بهم الأهواء ››[1].

وبالجملة فإن الإيمان وحده هو الذي يوجه الحاجات الإنسانية، ويضبط الدوافع الفطرية لتسير في ضوء الفضيلة.

وأخيراً فإن أصدق دليل على أثر الإيمان وأبلغه أنه رسم للإنسانية مثالاً رائعاً ونموذجاً فريداً تسود فيه أرقى معاني الأخوة، وأرفع درجات المحبة والمواساة، كما تدفقت فيه روح العطاء بمعانيه الواسعة ومدلولات الرحبة.

كما يتجلى في سيرة ذلك الجيل العظيم الذي عاصر الرسالة وتفيأ ظلالها، والذي رسم بأخلاقه وسلوكه أجمل صورة للفضيلة الخلقية عرفتها البشرية على امتداد تاريخها الطويل.

وليس هذا الجيل جيل الصحابة - رضى الله عنهم- هو النموذج الوحيد فحسب - وإن كان هو النموذج الأمثل- لأثر الإيمان في تقويم الفرد وإصلاح المجتمع، بل إن آثار الإيمان الخيرة لم تزل تتجدد وتتابع، فمن ذلك: ‹‹ ما ذكره التاريخ عن قبائل التتار وجحافلهم التي اكتسحت في غاراتها الوحشية كل أثر للحضارة الإنسانية، والتي أراقت من الدماء البشرية ما لم يصدقه خيال التاريخ، والتي ارتكبت من الفظائع والبشاعات ما يخجل التاريخ من حمل ثقله. هذه القبائل المتوحشة ما أن اهتدت بهداية الإسلام حتى أصبحت قوى من قوى

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ١٣٦.

الإنسانية الصالحة الهادية الرشيدة، يستظل بظلها العلماء والصالحون... وشاركت في إعادة بناء الحضارة))(1).

وبعد هذا كله، ومع هذه الأهمية البالغة للأساس الإيماني فقد أغفل مسكويه الحديث عنه، فعطل بهذا ركيزة رئيسة من ركائز البناء الخلقي، وأهمل عنصراً هو الأهم في البعث على الفضيلة الخلقية.

وأما ابن القيم - رحمه الله - فقد أكد أهمية الأساس الإيماني، وبين أن الفضيلة الخلقية موثوقة الصلة بالإيمان، قوية التأثر به، تقوى بقوته وتضعف بضعفه، وفي هذا يقول: (( الإيمان الحقيقي هو الذي يحمل صاحبه على فعل ما ينفعه، وترك ما يضره، فإذا لم يفعل هذا، و لم يترك هذا، لم يكن إيمانه على الحقيقة، و إنما معه من الإيمان بحسب ذلك ))(2). وهذا يعني أن الطريق الصحيح لحمل النفس على الفضيلة الخلقية، وترغيب الناس بها، هو في غرس الإيمان في النفوس، وتقويته في القلوب، لتكون الهمة في اكتساب الفضائل أشد، والسعي في تحصيلها أتم.

---

(١) محمد الصادق عرجون – الموسوعة في سماحة الإسلام( ٢٦/١) الدار السعودية – جدة ط٢ سنة ١٤٠٤هـ.

(٢) إغاثة اللهفان (١٣٧/٢).

# الفصل الثاني

# خصـــائص الأخـــلاق

# مدخل في تعريف الخصائص

الخصائص: جمع خصيصة، من خَص يَخُص خَصاً. وخصصه واختصه: أفرده به دون غيره. وتخصص له: إذا انفرد[1].

قال الجرجاني: الخصوص: أحدية كل شيء عن كل شيء بتعينه، فلكل شيء وحدة تخصه.

والخاص: عبارة عن التفرد، يُقال: فلان خُص بكذا، أي أفرد به، ولا شركة للغير فيه[2].

وسيكون الحديث في هذا الفصل عن خصائص الأخلاق التي تميزها، وتحدد معالمها ووجهتها. من خلال ما ذكره مسكويه وابن القيم. أما مسكويه فقد جاء حديثه عن الخصائص متأثراً بنظرته للأخلاق ومتسقاً معها باعتبارها فضائل إنسانية مدركة بالعقل.

وأما ابن القيم فإن نظرته للأخلاق موصلة بالإسلام وأوامره ونواهيه، ولذا فقد أبرز من الخصائص ما لم يشر إليه مسكويه.

ومما ينبغي التنبيه إليه في الحديث عن خصائص الأخلاق وجود شيء من تداخل بعض الخصائص ببعض، كما هو الحال في كل من خصيصتي الواقعية وموافقة الفطرة، ولذا فقد حرصت على الاقتصار في الأمثلة والشواهد على ما هو ألصق بكل خصيصة، وأدق في التعبير عنها.

كما أن خصيصة الواقعية هي في حقيقتها من اليسر في الأخلاق الذي يمكن من الأخذ بها، ويسهل العمل بمقتضاها، ولذا فقد جمعت الواقعية واليسر في خصيصة واحدة.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، والفيروزبادي: القاموس المحيط، كلاهما باب الصاد، فصل الخاء.

(٢) الجرجاني: التعريفات ص ١٣٣.

## المبحث الأول
## خصائص الأخلاق عند مسكويه

إن خصيصة الأخلاق الرئيسة التي يمكن الخروج بها من أراء مسكويه وتحليلاته هي :

**الوسطية**: فالأخلاق الفاضلة أوساط بين أطراف، وتلك الإطراف هي الرذائل[1]: «فالشجاعة وسط بين رذيلتين: إحداهما الجبن، والأخرى التهور. والسخاء وسط بين رذيلتين: إحداهما السرف والتبذير، والأخرى البخل التقتير»[2].

وهذا الوسط الذي يمثل الفضيلة هو واحد معين بين أوساط كثيرة بين الرذيلتين، يقول مسكويه: «لكل فضيلة طرفان محددان يمكن الإشارة إليهما وأوساط بينهما كثيرة لا نهاية لها، ولا يمكن الإشارة إليها، إلا أن الوسط الحقيقي هو واحد، وهو الذي سميناه فضيلة »[3].

وعند مسكويه: أن أي انحراف عن الوسط الفاضل بأحد الاتجاهين وقوع في الرذيلة، وبقدر الابتعاد عن الفضيلة يكون القرب من الرذيلة، ولذا فإن الوصول إلى الفضيلة والوقوف عند حدودها أمر شاق وعسير، وفي هذا يقول: « إذا انحرفت الفضيلة عن موضعها الخاص بها أدنى انحراف قربت من رذيلة أخرى و لم تسلم من العيب بحسب قربها من تلك التي تميل إليها، ولهذا صعب جداً وجود هذا الوسط، ثم التمسك به بعد وجوده أصعب »[4].

---

(١) انظر: تهذيب الأخلاق ص ٤٥، ١١٨.

(٢) المرجع السابق ص ٤٨.

(٣) المرجع السابق ص ١٦٤، وانظر: ١١٨.

(٤) المرجع السابق ص ٤٦.

والوسط في الفضيلة الخلقية وسط اعتباري يختلف باختلاف الأفراد والظروف المحيطة بهم، فما هو اعتدال بالنسبة لشخص قد لا يكون كذلك لشخص أخر. يقول مسكويه: (( الأطراف التي تسمى رذائل من الأفعال والأحوال والزمان وسائر الجهات كثيرة جداً. ولذلك دواعي الشر أكثر من دواعي الخير، ويجب أن يطلب أوساط تلك الأطراف بحسب إنسان إنسان))[1].

أما المعيار والميزان لمعرفة الوسط في الفضائل وتعيينه فهو العقل[2].

هذا وقد أشار مسكويه إلى خصائص أخرى للفضيلة الخلقية، منها:

- **الثبات**، فقال: ( الفضائل التي هي بذاتها فضائل ليست تكون في حال من الأحوال غير فضائل)[3]، وهذا يعني أن الفضيلة الخلقية واحدة في مختلف الأوقات والأحوال. فالسخاء فضيلة في حق الجميع وإن كان المقدار الذي يكون معه التوسط والاعتدال في هذه الفضيلة يختلف من فرد لآخر.
- **اليسر**، أوما يعبرعنه بالواقعية، والمتمثل في مراعاة أحوال الناس في معاملتهم، فلكل أحد معاملة تتناسب مع حاله ومكانته. يقول مسكويه: ((يجب [على المرء] أن يكرم الأب كرامة أبوية، ويكرم السلطان كرامة سلطانية، ويكرم الناس بعضهم بعضاً كرامة أخوية. ولكل مرتبة من هذه استئهال خاص واستحقاق واجب لها ))[4].

---

(١) تهذيب الأخلاق ص ٤٦.

(٢) يأتي - إن شاء الله- بيان هذا عند الحديث عن معيار الأخلاق.

(٣) تهذيب الأخلاق ص٤١.

(٤) المرجع السابق ص ١٢٣. وفي قوله: يكرم الناس بعضهم بعضاً كرامة أخوية، إطلاق فيه نظر فالأخوة إنما هي بين المؤمنين فحسب، وإن كان غير المؤمن لا يظلم، ويشرع الإحسان إليه بالجملة.

## المبحث الثاني
## خصائص الأخلاق عند ابن القيم

### أولاً: موافقة الفطرة:

تقـدم[1] مـا قرره ابن القيم من أن النفوس مجبولة على محبة الأخلاق الفاضلة واستحسانها، مما يعني توافقها مع فطرة الإنسان.

وهـناك جانـب آخـر تظهـر مـن خلالـه صـلة الأخـلاق الإسلامية بالفطرة وتـوافقها معهـا، ويتمـثل في مـراعاة الإسـلام لما في الإنسان من نزعات وغرائز ذات تـأثير علـى أخلاقه وسلوكه، حيث لم يأت الإسلام بمصادمة تلك الغرائز، أو يدعو إلى إلغائها وإزالتها، بل سعي في تهذيبها وتوجيهها الوجهة الصحيحة، يقـول ابـن القـيم عـن الإنسان: إنه " ما ابتلى بصفة من الصفات إلا وجعل لها مـصرفاً ومحـلاً يـنفذها فـيه، فجعل لقوة الحسد فيه مصرفا وهو المنافسة في فعل الخير، والغـبطة عليه، والمسابقة إليه، ولقوة الكبر مصرفاً وهو التكبر على أعداء الله تعالى إهانتهم، وقد قال النبي- ﷺ- لمن رآه يختال بين الصفين: { إنها لمشية يبغـضها الله إلا في هـذا المـوطن }[2]، وقد أمر الله سبحانه بالغلظة على أعدائه. وجعـل لقوة الحرص مصرفاً، وهو الحرص على ما ينفع، كما قال- عليه الصلاة والسلام-: { احرص على ما ينفعك}[3].

---

(١) عند الحديث عن أسس الأخلاق عند ابن القيم .

(٢) رواه الطبراني، انظر: الهيثمي: مجمع الزوائد (١٠٩/٦) قال: فيه مـن لم أعـرفه، دار الكتاب العربي – بيروت ط٣ ، سنة ١٣٩٦ هـ .

(٣) جزء من حديث رواه مسلم، كتاب القدر – باب الإيمان بالقدر والإذعان له.

ولمحبة الجاه مصرفاً وهو استعماله في تنفيذ أوامره وإقامة دينه، ونصر المظلوم وإغاثـة الملهوف وإعانة الضعيف وقمع أعداء الله ... وجعل لقوة اللعب واللهو مصروفاً وهو لهوه مع امرأته، أو بقوسه وسهمه، أو تأديبه فرسه، وكل ما أعان على الحق.

وهكـذا جميع القـوى الـتي ركبت فيه جعل لها مصرفاً، وقد ركبها الله فيه لمـصالح اقتـضتها حكمـته، ولا يطلب تعطيلها، وإنما تصرف مجاريها من محل إلى محل ومن موضع إلى موضع »[1].

**ثانياً : الواقعية واليسر :**

من خصائص الأخلاق الإسلامية التي تيسر الأخذ بها وتمنحها القبول لدى الناس ما فيها من اليسر والسهولة والواقعية. ولهذا الخصيصة شواهد كثيرة منها: معاملـة الـناس بمـا يتناسـب مـع أقـدارهم ومنازلهم، ذلك أن الناس متفاوتون في ذواتهـم، وفي درجـة صـلتهم بالإنـسان، ولذا يشرع معاملتهم بما يليق بهم على اخـتلاف مـراتبهم « فمـع الـوالدين أدب خاص، وللأب منهما أدب هو أخص به، ومع العالم أدب آخر، ومع السلطان أدب يليق به، وله مع الأقران أدب يليق بهـم، ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه، ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته »[2].

ويفـصل ابـن القـيم- رحمـه الله- القول في الأدب مع السلطان مبيناً اتفاق العقـل والـشرع على لـزوم رعايـة حقه، وحسن الأدب معه، فيقول: « مخاطبة

---

(1) التبيان في أقسام القرآن ص ٢٦٣-٢٦٤.

(2) مدارج السالكين (٢/٣٩٠).

الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعاً وعقلاً وعرفاً، لذا تجد الناس كالمفطورين عليه وهكذا كان النبي- ﷺ- يخاطب رؤساء العشائر والقبائل»[1].

ومن الشواهد المهمة على رعاية الشريعة لأحوال الناس ومنازلهم ومعاملتهم بحسب ذلك، ما جاء في قوله -عليه الصلاة والسلام-: « أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود »[2]. قال ابن القيم: « .. هم ذوو الأقدار بين الناس من الجاه والشرف والسؤدد. فإن الله تعالى خصهم بنوع تكريم وتفضيل على بني جنسهم، فمن كان منهم مستوراً مشهوراً بالخير حتى كبا[3] به جواده ... فلا تسارع إلى تأديبه وعقوبته، بل تُقال عثرته ما لم يكن حداً من حدود الله، فإنه يتعين استيفاؤه من الشريف كما يتعين أخذه من الوضيع – قال- وهذا باب عظيم من أبواب محاسن هذه الشريعة الكاملة وسياستها للعالم، وانتظامها لمصالح العباد في المعاش والمعاد»[4].

من مظاهر اليسر في الأخلاق الإسلامية أيضاً، أن الشريعة جاءت في باب المعاملة بتحريم الظلم وإيجاب العدل- لمن حرص على استيفاء حقه- والندب

---

(١) بدائع الفوائد ( ١٣٢/٣) وذكر لهذا شواهد، منها خطاب موسى- عليه السلام – لفرعون وما أمره الله به من الملاطفة واللين، وخطاب إبراهيم- عليه السلام – لأبيه وما فيه من الملاطفة ..

(٢) رواه أحمد، في كتاب الحدود، باب الحث على إقامة الحد والنهي عن الشفاعة فيه. وأبو داود في كتاب الحدود أيضاً، باب الستر على أهل الحدود. والحديث صححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير (٣٨٢/١).

(٣) كبا: أي عثر، والمراد أتى بما يستحق عليه الذم، انظر: المعجم الوسيط ص٧٧٤.

(٤) بدائع الفوائد (١٣٩/٣).

إلى الفضل[1]، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾[3]. ولو كان بذل الفضل واجباً لشق على كثير من النفوس بذله[4]، ولذا صار مجالاً لتحصيل الأجر، وميداناً للتنافس في الخير.

وبعد هذا كله فإن يسر الأخلاق الإسلامية وواقعيتها لا يعني عدم الحاجة إلى بذل الجهد لتحصيلها والاتصاف بها، بل الأمر كما يقول ابن القيم :« إن المصالح والخيرات واللذات والكمالات كلها لا تنال إلا بحظ من المشقة، ولا يعبر إليها إلا على جسر من التعب »[5]، ولكنها مشقة ليست خارجة عن المعتاد، بل هي معتادة وفي حدود طاقة الإنسان وقدرته.

**ثالثاً الشمول :**

يتجلى الشمول في الأخلاق الإسلامية عند ابن القيم في صور شتى:

- منها سعة مجال الخلق بحيث يشمل صلات الإنسان المختلفة مع ربه، ومع نفسه، ومع الخلق، كما تقدم بيان ذلك[6].

---

(١) مدارج السالكين ( ٢/٢٩٦,٤٥٨-٤٥٩).

(٢) سورة الشورى الآية [ ٤٠].

(٣) سورة النحل الآية [ ١٢٦].

(٤) انظر: مدارج السالكين (٢/٢٩٥).

(٥) مفتاح دار السعادة (٢/١٥).

(٦) في الفصل الأول، من الباب الأول، عند الحديث عن مجال الأخلاق عند ابن القيم.

- ومن مظاهر الشمول في الأخلاق عند ابن القيم، تنوع مجالات البذل والإحسان بحيث تسع الجميع على اختلاف طاقاتهم وقدراتهم، يؤكد هذا عند حديثه عن خلق الجود، فيذكر أن له عشر مراتب، منها: الجود بالنفس، وهو أعلاها، ومنها الجود بالرياسة، ومنها جود الإنسان براحته ورفاهيته تعباً وكداً في مصلحة غيره، ومنها الجود بالعلم، ومنها الجود بالجاه، ومنها الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه، ومنها الجود بالعرض والعفو عن شتم الناس وقذفهم، ومنها الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ﴾[1]. ومنها الجود بالخلق والبشر والبسطة ... ويختمها بالجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم، فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله ولا لسانه[2].

والمتأمل في هذه المراتب يرى أنها شملت جميع الناس على اختلاف استعداداتهم وقدراتهم، فكل أحد قادر على أن يمارس لوناً من الألوان الجود، مما يقدر عليه أو ينشط له، مما يمنحه الثقة بنفسه، ويوطنه على الصلة النافعة بمن حوله.

وليس هذا في خلق الجود فحسب، بل هو سمة الشريعة بأحكامها وآدابها وتوجيهاتها، ففيها التنوع والشمول بما يتوافق مع قدرات الناس واستعداداتهم، يقول ابن القيم: « إن الله تعالى جعل لرحمته حكمته طرق مرضاته .. متنوعة جداً لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم، ولو جعلها نوعاً واحداً مع اختلاف

---

(١) سورة المائدة الآية [ ٤٥] .

(٢) انظر: مدارج السالكين ( ٢/٢٩٣-٢٩٦ ).

الأذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها لا واحد بعد واحد، ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوعت الطرق ليسلك كل امرىء إلى ربه طريقاً يقتضيها استعداده وقوته وقبوله »[1].

**رابعاً : الثبات :**

يؤكد ابن القيم خصيصة الثبات في الأخلاق، فالصدق لا يقبح أبدا[2]، والكذب لا يكون قط إلا قبيحاً[3]. والأصل في هذه الخصيصة هو أن الأفعال لها صفات ذاتية حسنة وقبيحة، أي أنها منشأة في أصلها للمصلحة والمفسدة ومقتضية لها[4].

وإذا كانت الشريعة قد جاءت بإباحة الكذب في بعض المواضع، كما قال-عليه الصلاة والسلام-: « لا يصلح الكذب إلا في ثلاث: يحدث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس »[5]. فهل يبقى الكذب قبيحاً حتى في هذه المواضع التي رخص فيها النبي- ﷺ- بالكذب، أم يزول عنه وصف القبح ؟

يجيب العلامة ابن القيم- رحمه الله- عن هذا بجوابين:

**أحدهما**: أن القبح يتخلف عنه في هذه الصور ونحوها، لوجود المعارض الراجح، وهي المفسدة الناشئة من الإخبار بالواقع [6]. وهذا لا يمنع كون الكذب قبيحاً لذاته؛ لأن الأوصاف الذاتية المقتضية لأحكامها قد تتخلف عنها

---

(١) طريق الهجرتين ص ٢٢٥.

(٢) مفتاح دار السعادة ( ٢/٦٩) .

(٣) المرجع السابق ( ٢/٣٦) .

(٤) المرجع السابق ( ٢/٢٨) .

(٥) رواه الترمذي في أبواب البر والصلة ، باب ما جاء في إصلاح ذات البين .انظر: الألباني، صحيح الجامع الصغير ( ٦/٢٣٨)

(٦) انظر: مفتاح دار السعادة ( ٢/٩٦،٣٧) .

لفوات شرط أو قيام مانع، ولا يوجب ذلك سلب اقتضائها لأحكامها عند عدم المانع وقيام الشرط[1]، كتخلف الشبع والري عن الخبز واللحم والماء في حق المريض ومن به علة تمنعه من قبول الغذاء، فهذا لا يخرجها عن كونها مقتضية لذلك لذاتها[2].

**الثاني:** أن وصف القبح باق ولا يحسن الكذب حتى في هذه المواضع ونحوها، إنما يحسن التعريض والتورية [3]، كما وردت به السنة النبوية[4]. وهو ما يميل إليه ابن القيم[5].

---

(١) المرجع السابق (٣/٦٤).

(٢) المرجع السابق (٢/٣٦).

(٣) التعريض : خلاف التصريح في القول .

انظر: القاموس المحيط باب الضاد فصل العين. والنهاية في غريب الحديث ( ٣/٢٠٢).

والتورية: قال أبن الأثير: في ورى الشيء: أي ستره وكنى عنه، وأوهم أنه يريد غيره.

انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/١٧٧).

وقال الحافظ ابن حجر: التورية أن يذكر لفظاً يحتمل معنيين، أحدهما أقرب من الآخر، فيوهم إرادة القريب وهو يريد البعيد.

انظر: فتح الباري (٨/١٧٧) .

(٤) انظر: شاهداً لذلك في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، فيه: ولم يكن رسول الله – ﷺ– يريدغزوة إلا ورى بغيرها.

أما التعريض فدليله ما يروى عن النبي– ﷺ– أنه قال: (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب) رواه بن عدي في الكامل، والبيهقي في السنن.

انظر: الألباني، ضعيف الجامع الصغير وزيادته (٢/١٦٧) .

(٥) انظر: مفتاح دار السعادة ( ٢/ ٩٦ ) .

وهـذا يتـضمن تأكـيداً مـن ابن القيم على ثبات الأخلاق في الإسلام، وأن الرخصة في بعض الأخلاق السيئة في أصلها لم تسلبها صفة القبح، وإنما أبيحت للمصلحة الراجحة.

**خامساً : الوسطية :ـ**

يقرر ابن القيم أن الأخلاق الفاضلة كلها وسط بيت طرفي إفراط وتفريط. فكـل خلـق محمود مكتنف بخلقين ذميمين وهو الوسـط بينهما [1]. (( فالجود له حـد بـين طـرفين، فمـتي جاوز حده صار إسرافاً وتبذيراً، ومتى نقص عنه كان بخـلاً وتقـتيراً. وللـشجاعة حـد، متـى جاوزته صارت تهوراً، ومتى نقصت عنه صارت جبناً وخوراً ))[2].

والـنفس متـى انحـرفت عـن ( التوسط ) انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين ولابـد، فـإذا انحرفت عن خلق ( التواضع) انحرفت: إما إلى كبر وعلو، وإما إلى ذل ومهانة وحقارة.

وإذا انحرفت عن خلق ( الحياء) انحرفت إما إلى قِحةَ وجرأة، وإما إلى عجز وخور ومهانة.

وإذا انحـرفت عـن خلـق ( الـصبر المحمـود) انحـرفت: إمـا إلى جـزع وهلـع وجشع وتسخط، وإما إلى غلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجر طبع.

وإذا انحـرفت عـن خلـق ( الحلـم) انحـرفت: إما إلى الطيش والترف والحدة والخفة، وإما إلى الذل والمهانة والحقارة.

---

(١) مدارج السالكين(٢/٣١٠). وانظر: روضة المحبين، دار الكتاب العربي– بيروت ط٢سنة ١٤٠٧ هـ.

(٢) الفوئد ص١٤٠.

وإذا انحرفت عن خلق( القناعة) انحرفت: إما إلى حرص وكَلَب، وإما إلى خِسة ومهانة وإضاعة[1]...

وللتوسط المحمود في الأخلاق عند ابن القيم ضابط، وهو العدل[2]، الذي يتضمن إعطاء كل ذي حق حقه دون إفراط أو تفريط.

وقد جاء بيانه لهذا عند حديثه عن منزلة الأدب من منازل السائر، قال: ((الأدب هو اجتماع خصال الخير في العبد ...

وهو ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه، وأدب مع رسوله - ﷺ - وشرعه، أدب مع خلقه ))[3].

وحد الأدب: الوقوف في الوسط بين طرفي الغلو والجفاء ... ومثال ذلك في حقوق الخلق: أن لا يفرط في القيام بحقوقهم، ولا يستغرق فيها بحيث يشتغل بها عن حقوق الله، أوعن تكميلها، أوعن مصلحة دينه وقلبه، وأن لا يجفو عنها حتى يعطلها بالكلية. فإن الطرفين من العدوان الضار. وعلى هذا الحد، فحقيقة الأدب: هي العدل[4].

والمعيار التام لمعرفة الوسط المحمود هو الوحي: (( لأن الرسل هم الذين بينوا الفضائل ومتعلقاتها وحدودها، فذكروا العفة وعن ماذا تكون ومقدارها

---

(١) مدارج السالكين ( ٢/٣١٠-٣١١).

(٢) الفوائد ص ١٤١.

(٣) مدارج السالكين ( ٢/٣٧٥-٣٧٦ ).

(٤) المرجع السابق (٢/٣٩٢-٣٩٣).

الـذي إذا تجـاوزه العبد وقع في الفجور، وكذلك الحلم والشجاعة .. بينوا ذلك غاية البيان، وفصلوه أحسن تفصيل))[1].

ومـع هـذا البيان وهذا التفصيل من الرسل - عليهم الصلاة والسلام- فإنه عـند الممارسـة والتطبـيق قـد يـشق علـى الإنـسان الوقـوف عـند حـد التوسـط والاعـتدال، ولا سـيما في الحقـوق الواجـبة للمسلمين بعضهم على بعض، ولذا فـإن الـسبيل للـسلامة من تضييع الحقوق والوقوع في الظلم يكون ببذل الفضل الذي يتحقق معه القيام بالواجب، والنجاة من التبعة والمؤاخذة، يقول ابن القيم: ((مـن لم يـبذل فوق العدل لم يمكنه الوقوف مع حده، فإن ذلك عسر جداً، بل لا بد من مجاوزته إلى الفضل، والتقصير عنه إلى الظلم ))[2].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٢١/٢) ويأتي إن شاء الله زيادة بيان لهذه المسألة عند الحديث عن معيار الأخلاق.

(٢) طريق الهجرتين ص ٣٨٩.

# المبحث الثالث
# الدراسة والتقويم

مما تقدم من عرض لخصائص الأخلاق عند مسكويه وابن القيم يمكن القول:

إنهما اتفقا على بعد الخصائص التي تمتاز بها الفضيلة الخلقية، وإن اختلفا في تفاصيلها، ومظاهر وجودها في الأخلاق.

كما يمكن ملاحظة أن ابن القيم قد أضاف خصائص لم يذكرها مسكويه. وأما تفاصيل هذه الجملة فيتبين من خلال دراسة ما ذكراه من خصائص للأخلاق وتحليلها على النحو الآتي:

**أولاً: الوسطية:**

أن مما يتعين القول به إن التوسط والاعتدال من المعايير التي يتوصل بها إلى معرفة القدر المحمود من الفضيلة الخلقية. يدل على هذا ما جاء في القرآن الكريم من التوجيه على التوسط والاعتدال، والثناء على من لزم ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[2]. وهذا التوسط والاعتدال المحمود إنما هو في الأفعال التي لها في واقع الأمر طرفان مذمومان، وبالتالي يتعين الأخذ بالوسط الفاضل بينهما.

ولكن هل كل الفضائل لها طرفان مذمومان كما قرر ذلك مسكويه وابن القيم؟

---

(١) سورة الإسراء الآية [٢٩] .

(٢) سورة الفرقان الآية [ ٦٧] .

الواقع أن الأمر ليس كذلك، فليست كل الفضائل أوساطاً بين أطراف مذمومة. فالصدق مثلاً ليس له هذان الطرفان المذمومان، بل له ضد واحد وهو الكذب، لأن الكلام إما أن يكون مطابقاً للواقع فيكون صدقاً، وإما أن يكون بخلاف ذلك فيكون كذباً [1]، وليس له غير هاتين الحالتين،فأين الوسطية فيه ؟

وكذا الإيثار وهو (( تخصيص الغير بما تريده لنفسك ))[2] فإنه أحد طرفي العدل، كما قرر ذلك ابن القيم نفسه، حيث ذكر أن الأخلاق (( ثلاثة: خلق الإيثار، وهو خلق الفضل، وخلق القسمة والتسوية وهو خلق العدل، وخلق الظلم ))[3].

وعلى هذا فإن التأكيد على مبدأ الوسطية وجعلها صفة ثابتة لكل فضيلة خلقية أمر غير دقيق وغير مسلم، بل لعله لا يستقيم في عدد من الفضائل.

ولقد بالغ مسكويه في تقرير مبدأ الوسطية، حتى جعل الفضيلة نقطة واحدة معينة بين الرذيلتين، وأي انحراف عنها ولو قل موقع في الرذيلة[4]. وتصوير الفضيلة المحمودة بهذه الصورة أضفى على الفضيلة صفة العسر والغموض، وسلبها مزية اليسر والسهولة. ولقد تعذر على مسكويه تطبيق هذا

---

(١) قال ابن فارس: (الصدق بخلاف الكذب ) مجمل اللغة، مادة (صدق )، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١سنة ١٤٧٠٤هـ. وفي لسان العرب مادة (صدق ) (( الصدق نقيض الكذب )). وقال الجرجاني: ( الصدق: ضد الكذب، وهو الإبانة عما يخبر به على ما كان )) التعريفات ص ١٧٣.

(٢) طريق الهجرتين (٢/٣٨٨).

(٣) طريق الهجرتين (٢/٣٨٦). وانظر: التعريفات ص ٦٤، والمعجم الفلسفي ص ٢٨.

(٤) انظر: تهذيب الأخلاق ص ١٦٤.

الأمـر، وخالفـه -مـن حيـث يشعر أولا يشعر- في أثناء تحليله للفضائل، و فهو يذكر مثلاً فضيلة السخاء ويدخل تحتها الكرم والإيثار والمواساة والسماحة[١].

ويعـرف الكـرم بأنه إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر الكثيرة النفع[٢]. وظاهر كلامه أن هذا المنفق على كثرته زائد على حاجة الإنسان، ومصروف في مجالاته المثمرة والنافعة.

وبمقتضى تحليله للوسطية فإنه إذا زاد عن هذا القدر وقع في رذيلة الإسراف والتبذير، ولكنه بعد هذا مباشرة يذكر الإيثار فيقول عنه: إنه ((فضيلة بها يكف الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصه حتى يبذله لمن يستحقه))[٣]، أي أن الإيثار درجة أرفع في سلم السخاء. ومعنى هذا أن زيادة الإنسان في الكرم لم توقعه - بحسب تحليل مسكويه - في الرذيلة، بل أدت به إلى فضيلة أعلى وأرفع، مما يوقع الشك في مبدأ الوسطية بالصورة التي ارتضاها مسكويه.

وثـم أمـر أخر عند مسكويه وهـو قوله باختلاف الوسط الفاضل باختلاف الناس[٤]. وهذا القول ليس على إطلاقه؛ لأن من الفضائل ما هو مرتبط بأحوال الإنسان وقدراته، ومنها ما لا صلة له بذلك.

---

(١) تهـذيب الأخلاق ص ٤٣. وكون هذه الأخلاق داخلة تحت فضيلة السخاء لا يعني أنها درجـات فيه، لأنه ذكر لفضيلة الحكمة فضائل تندرج تحتها وبين معانيها، ونص على أن كل فضيلة منها هي وسط بين رذيلتين. انظر: تهذيب الأخلاق ص ٤٦-٤٧.

(٢) تهذيب الأخلاق ص ٤٣.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٤) انظر: ما تقدم ص ٢٠٤.

فمن الفضائل الوثيقة الصلة بالإنسان وقدراته الإنفاق في طرقه الواجبة والمستحبة، فإن من القواعد المقررة أن الواجب في الإنفاق هو في حدود طاقة الإنسان ووسعه، كما قال الله تعالى مبيناً ما يجب للزوجة من النفقة: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ ﴾ (١). قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العرف هو المحدد لمقدار الواجب في نفقة الزوج على زوجته عند جمهور العلماء، وهذا مختلف باختلاف أحوال البلاد والأزمنة وحال الزوجين»(٢).

أما الفضائل التي لا صلة لها بذلك، فمنها الصدق، والوفاء بالوعد، والأمانة ... فهذه لا تختلف باختلاف الناس، بل هي فضيلة بدرجة واحة مع كل أحد.

وأما عن صلة العدل بالتوسط، فإن العدل ضابط لابد من مراعاته للوصول إلى الوسط المحمود - كما قرر ذلك ابن القيم- لأن التوسط الفاضل ليس وسطاً رياضياً، بل هو إضافي المقصود منه الوقوف مع الحق والعدل دون إفراط أو تفريط، وهذا هو مدلول هذه اللفظة في اللغة(٣)، وهو ما ينبغي الأخذ به في الاستعمال، لأن التوسط المطلق بين الشيئين يتضمن- في كثير من الأحيان- التسوية بين مختلفين، مما يعني التقصير في أحد الطرفين ومجاوزة الحد في الآخر، وهذا في واقع الأمر ظلم لا يسوغ الأخذ به، ولا يمكن اعتباره فضيلة بحال من الأحوال.

---

(١) سورة الطلاق الآية [ ٧].

(٢) مجموع الفتاوى (٣٤/٨٣).

(٣) انظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مادة (وسط)، ابن منظور: لسان العرب، مادة (وسط ).

وعلى هذا فإنه يمكن القول إن التوسط المحمود هو ما يلحظ فيه تحقيق العدل، أو هو الوقوف مع العدل بين طرفين مذمومين.

وأخيراً فإن ابن القيم وهو يدعو إلى البذل فوق حد العدل يدرك- بدلالة نصوص الشريعة- [1] ما جبلت عليه النفوس من الضعف والظلم والحرص الذي يدفعها في كثير من الأحيان إلى التقصير في أداء ما عليها، أو أخذ ما ليس لها، ولا سبيل إلى نجاة النفوس من ذلك إلا بتعويدها البذل الذي يتجاوز حد العدل إلى التفضل، والمكافأة بالمثل إلى البر والصلة والإحسان، والذي يتحقق معه اليقين بأداء الواجب.

ومما يؤكد أهمية البذل والتفضل في الحياة الاجتماعية ما يلمس من أثره في غرس المحبة في القلوب، وتحقيق التآلف والمودة بين الناس. أما العدل فإن النفوس وإن رضيت به فليس من شأنه أن يبعث على المحبة، أو يوجب الألفة بين المتعاملين بتلك الدرجة أو قريباً منها.

**ثانياً : الواقعية واليسر :**

تطلق الواقعية في الفلسفة ويراد بها: رؤية الأشياء كما هي عليه في الواقع، والتعامل معها بما يناسبها.

---

(١) كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[ سورة إبراهيم، الآية ٣٤]، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [ سورة الأحزاب ، الآية ٧٢ ].
قال ابن القيم: الإنسان خلق في الأصل ظلوماً جهولاً، ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه ويلهمه رشده.
انظر: إغاثة اللهفان (٢/١٣٦-١٣٧).

ومـن معانـيها أيضاً: الإحساس بالواقع والتقيد به، والنظر إليه على أنه المثل الأعلى والغاية والأسمى [١].

وتـتجه الفلسفة الوضعية [٢] في دراستها للأخلاق اتجاها واقعياً بهذا المعنى، حـيث تكتفي تفسير الواقع والكشف عنه والتقيد به، منطلقة في هذا من نظرتها للأخـلاق ومثلها العليا حيث تعتبرها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التي يولدها الاجتماع البشري، ومن شأنها أن تفرض نفسها على الأفراد فتؤثر فيهم وتوجه سلوكهم دون أن تتأثر بهم[٣].

ولكـن ثمـة نظـرة أخـرى للواقعـية - وهـي المرادة هنا- ومضمونها مراعاة الفطـرة الإنـسانية وقـدراتها ومواهبها. وملاحظة ما يحيط بالإنسان من ظروف وأوضـاع وملابسات [٤]. والواقعية بهذا المعنى شرط مهم في أي تشريع يراد له الـسمو بالإنـسان واستثمار طاقاتـه وتوجيهه إلى سبيل الخير وطريق الاستقامة. ذلـك أن طبـيعة الإنـسان تقتضي تقلبه في أحوال مختلفة من قوة وضعف وقدرة

---

(١) انظر: مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي ص ٢١٠. جميل صليبا: المعجم الفلسفي ( ٥٥٢/٢).

(٢) الوضعية: مذهب فلسفي يرى أن الفكر الإنساني لا يدرك سوى الظواهر الواقعية والمحسوسة وما بينهما من علاقات أو قوانين، ومن أشهر القائلين بها أوجست كونت. انظر: المعجم الفلسفي ص ٢١٤.

(٣) انظر: د.توفيق الطويل: الفلسفة الخلقية ص ٢٦٨-٢٧٨. أسس الفلسفة ص ٣٧٢.

(٤) انظر: سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ص ٢١٣، دار الشروق – بيروت، ط ٨، سنة ١٤٠٣هـ. يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام ص ١٦٥-١٦٨، مؤسسة الرسالة – ط٣، سنة ١٣٩٨هـ. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أسس الحضارة الإسلامية ص ١٧٥ – ١٧٦. دار القلم – دمشق ط٢ سنة ١٤٠٠ هـ.

وعجز... والتشريع الأكمل هو الذي يراعي أحوال الإنسان المختلفة، فلا يفرض عليه طريقاً لا يتجاوزه، أو منهجاً في السلوك لا يحيد عنه، بل يشرع له من التكاليف والواجبات ما يناسب تلك الأحوال ليبقى الإنسان موصولاً بالفضيلة، إن لم يكن على الوجه الأتم ففيما يمكنه إدراكه منها.

والتشريعات الخلقية في الإسلام جاءت متوافقة مع طبيعة الإنسان، ملاحظة ما يتقلب فيه من أحوال وما يحيط به من ظروف وأوضاع. ولذا فهي وحدها التي تملك أن تصل بالإنسان إلى أرفع مستوى وأكمل وضع يبلغ إليه الإنسان في أي زمان وفي أي مكان [1].

وشواهد الواقعية في الأخلاق الإسلامية كثيرة، فمن ذلك أن الإسلام يحرم محبة الكافرين وموالاتهم، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾[3]، ولكنه أباح الإحسان إليهم، والبر بهم- ما لم يكونوا محاربين لنا -ولاسيما الأقارب منهم وبالأخص الوالدين-، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[4]، في

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق ص ٢٠٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية [ ٢٨ ].

(٣) سورة النساء، الآية [ ١٤٤ ].

(٤) سورة الممتحنة، الآية[ ٨ ].

الحديث الصحيح أن أسماء بنت أبي بكر[1] استأذنت النبي- ﷺ - أن تصل أمها وكانت مشركة، فأذن لها وقال: (( نعم صلي أمك ))[2]، وفي هذا رعاية لعاطفة الأولاد تجاه والديهم، والتيسير بالتعبير عنها بما لا يقدح في إيمان المرء أو يوهن من ولائه لإخوانه المؤمنين. مع ما في هذا من ترسيخ لبواعث البذل والإحسان في النفس، ومصلحة تأليف القلوب وترغيبها في الخير، وحضها على الاستجابة للدعوة والدخول في الدين.

ومن صور الواقعية واليسر في أوامر الإسلام الخلقية، أن الإسلام حث على الجهاد ورغب فيه، وجعل الثبات من أهم عناصر النصر فيه، كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3] ونهى عن الفرار ورتب العقوبة البليغة عليه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[4]. ولكن الإسلام في الوقت نفسه راعى طاقات الإنسان وقدراته واستعداداته، ولذا لم يكن الأمر بالثبات والنهي عن الفرار دائماً مهما كان الأمر وأياً كانت النتيجة، بل الأمر به قائماً مادام يرجى منه ثمرته، ويؤمل فيه أن يكون عاملاً من عوامل

---

(١) أسماء بنت أبي بكر الصديق، زوج الزبير بن العوام، من كبار الصحابة، عاشت مائة سنة، وماتت سنة ثلاث – أو أربع – وسبعين.
انظر: أسد الغابة (٦/ ٩). تقريب التهذيب ٧٤٣.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب صلة المرأة أمها ولها زوج.

(٣) سورة الأنفال، الآية [ ٤٥] .

(٤) سورة الأنفال، الآية [ ١٦] .

النصر، أما إذا كان الثبات يمثل- في الغالب - استسلاماً للعدو وتمكيناً له من رقاب المسلمين، فإن الأمر به ينتهي وتأتى الرخصة في إباحة ترك الميدان والانحياز إلى جماعة المسلمين لإعادة البناء وتحصيل أسباب القوة والمنعة، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [1]. قال ابن عباس: إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم يسغ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم وجاز لهم أن يتحرزوا عنهم[2].

ومن شواهد الواقعية في الأخلاق الإسلامية مراعاتها لما يحيط بالإنسان من ظروف وأوضاع قد تكون حائلاً بينه وبين فعل ما ينبغي له فعله، فمن ذلك - مثلاً -: أنه قد تمس الحاجة في أثناء سعي المرء إلى تحصيل فضيلة من الفضائل المهمة إلى مقاربة شيء من الرذيلة، أو التغاضي عن وجودها. ففي مثل هذه الحالة هل تهمل الفضيلة من أجل عدم مقاربة تلك الرذيلة ؟

إن قواعد الشريعة دالة على أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها ودرء المفاسد وتقليلها، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما[3]. وإذا فرض تلازم بين فضيلة ورذيلة ولا يمكن التفريق بينهما بل فعل الفضيلة مستلزم لوقوع الرذيلة، وترك الرذيلة مستلزم

---

(١) سورة الأنفال، الآية [٦٦].

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٤٤/٨). ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٣٢٤/٢).

(٣) انظر:ابن تيمية: الفتاوى (٤٨/٢٠).

لترك الفضيلة. فينبغي تحصيل الفضيلة الراجحة واحتمال الرذيلة المرجوحة؛ لأن ما يحصل بهذا من تكميل للمصالح أعظم مما يقع من زيادة في المفاسد [١].

وهذا يعني أن عدم إدراك الفضيلة بتمامها، أو إدراكها غير سالمة من معارض لها لا يعني تعطيلها وإهمالها، بل يُحصّل منها ما أمكن مادام راجحاً على ضده. وبهذا تستمر الممارسات الخلقية الفاضلة وتزداد، ويكثر الخير في الأفراد والمجتمعات.

وأخيراً فإن أبرز دليل على يسر الأخلاق الإسلامية وواقعيتها - ما أشار إليه ابن القيم- من إباحة مقابلة السيئة بمثلها ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾[٢] في عدل تسكن به النفوس وتطمئن به الضمائر. ثم جاء بعد ذلك الحث والترغيب في الصبر على الأذى والمغفرة للمسيء، ليكون الباب مفتوحاً لمن أراد التدرج في مراتب الكمال والصعود في سلم الفضائل ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣]. فجاءت هذه التشريعات متوافقة مع ما فطر عليه الأفراد من الاختلاف في استعداداتهم ونفسياتهم.

وإذا كان مسكويه وابن القيم قد أشارا جميعاً إلى هذه الخصيصة فإن ابن القيم كان أكثر إبرازاً لها، وأوسع بياناً لمجالاتها وصورها. ولعل السبب الرئيس لذلك هو عنايته الظاهرة بالكتاب والسنة، وحرصه على الاستنباط منهما، وبيان ما فيهما من الحكم البالغة والمعاني العظيمة.

---

(١) انظر: المرجع السابق (٢٠/٥٧-٥٨). وابن تيمية: الحسبة ص٦٥-٦٦، دار الكتاب العربي.

(٢) سورة الشورى، الآية [٤٠].

(٣) سورة الشورى، الآية [٤٠].

## ثالثاً: الثبـات:

إن المقصود بالثبات في الأخلاق هو استمرار الفضيلة الخلقية مستحسنة، والتسليم بها مثالاً للسلوك المحمود. فالصدق في المعاملة، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد.. كلها فضائل خلقية ثابتة مستقرة ومحمودة في كل زمان ومع كل أحد لما لها من الآثار الخيرة والثمار الكريمة.

والأصل في هذه الخصيصة هو- كما قال ابن القيم- أن الأفعال لها صفات ذاتية حسنة وقبيحة، أي أنها منشئة للمصلحة والمفسدة ومقتضية لها بذاتها. ولذا فهي سالمة من التقلب والاختلاف بحسب الأهواء والمصالح الذاتية.

وخصيصة الثبات في الأخلاق من أبرز الخصائص وأهمها؛ لأن القول بثبات الأخلاق يجعل طريق الإنسان واضحاً لا لبس فيه، مستقيماً لا عوج فيه. كما أنه يعني أن هناك مثلاً عليا وأخلاقاً رفيعة ينبغي أن ينطلق إليها الفرد ويسمو إليها المجتمع. وهو بعد هذا يضمن وجود مبادئ مستقرة يحكم بها على سلوك الأفراد ومواقف المجتمعات، فيفرق بها بين المخطئ والمصيب والمحق والمبطل. وبغياب هذه الخصيصة يرتد المعيار للحكم على الأفعال بالحسن والقبح إلى اللذة والمنفعة... وإلى الأهواء والرغبات والمصالح العاجلة مما يعني عدم استقرار الفضيلة الخلقية، فما هو خير اليوم قد يكون شراً في الغد، وما هو حسن عند فرد قد يكون سيئاً عند آخر.. وبفقد المعايير الخلقية الثابتة يفقد الناس كل باعث على الارتقاء بأخلاقهم والسمو بأنفسهم، وتسود المجتمعات الفـ ى ويتسلط الأقوياء على الضعفاء.

وإذا كانت الشريعة - كما تقدم- قد جاءت بالإذن بالكذب في بعض المواضع، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: « لا يصلح الكذب إلا في ثلاث:

يحدث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس»[1].

فإن هذا لا يقدح بالقول بثبات الفضائل الخلقية في الإسلام؛ لأن هذه المواضع التي يسوغ فيها الكذب[2] مواضع مضبوطة حيث المصلحة فيها راجحة وظاهرة، من اليسير إدراكها بالعقول السليمة والفطر المستقيمة، وهذا شرط مهم فيها.

وثم أمر آخر، وهو أن المواضع التي أذن بالكذب فيها لا يمكن أن تكون بحال من الأحوال مساوية في بواعثها وآثارها وثمراتها للمواضع التي يُنهى عن الكذب فيها، بخلاف الحال في الأخلاق الوضعية، حيث يكون الفعل المعين بحدوده وضوابطه وثمراته سائغاً في مقام ومرذولاً ومذموماً في مقام آخر تبعاً للأهواء والمصالح الذاتية.

وأما ما يتعلق بقبح الكذب أو عدمه في المواضع التي يكون فيها سائغاً - وهي المسألة التي أثارها ابن القيم رحمه الله - فإن الأقرب أن الكذب لا يقبح فيها؛ لأنه إنما اكتسب الوصف بالقبح من آثاره السيئة، وقد خلا عنها أو هي مرجوحة في تلك المواضع، وعلى هذا فلا وجه لكونه قبيحاً فيها. ومما يدل على هذا أن الله - عز وجل - أخبر عن رسوله - عليه الصلاة والسلام- فيما شرعه لأمته أنه ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[3]، ولو كان الكذب

---

(١) رواه الترمذي، وسبق تخريجه.

(٢) ومثله الغيبة والنميمة في بعض صورها، انظر: شواهد هذا في كتاب قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام (١/٩٧-٩٨)، دار الكتب العلمية - بيروت. وانظر: الفتاوى (٢٨/٢١٩).

(٣) سورة الأعراف، الآية [١٥٧].

في هــذه المواضـع قبـيحاً منكـراً لمـا أذن فيه النبي- ﷺ - وأباحه لأمته في حال السعة والاختيار. ولا يعـني هـذا أن الكـذب فـيها يعـد فضيلة، بل لا يعدو أن يكـون فعـلاً مأذونـاً فـيه لا يلحق مقارفه ذم، كما لا يستحق عليه ثناء، مثله في هذا مثل المعاقبة بالمثل في باب المعاملة التي هي عدل جائز لا يمدح الآخذ به ولا يذم. ولذا كان في التعريض مندوحة عن الكذب، كما قال عمر - رضي الله عنه -: ((أما في المعـاريض مـا يكفـي المسلم الكذب))[1]. وأفضل في هذا وأكمل أن يتعاشر الناس بالصدق المقرون بالأدب وحسن المعاشرة ((عليكم بالصدق، فإن الصدق يهـدي إلى الـبر، وإن الـبر يهـدي إلى الجـنة، ومـا يـزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ))[2].

## رابعاً: موافقة الفطرة:

تعـد الفطرة - كما تقدم[3]- أساساً من أسس الأخلاق، وذلك من حيث المعـرفة الفطـرية بأصـول الأخـلاق واسـتعداد الـنفوس لقبولها والأخذ بها، ومن حـيث استحـسان الفطـرة لمكـارم الأخـلاق ورغبتها في الاستقامة عليها وميلها إليها ومحبتها لها.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب المعاريض ص١٢٩. و انظر: البغوي: شرح السنة (١٥٥/١٣)، المكتب الإسلامي - بيروت، ط١، سنة ١٣٩٠هـ.

(٢) أخـرجه الـبخاري ومـسلم. الـبخاري في كـتاب الأدب: بـاب قـول الله تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾. ومسلم في البر والصلة - باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله.

(٣) عند الحديث عن أسس الأخلاق.

ومـن مظاهـر الـصلة بين الفطرة والأخلاق إقرار الإسلام للأخلاق الفطرية علـى اخـتلافها مع تهذيبها وتوجيهها الوجهة السليمة لتكون عاقبتها خيرة على الفـرد وعلـى مجـتمعه، كمـا بـين ذلك ابن القيـم، ومنفرداً بذلك في الحديث عن هذه الخصيصة.

وشـواهد هـذه الخصيـصة كثيرة، فمن ذلك أن الغضب والغلظة والشدة – الـتي هـي مـن الصفات الفطرية – ليست ممقوتة في كل حال، بل مأموراً بها في مواطـنها الـصحيحة، فالغضب لله، ولرسوله، ولما جاء به من الحق أمر مطلوب، فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: ((ما ضرب رسول الله – ﷺ – شيئاً قط بـيده، ولا امـرأة، ولا خادمـاً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينـتقم مـن صـاحبه، إلا أن ينـتهك شـيء مـن محـارم الله تعالى، فينتقم لله –عز وجل–)) [1].

والغلظة على الكفار والمنافقين متعينة، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[2].

وكـذا الـشدة على الكفـار، كمـا قـال تعـالى في وصـف رسوله – ﷺ – وأصـحابه الكرام– ﷺ–: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ [3].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته – ﷺ – للآثام واختياره من المباح أسهله.

(٢) سورة التوبة، الآية [٧٣]. ونفسها في التحريم، الآية [٩].

(٣) سورة الفتح، الآية [٢٩].

ومن شواهد موافقة الأخلاق الإسلامية للفطرة، ما دلت عليه النصوص من عدم مؤاخذة الإنسان فيما لا يملكه من ميول ومشاعر قلبية، مثل ما يقع من حب إحدى زوجاته أكثر من غيرها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ ﴾[1].

قال القرطبي: (( أخبر تعالى بنفي الاستطاعة في العدل بين النساء، وذلك في ميل الطبع بالمحبة والجماع والحظ من القلب. فوصف الله تعالى حالة البشر وأنهم بحكم الخلقة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعض دون بعض))[2].

وأما ما كان مستطاعاً للإنسان فإن العدل فيه واجب؛ كالتسوية في القسم والنفقة..[3]، ولذا جاء التحذير من الظلم فيما يمكن العدل فيه في قوله -عليه الصلاة والسلام-: (( من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل))[4].

وبعد فإن القول باتفاق الأخلاق مع الفطرة الإنسانية؛ يؤكد أن الإسلام لم يكلف الإنسان ما يعجز عن حمله أو يلزمه بما يضيق به ذرعه، فيكون في هذا العجز ما يبرر قعوده عن مكارم الأخلاق ومعالي الأمور. كما أن هذا التوافق يعني أن كثيراً من الجهد الذي يمكن أن يبذله الإنسان في سبيل بلوغ الكمال الخلقي الممكن له إنما هو في توجيه أخلاق النفس ومعطيات الفطرة التوجيه

---

(١) سورة النساء ، الآية [ ١٢٩ ].

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٥/٤٠٧).

(٣) انظر: المرجع السابق ، الصفحة نفسها. وابن حجر: فتح الباري (٩/ ٢٥٣).

(٤) رواه أبو داود في كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء. والترمذي في النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر. و انظر: الألباني: صحيح سنن الترمذي (١/٣٣٣).

المناسب والرشيد لينعم هو ومن يتصل به بآثار الأخلاق الكريمة. ومما لا شك فيه أن توجيه خلق أصله راسخ في النفس أيسر من اكتساب وتحصيل ذلك الخلق.

وإذا كانت الأخلاق متوافقة مع فطرة الإنسان فإن هذا يحتم الاعتناء بهذه الفطرة بإبعاد المؤثرات السيئة عنها لتبقى سليمة صالحة، مع السعي في تزكيتها وتنمية استعداداتها، حتى تكمل أخلاقها وتستقيم أمورها فتفيض بالبر والخير والصلاح.

وإن من أعظم مظاهر الخلل في هذا المقام إهمال هذه الفطرة الموهوبة من الله-عز وجل- للإنسان، حتى إذا خفت ضوءها، واندرست كثير من معالمها، واشتد عود المرء في غير الطريق السوي بذلت الجهود لإصلاحه و تقويمه، فاحتاج الأمر إلى مضاعفة الجهد وزيادة البذل، وقد يتيسر المراد وقد يتعسر.

**خامساً: الشمول:**

الشمول من الخصائص التي انفرد ابن القيم - رحمه الله - في الحديث عنها. وهذه الخصيصة تشهد على عظمة الشريعة وكمالها وصلاحها لكل زمان ومكان، ووفائها بحاجات البشرية وسعيها إلى الارتقاء بهم من خلال فتح أبواب البذل والعطاء المختلفة أمامهم. فيجد المرء في أي ظرف كان، وعلى أي حال ميداناً واسعاً للمشاركة والمواساة والتفاعل. ولعل في قصة الصحابي[١] الذي سمع النبي- ﷺ - يدعو يوم تبوك للنفقة والحملان في سبيل الله ما يشهد لهذه السعة وهذا الشمول في الأخلاق الإسلامية. وذلك أنه لما لم يجد ما

(١) هو عُلبة بن زيد بن عمرو الأنصاري الأوسي، ذكره ابن إسحاق في البكائين في غزوة تبوك. انظر: الإصابة (٢/٤٩٣).

يتصدق به، أو يتقوى به على الجهاد استجابة لدعوة النبي- ﷺ -، قام فصلى من الليل وبكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، و لم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه. وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال، أو جسد، أو عرض. ولقد أخبر النبي- ﷺ - أن عمله هذا في الأعمال الصالحة والصدقات المتقبلة[1].

ولخصيصة الشمول صلة بخصيصة الواقعية، ومضمونها أن المشاركة الإيجابية مع المجتمع ليست متيسرة في كل وقت وحين، بل إن من الأوقات ما تمس فيه الحاجة إلى العزلة والانفراد[2] لعدم القدرة على التأثير الخير والتفاعل المثمر مع المجتمع المحيط بالمرء. وفي مثل هذه الظروف لا تعدم في هذا المنفرد الفضيلة - كما زعم مسكويه[3]-؛ لأن صلته بالله، عز وجل- بما يحيط بها ويضبطها من آداب وتوجيهات خلقية - باقية، بل إن انفراده هو نفسه فضيلة؛ لأنه يتضمن البعد عن رذيلة محققة من المخالطة والمعاشرة.

وثمة مظهر من مظاهر الشمول يتجاوز صلة الإنسان بربه وبنفسه وبالناس من حوله، وتتمثل في صلته بغير العقلاء من الحيوان والطير. فقد شرع في حقها الإحسان، كما قال- عليه الصلاة والسلام-: (( إن الله كتب الإحسان في كل

---

(١) قال الحافظ ورد مسنداً موصولاً، وقال المعلق على زاد المعاد: حديث صحيح. الإصابة (٤٩٣/٢)، زاد المعاد (٥٢٩/٣).

(٢) كما في حال الفتن، التي قال فيها – عليه الصلاة والسلام -: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن" رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الدين الفرار من الفتن.

(٣) انظر: ما تقدم ص ١١٢.

شيء، فإن قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته »[1]. وقال- عليه الصلاة والسلام -: « في كل كبد رطبة أجر»[2].

من شواهد الشمول أيضاً، ما جاء من توجيهات تتعلق بصلة الإنسان بالبيئة المحيطة به؛ فقد حث الإسلام على عمارة الأرض واستثمارها والانتفاع بخيراتها، كما قال- عليه الصلاة والسلام-: « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة» [3].

وفي المقابل فإن الواجب البعد عن التخريب والتدمير والإفساد الذي لا معنى له، ولا مصلحة فيه، فقد جاء في وصية الصديق- رضي الله عنه - ليزيد بن أبي سفيان[4] أحد القواد الذين بعثهم إلى الشام قوله: «لا تقتلن امرأة ولا صبياً، ولا كبيراً، ولا هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكله، ولا تحرقن نخلاً ولا تغرقنّه..» [5].

---

(١) رواه مسلم. كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة.

(٢) متفق عليه. رواه البخاري في كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء. ومسلم في كتاب قتل الحيات وغيرها، باب سقي البهائم المحترمة وإطعامها.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في كتاب الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه. ومسلم في المساقاة، باب فضل الغرس والزرع.

(٤) يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي، أخو معاوية، وأخو أم المؤمنين أم حبيبة، كان من العقلاء الألباء، والشجعان المذكورين، أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه، أمّره عمر على دمشق حتى مات بها سنة ١٨هـ بالطاعون.
انظر: أسد الغابة (٧١٥/٤)، سير أعلام النبلاء (٣٢٨/١).

(٥) رواه مالك في الموطأ ص٢٠٧. على أنه يجوز هدم الدور وقطع الشجر إذا كان في ذلك مصلحة، فقد حرق النبي- صلى الله عليه وسلم- نخل بني النضير. والحديث متفق عليه، رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب حرق الدور والنخيل. ومسلم في الجهاد والسير، باب جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها.
انظر: أسد الغابة (٧١٥/٤)، سير أعلام النبلاء (٣٢٨/١).

وأما ثمرات هذا الشمول فمنها: استيعاب الفضيلة الخلقية لكافة القدرات الإنسانية وتوظيفها في المجالات التي تتناسب مع إمكاناتها وقدراتها. ومنها ترويض النفس على الفضيلة الخلقية، وإقامتها على أساس النية واحتساب الأجر، ولذا تظهر آثارها حتى فيمن لا يرجى نفعه أو تحصيل جزاء منه من الحيوان والطير.

وأخيراً فإن من ثمرات هذا الشمول الذي تتنوع فيه ميادين البذل وصور العطاء شعور الفرد بالطمأنينة والرضاء لإسهامه في الخير، وزيادة صلته بمجتمعه لتفاعله المثمر معه.

# الباب الثالث

# معيـار الأخـلاق والإلـزام الخـلقي

# الفصل الأول

# معيـــار الأخـــلاق

# مدخل في معنى المعيار الخلقي

## المعيار في اللغة:

المعيار والعيار: كل ما تقدر به الأشياء من كيل أو وزن[1]. وعاير بين المكيالين معايرة وعياراً: امتحنها لمعرفة تساويهما، وعاير المكيال والميزان امتحنه بغيره لمعرفة صحته[2].

وأصلها عَيَرَ، قال ابن فارس: « عَيَرَ: العين والياء والراء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على نتوء الشيء وارتفاعه، والآخر على مجيء وذهاب.

فالأول: العَيْر، وهو العظم الناتئ وسط الكتف، الجمع عيورة، وعير النصل حرف في وسطه كأنه شظية، والعَيْر: سيد القوم.

والأصل الآخر: العَيْر،الحمار الوحشي والأهلي، والجمع الأعيار، والمعيوراء، وإنما سمي عَيْرًا: لتردده ومجيئه وذهابه. وقصيدة عائرة: سائرة »[3].

## المعيار في الاصطلاح:

يعرف المعيار في الفلسفة بأنه« نموذج أو مقياس مادي أو معنوي لما ينبغي أن يكون عليه الشيء »[4].

والمعيار في الأخلاق هو النموذج المثالي الذي تقاس به معاني الخير.

والعلم المعياري هو العلم الذي يُعنى بدراسة الأشياء باعتبار ما ينبغي أن تكون عليه[5].

---

(١) لسان العرب ، مادة عَيَرَ .

(٢) المعجم الوسيط ، مادة عَارَ .

(٣) معجم مقاييس اللغة ، مادة عَيَرَ.

(٤) المعجم الفلسفي ص ١٨٨.

(٥) المعجم الفلسفي ص ١٨٨، جميل صليبا: المعجم الفلسفي (٢/٤٠٠).

وعلى هذا فلا يخرج المعيار في الاصطلاح عن معناه اللغوي، حيث يطلق ويراد به ما تقدر وتوزن به الأشياء.

### معيارية علم الأخلاق:

علم الأخلاق علم معياري، أي أنه يدرس ما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني، فيحدد بذلك قوانين الأفعال الإنسانية ومثلها والمبادئ العليا لها.

هذا هو الاتجاه المعتمد والغالب عند الباحثين في الأخلاق.

وهناك اتجاه آخر تمثله النظرية الوضعية التي تبناها بعض علماء الاجتماع، حيث أصبحت الأخلاق عندهم هي مجرد القواعد السلوكية التي تسلم بها جماعة من الناس في حقبة من التاريخ[1].

وإنما كان المعتمد معيارية علم الأخلاق، لأن للأفعال صفات ذاتية حسنة أو قبيحة، ومن ثم فهي ثابتة لا تتغير[2].

### معايير الأخلاق في الفكر الفلسفي وفي علم الكلام:

اختلفت المذاهب الفلسفية الغربية في تحديد المعيار الذي ينبغي الاحتكام إليه، واعتماده في الكشف عن الأفعال، والحكم عليها بالخير أو الشر. وأهم المذاهب في هذا الباب:

### أ - المذهب العقلي:

ويرى أنصار هذا المذهب أن العقل هو القوة التي يميز بها الإنسان ما في الأفعال من حسن وقبح، ومن خير وشر، فهو معيار الفضيلة، وأساس الأحكام الخلقية.

---

(١) د. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام ص ١٠. د.توفيق الطويل: أسس الفلسفة ص ٣٧٢.

(٢) تأتي إن شاء الله زيادة تقرير لهذه المسألة .

وهـذا الاتجـاه هـو مـا سـار عليـه الفلاسـفة اليونان، كسقراط وأفلاطون وأرسـطو [١]. وأنـصار المدرسـة العقليـة الحديثـة، كديكـارت [٢] وسبنوزا [٣] وكانت[٤] وغيرهم[٥].

### ب ـ المذهب الحدسي:

ويـرى أتـباعه أن الـضمير هـو معيار الأخلاق. والضمير عند الحدسيين قوة فطـرية مـشتركة بـين الـناس، تدرك الخير والشر في الأفعال، وتضع القوانين التي نصدر بمقتضاها أحكامنا الخلقية [٦]. وممن قال به بتلر[٧].

---

(١) أسس الفلسفة ص ٤٧٣ .

(٢) فيلـسوف فرنـسي، أقـام فلـسفته علـى الـشك المنهجي، وقال بالعقل طريقاً للوصول إلى الحقيقة، مات سنة ١٦٥٠م.
انظـر: الموسوعة الفلسفية المختصرة: ترجمة: فؤاد كامل وزميليه ص ١٨٤ . دار القلم – بيروت. يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٥٨ . دار القلم بيروت .

(٣) فيلـسوف يهـودي هولـندي، تابـع ديكارت في القول بالعقل مصدراً للمعرفة، ويرى أن العقل حاكم على سائر الأشياء بما فيها الدين. مات سنة ١٦٧٧م.
انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٢٤٨ ، تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٠٦.

(٤) فيلـسوف ألماني، لـه اهتمام بالأخلاق وألف فيه (( أسس ميتافيزيقا الأخلاق )) وغيره، نادى بفكرة الواجب وهو الأمر الجازم الذي يتقيد به المرء لذاته دون النظر إلى ما ينطوي عليه مـن لـذة أو متعة، ومنبعه – في فلسفته – العقل العملي الذي يشتمل على المبادئ القبلية لقواعد الأخلاق ويضع تشريعاً خلقياً للإنسان نابعاً من ذاته، مات سنة ١٨٠٤م.
انظـر: تـاريخ الفلـسفة الحديـثة ص ٢٠٨، علـى معـبد فرغلـي: في الأخـلاق الإسـلامية والإنسانية ص ١٥٧، دار الكتاب الجامعي– القاهرة، ط١ سنة ١٤٠٥هـ.

(٥) انظر: الفلسفة الخلقية ص ٣٢٤، ٣٢٦.

(٦) الفلسفة الخلفية ص ١٢٣،٣٤٦.

(٧) فيلـسوف إنجليـزي، عظـم شـأن الـضمير في الحـياة الخلقـية، نشر آراءه في مواعظه، وفي وكتابه (( رسالة في طبيعة الفضيلة )) مات سنة ١٧٥٢م.
الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ١٠٣، الفلسفة الخلقية ص ١٩٢، وما بعدها.

**ج ـ المذهب النفعي:**

والذي يقرر أتباعه أن المنفعة (أو اللذة) هي المعيار للأحكام الخلقية. فالأفعال الإنسانية لا تكون خيرًا إلا متى حققت، أو توقع صاحبها من ورائها نفعاً. وهي شر إن أدت إلى ضرر أو عاقت عن نفع. على خلاف بين أتباع هذا الاتجاه في طبيعة اللذة أو المنفعة، هل هي فردية أم جماعية [(١)]. ومن اشهر القائلين به بنتام[(٢)].

**أما في البيئة الإسلامية:**

- فذهب المعتزلة إلى أن العقل هو المعيار في باب الأخلاق، فباستطاعة الإنسان أن يميز بعقله بين الحسن والقبيح من الأفعال؛ لأن للأفعال عندهم صفات ذاتية حسنة أو قبيحة، والعقل قادر على إدراك ما في الأفعال بالجملة [(٣)] من حسن أو قبح [(٤)].

---

(١) الفلسفة الخلقية ص ٢٨٧ – ٢٩٦.

(٢) فيلسوف إنجليزي، يرى أن مبدأ السلوك الإنسان هو سعيه إلى تحصيل أكبر قدر من المنفعة. وقد عرض جهته وآراءه في كتابه ( المدخل إلى مبادئ الأخلاق والتشريع) مات سنة ١٨٣٢م.

انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ١٢٨. تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٣٢.

(٣) لأن من الأفعال عندهم مالا يدرك حسنه إلا بالشرع، كحسن الصلاة والحج ونحوها. انظر: الغزالي: المستصفى (٥٦/١)، دار العلوم الحديثة – بيروت. وعبد العلي الأنصاري: فواتح الرحموت (٢٧/١).

(٤) انظر: الملل والنحل جـ ١ ص ٤٥ . المستصفى جـ١ ص ٥٦ . فواتح الرحموت (٢٧/١).

- وذهب الأشاعرة إلى أن المعيار هو الوحي؛ وليس للعقل مدخل في الحكم على الأفعال بالحسن والقبح، لأن ليس للأفعال صفات ذاتية تكون بموجبها حسنة أو قبيحة، وإنما المرجع في الحكم عليها بذلك إلى الشرع [1].

وذهب الصوفية إلى أن الكشف مصدر من مصادر المعرفة، ومعيار لتمييز ما في الأفعال من حسن وقبح، و لما ينبغي الإقدام عليه أو الإحجام عنه، وبالغ بعض المنتسبين إلى الصوفية في الاعتماد على الذوق والكشف حتى قدموها على العقل والشرع[2].

---

(١) أبو الحسن الأشعري: أصول أهل السنة والجماعة ( المسماة برسالة الثغر). تحقيق: د.محمد الجليند ص ٧٤، دار اللواء – الرياض، ط٢سنة ١٤١٠هـ. المستصفى (١/٥٥-٥٧).

(٢) انظر: ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٩١. وقد نقل عن بعضهم قوله : (( من أراد التحقيق فليترك العقل والشرع ))، المكتب الإسلامي – بيروت ط٤ سنة ١٣٩٧ هـ .

# المبحث الأول
# معيار الأخلاق عند مسكويه

اعتمد مسكويه منهج الفلاسفة في تعظيم العقل واعتباره مصدرًا للمعرفة، ومعياراً تاماً للقيم والفضائل.

فهو يرى أن في وسع الإنسان أن يضع لنفسه منهجاً للفضيلة يحقق له الكمال الخلقي؛ لأنه يملك الوسائل الضرورية التي تجعله قادرًا على أن يميز بين ما ينبغي فعله وما ينبغي تركه، وبالتالي فإن في استطاعته أن يستغني في هذا الميدان عن الوحي وهدايته بعقله وفكره ونظره.

وقد أكد مسكويه أهمية الرجوع إلى العقل، ولزوم الاحتكام إليه والوقوف عند حدوده في مواضع عدة ومناسبات مختلفة:

- فمن ذلك أن للأخلاق عنده غاية يجب أن تتجه إلى تحقيقها، ألا وهي السعادة، وهذه السعادة - كما يصورها مسكويه- على مرتبتين: سعادة قصوى، وسعادة قريبة وهي السعادة الخلقية.

أما السعادة القصوى فهي سعادة نظرية[1]، لا تتحقق للمرء « إلا بعد أن يعلم أجزاء الحكمة كلها علماً صحيحاً، ويستوفيها أولاً أولاً »[2]،عند ذلك يتحقق للإنسان الكمال التام والسعادة القصوى.

أما السعادة القريبة أو السعادة الخلقية فتتحقق للإنسان من « ترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها حتى لا تتغالب وحتى تتسالم هذه القوى فيه »[3].

---

(١) تهذيب الأخلاق ص ٥٨.

(٢) المرجع السابق ص ٩٤.

(٣) المرجع السابق ص ٥٨.

والمقصود قوى النفس، وهى ثلاث قوى ولكل منها فضيلة معينة تخصها. وهذه القوى هي:

القوة الناطقة أو العاقلة وفضيلتها الحكمة، والقوة الشهوية وفضيلتها العفة، والقوة الغضبية وفضيلتها الشجاعة[١].

أما الطريق إلى تحقيق فضائل هذه القوى، فهو في فضيلة الحكمة بأن ((يسعى ويجتهد ويطلب الحق إذا اختلف الناس فيه، ولا يزال كذلك حتى يبلغ مرتبة الحكماء، أعني أن يصير علمه صحيحاً وعمله صواباً، وليس يبلغ هذه الدرجة إلا بالتفلسف))[٢].

فسبيل تحقيق فضيلة الحكمة المعارف العقلية الفلسفية.

أما فضيلة العفة والشجاعة فتظهران في الإنسان بحسب انقياد النفس الشهوية والغضبية للنفس الناطقة المميزة [٣].

بل إن كل الفضائل إنما تتحقق في الإنسان عن طريق نظره وتمييزه العقلي، الذي يحدد له الفضيلة، والقدر الواجب منها. يقول مسكويه: (( ليس ينظم الكثرة التي ركب الإنسان منها إلا الرئيس الواحد الموهوب له من الفطرة، أعنى العقل الذي به تميز من البهائم، وهو خليفة الله -عز وجل- عنده. فإن هذه القوى كلها إذا ساسها العقل انتظمت وزال عنها سوء النظام الذي يحدث من الكثرة، وجميع ما ذكرناه من إصلاح الأخلاق مبني عليه ))[٤].

---

(١) المرجع السابق ص ٣٧-٣٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٥٠.

(٣) المرجع السابق ص ٣٨-٤٠.

(٤) المرجع السابق ص ١٢٣ ، وانظر: في هذا المعنى ص ٦٧-٨٦.

أما موقف مسكويه من الوحي، فإنه لا ينكره، فهو يقول عن الشريعة: «إنها سياسة الله وسنته العادلة التي بها مصالح العباد في الدنيا والآخرة »[1]. ولكن لا يعول عليها في معرفة الفضائل الخلقية وبيان المقدار الواجب منها.

وانصراف مسكويه عن الرجوع إلى الشريعة، أو الوقوف عند حدودها لتحقيق كمال النفس الخلقي مبنى على أمرين:

**الأول**: أن ما جاءت به الشريعة يمكن الوصول إليه بالعقل؛ لأن ما جاءت به في باب الفضائل هو العدل والتوسط بين الرذائل، فمن حافظ على هذا الوسط فإنه لابد موافق للشريعة غير خارج عما جاءت به، يقول مسكويه: «الفضائل كلها اعتدالات، وإن العدالة اسم يشملها ويعمها كلها، وإن الشريعة لما كانت تقدر الأفعال الإرادية التي تقع بالروية وبالوضع الإلهي صار المتمسك بها في معاملاته عدلاً، والمخالف لها جائرًا، فلهذا قلنا إن العدالة لقب للمتمسك بالشريعة. إلا أنا قد قلنا مع ذلك إنها هيئة نفسانية تصدر عنها هذه الفضيلة، فتصور هذه الهيئة النفسانية فإنك سترى رؤية واضحة أن صاحبها ينقاد لا محالة للشريعة طوعاً ولا يضادها بنوع من أنواع التضاد. وذلك أنه إذا حافظ على المناسبات التي ذكرناها لأنها مساواة، وآثرها بعد إجالة الرأي فيها على سبيل الاختيار لها والرغبة فيها، وجب عليه موافقة الشريعة وترك مخالفتها» [2].

ثم إن في وسع الإنسان بعد هذا كله أن يرتقي بنفسه بسلوك طريق التأمل والنظر العقلي حتى تتحقق له الصلة بالله -عز وجل- ويحصل له الفيض

---

(١) تهذيب الأخلاق ص ١٠٥.

(٢) المرجع السابق ص ١١٨.

والإلهام[1] الذي يفتح له آفاق المعرفة ويجعله في مرتبة الأنبياء فيما يصل إليهم عن طريق وحي الله -عز وجل-. يقول مسكويه: ((إنه إذا صار إنساناً كاملاً وبلغ غاية أفقه، أشرق نور الأفق الأعلى عليه، وصار حكيماً تأتيه الإلهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكيمة، والتأييدات العلوية في التصورات العقلية، وإما نبياً مؤيداً يأتيه الوحي))[2].

**الثاني**: أنه لما كان في وسع العقل الوصول إلى الفضيلة الخلقية فقد فوضه الله -عز وجل- في إصلاح نفس الإنسان و تقويم خلقه، يقول مسكويه: ((فأما الإنسان من بين هذه الجواهر فهو مستعد بضروب من الاستعدادات، لضروب من المقامات.. إلا أن الذي ينبغي أن يعلم الآن هو أن وجود الجوهر الإنساني متعلق بقدرة فاعله وخالقه تبارك وتقدس اسمه تعالى. فأما تجويد جوهره فمفوض إلى الإنسان، وهو معلق بإرادته)) [3].

ولذا تمس الحاجة إلى الشريعة في حال ضعف الإنسان وقصوره عن الإدراك والتمييز، كما في حال الأحداث، أما إذا تمكن المرء من النظر والتمييز فلا معنى لأن يعطل فكره عن التعقل والتدبر، يقول مسكويه: ((الإنسان في ابتداء كونه

---

(١) تتفق الفلسفة مع التصوف في أن كليهما يستهدف الاتصال بالله تحقيقاً للسعادة، و إن اختلفت الطريقة في كل منهما، فالفلسفة تصطنع التأمل والنظر العقلي الذي يسلم إلى الفيض والإلهام. أما التصوف فإنه يغلب العمل على النظر ويقدم التعبد على التأمل، لأنه أصلاً تجربه روحية تقوم على التقشف والزهد والحرمان والجوع والتهجد والذكر وقطع العلائق كلها ..... )) أسس الفلسفة ص ١٢٢.

(٢) تهذيب الأخلاق ص ٧٩ ، ص ٦٣.

(٣) المرجع السابق ص ٥٦- ٥٧.

محتاج إلى سياسة الوالدين، ثم إلى الشريعة الإلهية والدين القويم، حتى تهديه وتقومه إلى الحكم البالغة›› [(1)]. ويقول: ‹‹ الشريعة هي التي تقوم الأحداث وتعودهم الأفعال المرضية وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل والبلوغ إلى السعادة الإنسية بالفكر الصحيح والقياس المستقيم، وعلى الوالدين أخذهم بها وبسائر الآداب الجميلة بضروب السياسات ... ختى إذا تعودوا ذلك واستمروا عليه مدة من الزمن كثيرة أمكن فيهم حينئذ أن يعلموا براهين ما أخذوا تقليداً، ونبهوا على طريق الفضائل واكتسابها والبلوغ إلى غاياتها بهذه الصناعة التي نحن بسبيلها›› [(2)].

---

(1) المرجع السابق ص ١٠١.

(2) المرجع السابق ص ٥٤، ٦٤.

# المبحث الثاني
# معيار الأخلاق عند ابن القيم

لم يرتض ابن القيم مسلك الأشاعرة في نظرتهم إلى العقل، حيث سلبوه بعض خصائصه، وعطلوه عن بعض وظائفه، فجعلوا المرجع في التحسين والتقبيح الشرع وحده، ونفوا أن يكون للعقل مدخل في الحكم على الأفعال بالحسن أو القبح.

وقد أطال - رحمه الله - في الرد على هذا القول وبيان مخالفته للكتاب والسنة والعقل والفطرة، وساق في معرض رده عليه جملة من الآيات الدالة على إثبات الحسن والقبح للعقليين، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[1]، قال: « أي لا يأمر بما هو فاحشة في العقول والفطر، ولو كان إنما علم كونه فاحشة بالنهي، وأنه لا معنى لكونه فاحشة إلا تعلق النهي به، لصار معنى الكلام: إن الله لا يأمر بما ينهى عنه، وهذا يصان عن التكلم به آحاد العقلاء فضلاً عن كلام العزيز الحكيم »[2].

ومنها قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[3]، قال: « من أعلام نبوة محمد- ﷺ - أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث،

---

(١) سورة الأعراف، الآية [٢٨] .

(٢) ابن القيم: مدارج السالكين (١/٢٣٤).

(٣) سورة الأعراف، الآية [١٥٧].

فلو كان كونه معروفاً ومنكراً وخبيثاً وطيباً إنما هو لتعلق الأمر والنهي، والحل والتحريم به، لكان بمنزلة أن يقال: يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه، ويحل لهم ما يحل لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم وأي فائدة في هذا ؟ وأي عَلَم يبقى فيه لنبوته ؟ وكلام الله يصان عن ذلك وأن يظن به ذلك. وإنما المدح والثناء والعَلَم الدال على نبوته: أن ما يأمرهم به تشهد العقول الصحيحة حسنه وكونه معروفاً، وما ينهى عنه تشهد قبحه وكونه منكراً، وما يحل تشهد كونه طيباً، وما يحرمه تشهد كونه خبيثاً » (١).

ويخلص - رحمه الله - إلى أن الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة كما أنها نافعة وضارة، ولكن مع إثبات لذلك، فإنه يرى إن تحسين العقل وتقبيحه إنما هو في جملة الأفعال لها في جميعها، وفي هذا يقول: « غاية العقل أن يدرك بالإجمال حسن ما أتى الشرع بتفصيله أو قبحه، فيدركه العقل جملة ويأتي الشرع بتفصيله، وهذا كما أن العقل يدرك حسن العدل، وأما كون هذا الفعل المعين عدلاً أو ظلماً فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل وعقد » (٢).

ولهذا القصور العقلي عن كمال الإدراك للحسن والقبح في الأفعال أسباب منها، عدم ثبات الآثار المترتبة على الفعل المعين في مختلف الظروف والأحوال، فالفعل الخير والحسن في ذاته الأصل ترتب المصلحة على الأخذ به، ولكن قد يتخلف هذا الأثر في بعض الأوقات أو مع بعض الأشخاص، ويقول ابن القيم: «إن كون الفعل حسناً أو قبيحاً لذاته أو لصفته، لم يعن به أن ذلك يقوم بحقيقة لا ينفعك عنها بحال مثل كونه عرضاً وكونه مفتقراً إلى محل يقوم به ، ... وإنما

---

(١) ابن القيم : مدا رج السالكين (٢/١١٧).

(٢) ابن القيم : مفتاح دار السعادة (٢/ ١١٧).

نعني بكونه حسناً أو قبيحاً لذاته أو صفته إنه في نفسه منشأ للمصلحة والمفسدة، وترتبها عليه كترتيب المسببات على أسبابها المقتضية لها، وهذا كترتب الري على الشرب، والشبع على الأكل.

فحسن الفعل أو قبحه هو من جنس كون الدواء الفلاني حسناً نافعاً أو قبيحاً ضاراً. وكذلك الغذاء واللباس وغيرها، فإن ترتب آثارها عليها ترتب المعلولات والمسببات على عللها وأسبابها، ومع ذلك فأنها تختلف باختلاف الأزمان والأحوال والأماكن والمحل القابل، ووجود المعارض. فتختلف الشبع والري عن الخبز واللحم والماء في حق المريض، ومن به علة تمنعه من قبول الغذاء لا تخرجه عن كونه مقتضياً لذلك لذاته )) [١].

وإذا كان هذا في الأفعال التي يمكن وصفها ابتداءً بالحسن أو القبح، فإن من الأفعال ما تحار العقول في الحكم عليه لكونه (( مشتملاً على مصلحة ومفسدة ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أم مصلحته، فيتوقف العقل في ذلك))[٢].

وليس هذا فحسب، بل يصل الأمر في بعض الأفعال إلى أن (( يكون مفسدة في الظاهر وفي ضمنه مصلحة عظيمة لا يهتدي إليها العقل، فلا يعلم إلا بالشرع، كالجهاد والقتل في الله )) [٣].

وينتهي - رحمه الله - من هذا كله إلى تأكيد حاجة الناس، بل ضرورتهم إلى الشرع وعدم استغنائهم عن بيانه وهدايته [٤]، فهو وحده الذي يأمر بالفعل

---

(١) المرجع السابق (٢٨/٢).

(٢) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ( ١١٧/٢).

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها .

(٤) هذا في الأخلاق، أما في مسائل الغيب والشعائر العبادية، وتفاصيل الثواب والعقاب فعجز العقل أظهر، والحاجة إلى الشريعة أعظم.
انظر: المرجع السابق (١١٧/٢).

حال كونه مشتملاً على مصلحة راجحة، وينهى عنه إذا رجحت مفسدته، كما يأمر به من هو مصلحة له ، وينهى عنه من هو مفسدة في حقه ...

وعلى هذا يمكن القول إن المعيار للفضيلة عند ابن القيم هو الوحي، وأما العقل فإنه وإن اهتدى إلى أصول الأخلاق فهو قاصر عن أن يضع للإنسان منهجاً للفضيلة، يضمن له الوصول إلى الحق، وموافقة الصواب في كل قول وفعل.

## المبحث الثالث
## المقارنة والتقويم

إن المعيار الحق الذي يجب اعتماده ميزاناً للفضيلة والرذيلة هو المعيار القادر على الكشف عن الأفعال وما فيها من حسن وقبح وصلاح وفساد في مختلف الظروف والأحوال، هذا من جهة ومن جهة أخرى فهو الذي يورث السائر على هديه السلامة في قصده، والطمأنينة في قلبه والسعادة في حياته والنجاة في أخرته، فيسلم من المؤاخذة، وينجو من التبعة.

وإذا كانت المذاهب الفلسفية قد تنوعت في تحديد معيار الفضيلة الخلقية فيسكون الحديث عن أهم هذه المعايير وهو العقل[1] الذي اعتمده مسكويه معياراً تاماً للفضيلة وميزاناً للقيم والأخلاق.

والذي يمكن الجزم به هو قدرة العقل على الوصول إلى أصول الأخلاق وشواهد هذا كثيرة، منها اتفاق الناس على اختلاف بيئاتهم وأزمانهم وثقافاتهم على استحسان الصدق والعدل والإحسان ونحوها، وعلى النفور من الكذب والظلم والإساءة لأن لهذا أصلاً في الفطرة الإنسانية، وهي مشتركة بين الناس جميعاً [2].

---

(١) المقصود بالعقل هنا ما ارتضاه شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان معناه بقوله: (( اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة، وهو الذي يسمى عرضاً قائماً بالعاقل. وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة :٧٣، وغيرها ]، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [ آل عمران: ١١٨] )). مجموع الفتاوى (٩/ ٢٨٦).

(٢) انظر: ابن تيمية: الرد على المنطقيين ص ٤٣٥.

وأما ما يتعلق بقدرة العقل على وضع منهج تام للفضيلة الخلقية يرتقي بالإنسان في سلم الكمال، ويحقق له الطمأنينة والسعادة، فإن هذا متوقف على أمور أهمها:

- كمال العقل، وسلامته من المؤثرات.
- قدرته على الكشف عن الأفعال ومافيها من حسن وقبح وخير وشر على الأجمال والتفصيل مع اختلاف الأوقات وتغير الأحوال.

أما ما يتعلق بكمال العقل ، فهذا مالا يمكن القول به، فقد جاء في القرآن بيان لحال الإنسان وتقرير لضعفه وجهله وظلمه، قال تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[1] وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[2]، وقال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3]. ومن صور هذا الضعف:

- عدم سلامة الإنسان من الخطأ والنسيان اللذين هما من لوازم الفطرة الإنسانية ويقعان من الإنسان من غير اختياره، ولذا كانا من الأعذار الشرعية التي يعذر الإنسان بهما، ويرفع عنه الإثم في الأفعال الصادرة منه بسببهما، كما في الآية ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[4]، وفي الحديث الصحيح أن الله تعالى استجاب دعاء المؤمنين وقال: ((قد فعلت))[5].

---

(١) سورة النساء، الآية [٢٨] .

(٢) سورة إبراهيم، الآية [ ٣٤] .

(٣) سورة الإسراء، الآية [٨٥] .

(٤) سورة البقرة، الآية [٢٨٦] .

(٥) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه لم يكلف إلا ما يطاق.

وأمـا أثر ذلك فيتمثل في القصور عن إصابة الحق دائماً، وعدم القدرة على استحضار الصواب في كل وقت وحين.

- أن « أهواء الإنسان وشهواته تتغلب عليه وتشل قدراته الفكرية، فلا يكون إدارك للأمـور مجـرداً عـن المؤثـرات، وإنما يكون هذا الإدراك متأثراً بغلبة الهوى أو نزوة الشهوة، فلا يرى الشيء إلا بمنظار هواه ولا يبصر فيه إلا ما يـروي ظمـأ شهواته، وهذا يجعل تفكيره جائراً، وينأى عن الحق ويبعد عن الصواب » (١).

- تأثـر العقـل البـشري بالزمان والمكان والأحوال التي يعيشها الإنسان، وهذا التأثـر يحجبه عـن تمـام الإدارك، بـل كـثيراً مـا تكـون أحكامه منساقة مع مسلمات بيئته أو ردود فعل قاسية لها. ولعل مما يشهد لقوة تأثير البيئة على العقـل البـشري مـا حكـاه الله- عـز وجـل- عـن طوائـف مـن الخلـق قام تعظيـمهم لآبـائهم مانعـاً لهـم مـن قـبول الحـق مـع قيام حججه وقوة أدلته وبـراهينه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(٢)، وقـال تعالى حكاية عنهم: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾(٣). فـإذا كـان للبيـئة مـثل هذا الأثر في الصد والمنع من قبول الحق مع ظهوره، فان أثرها في الإعاقة عن الوصول إليه ابتداءً أعظم.

---

(١) مـناع القطـان: الحاجـة إلى الرسـل ص ١٨٩. مجلـة البـحوث الإسـلامية، العدد السابع، إصدار إدارة البحوث العلمية والإفتاء سنة ١٤٠٣هـ.

(٢) سورة البقرة، الآية [١٧٠] .

(٣) سورة الزخرف، الآية [٢٣] .

- تفاوت العقل البشري في الناس تفاوتاً عظيماً، وهذا التفاوت يؤدي إلى اختلاف النتائج التي يوصل إليها. ويلمس هذا بجلاء في الفلاسفة والمفكرين قديماً وحديثاً، فقد اختلفوا أشد الاختلاف في عامة القضايا التي خاضوا فيها مع أنهم جميعاً بنوا مذاهبهم وفلسفاتهم على أسس عقليه، بل إن الواحد منهم تختلف نظراته وتتغير كثير من آرائه من وقت الآخر. وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: « أهل الفلسفة والكلام أعظم الناس افتراقاً مع دعوى كل منهم أن الذي يقوله حق مقطوع به قام عليه البرهان »(١)، ويقول: إن « للفلاسفة في الإلهيات والمعاد والنبوات، بل وفي الطبيعيات والرياضيات وصفات الأفلاك من الأقوال مالا يحصيه إلا ذو الجلال »(٢)، ويقول: إن المتأمل في حالهم يجدهم « أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجزماً بالقول في موضع وجزماً بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر »(٣).

وأما ما يتعلق بالأمر الآخر وهو قدرة العقل على الكشف عما في الأفعال من حسن وقبح وخير وشر، فيتوقف على النظر في طبيعة الأفعال وخصائصها وأثارها وثمراتها. ومما يمكن ملاحظته فيها عدم ثبات الأثر المترتب على لأخذ بالخلق المعين في مختلف الظروف والأحوال.

---

(١) ابن تيمية: نقض المنطق ص ٤٣، بتصحيح: محمد حامد الفقي، طبع مكتبة السنة المحمدية – القاهرة.

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق ص ٤٢.

فالأفعال الحسنة مثلاً قد يعرض لها ما يمنع ترتب أثرها الخير عليها مع حسنها في ذاتها، كما نبه إلى ذلك ابن القيم[1]، وقبله العز بن عبد السلام[2] الذي قسم الأفعال إلى ما هو حسن أو قبيح بذاته وثمراته، كالعلم والإيمان، وكالجهل والشرك ومنها ما هو قبيح في ذاته ولكن قد يؤمر به تارة لحسن ثمراته[3].

- فالصدق حسن في ذاته، والأصل ترتب المصلحة على الأخذ به ولكن قد يتخلف هذا الأثر في بعض الأوقات أو مع بعض الأشخاص، ولذا جاء الإذن بالكذب في بعض الأحوال، فعن أسماء بنت يزيد[4] قالت: قال رسول الله- ﷺ -: « لا يصلح الكذب إلا في ثلاث: يحدث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس » [5].
- وفي المقابل فإن الغيبة مفسدة محرمة، ولكن قد يحقّق الأخذ بها في بعض الأحوال مصلحة راجحة على ما فيها من مفسدة، فيسوغ الأخذ بها لذلك، ومن ذلك كما يقول العز بن عبد السلام: « القدح في الرواة لما فيه من دفع إثبات الشرع بقول من لا يجوز إثبات الشرع به، لما على الناس في ذلك من الضرر في التحريم والتحليل وغيرهما من الأحكام » [6].

---

(١) انظر: ما تقدم ص ٢٥٢ .

(٢) هو عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، فقيه شافعي مجتهد، يلقب بسلطان العلماء توفي سنة ٦٦٠هـ. شذرات الذهب (٥/٣٠١).

(٣) العز بن عبد السلام: قواعد الأحكام (٢/٩٠)، دار الكتب العلمية – بيروت.

(٤) أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية الأوسية، من بني عبد الأشهل، شهدت اليرموك وقتلت تسعة من الروم بعمود فسطاطها، وعاشت بعد ذلك دهراً.
انظر: أسد الغابة (٦/١٨). الإصابة (٤/٢٢٩).

(٥) رواه الترمذي ، وسبق تخريجه .

(٦) قواعد الأحكام ( ١/٩٧ ) .

وهـذا الـتغير والاخـتلاف في الآثـار المترتـبة على الأفعال في بعض الأحوال يـضعف مـن قدرة العقل على الإحاطة بها والحكم الموافق للصواب فيها في كل ظرف وحين.

ومـما يشهد - بعد هذا كله - على قصور العقل عن وضع تشريع للفضيلة الخلقية أن هذا الأمر لو كان ممكناً لكان ما جاءت به الكتب ودعت إليه الرسل عـناءً لا طائـل وراءه وعبـثاً لا فائدة فيه، ولاسيما أن كثيراً مما دعت الرسل إليه هـو ممـا يـتعلق بمكـارم الأخـلاق، بـل قـد قال - عليه الصلاة والسلام-: (( إنما بعـثت لأتمم مكارم الأخلاق ))[1]، وإذا كان الله- عز وجل- قد نزه نفسه عن العبث، كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾[2]، فـدل هذا على أن إرسـال الرسل وإنزال الكتب إنما هو لإقامة الحجة على العباد، ولهدايتهم إلى ما ليس في وسعهم الوصول إليه، وتحقيق كمال الاهتداء إليه .

ثـم إن ممـا ينبغـي ملاحظـته أن الوصـول إلى الحق ليس هدفاً لذاته، بل هو وسيلة للأخذ به والوقوف عند حدوده. وعلى هذا فإنه على افتراض قدرة بعض العقـول علـى الوصـول إلى الكمـال في بـاب الأخـلاق، وتأهلـها لوضـع مـنهج للفـضيلة الخلقـية لغيرهـا، فـإن هـذا التـشريع لـن يجـد مـن البواعث على قبوله، والدوافـع للتـسليم لـه مـا يمـنحه القـدرة على الارتقاء بسلوك الناس، والنهوض بأخلاقهم إلى المستوى الكريم والمقام المناسب، كما يوجد هذا الباعث في منهج

---

(١) أخـرجه أحمـد والحـاكم والبخاري في الأدب المفـرد، الفتح الربانـي (٩/٧٥ ). وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٧٥).

(٢) سورة المؤمنون، الآيتين: [١١٥-١١٦].

الله – عز وجل– الذي يصل أثره إلى الهمم والعزائم – ترغيباً وترهيباً وإحاطة ومجازاة – [١] فضلاً عن الأعمال والتصرفات مما يتبين به وثوق الصلة بين معيار الفضيلة ومصدر الإلزام بها [٢].

وأخيراً فإن الأوامر والنواهي الخلقية في الإسلام جزء من بناء الإسلام العظيم الكامل، فإذا افترضناه إمكان الوصول إلى منهج خلقي قويم عن طريق العقل فإنه لا يمكن أبداً الوصول إلى ذلك في مسائل العقيدة والعبادة، وهذا يعني الحاجة إلى التسليم لله – عز وجل– والوقوف عند حدوده، ولا قيمة لهذا التسليم في جانب وطرحه والتخلي عنه في جانب آخر.

ولقد كان لضعف اعتداد مسكويه بالوحي، وتعويله على العقل معياراً للفضيلة الأثر البالغ في وصوله إلى نتائج لا يمكن التسليم بها، وآراء ليس لها من القوة ما يحمل على قبولها. فمن ذلك مبالغته في تقدير فضيلة العدالة حتى عدها القاعدة العامة للفضيلة الخلقية، فكل الفضائل في نظر مسكويه تعود إليها وتتصل بها[٣]. وقد أثار إشكالاً على هذه القاعدة يتعلق بمسألة التفضل، فذكر

---

(١) كما قال – عليه الصلاة والسلام –: (( إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف مضاعفة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة، فإن هم بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة )).

متفق عليه: رواه البخاري في كتاب الرقائق، باب من هم بحسنة أو سيئة. ومسلم في الإيمان، باب تجاوز الله تعالى عن حديث النفس.

(٢) يأتي إن شاء الله زيادة تقرير لهذه المسألة عن الحديث عن الإلزام.

(٣) تهذيب الأخلاق ص ١١٨.

أنه زيادة ولا يدخل تحت العدالة التي هي مساواة ثم أجاب عن ذلك بأن التفضل احتياط يقع من صاحبه في العدالة ليأمن به وقوع النقص [1].

وهذا محل نظر؛ لأن التفضل ليس مرتبط بالعدالة دائماً حتى يكون احتياطاً لها فهو قد يكون زيادة على الواجب، وقد يقع ابتداءً رغبة في ثواب الله -عز وجل- فهل في هذا إسراف يلام الإنسان على فعله ؟! هذا ما يؤدي إليه تحليل مسكويه، ويشهد لذلك قوله: (( إن من كان حاكماً بين قوم ولا نصيب له في تلك الحكومة لم يجز له التفضل، ولم يسمعه إلا العدل المحض والتسوية الصحيحة بلا زيادة ولا نقصان)) [2].

ولاشك أن الزيادة والتفضيل على أحد الطريفين على حساب الأخر أمر مرفوض عقلاً وشرعاً، وأما التفضل على أحد الطرفين مع عدم الجور على الآخر فليس هناك ما يمنع منه[3]، بل هو مما أرشدت إليه الشريعة، فقد جعل الإسلام للغارم من ماله لإصلاح ذات البين حقاً في الزكاة عوضاً له عما دفعه للطائفتين أو إحداهما، تنيبها على حسن ما قام به كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[4].

---

(١) المرجع السابق ص ١٢١.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٣.

(٣) جاء عن عمران بن حصين – ﷺ– أنه قضى على رجل بقضية فقال: ((والله قضيت علي بجور، وما ألوت. قال: وكيف؟ قال: شهد علي بزور. قال: فهو في مالي )) وكان عمران قاضياً من قبل عبيد الله بن زياد. انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى (٤/٢٨٧)، دار صادر- بيروت سنة ١٤٠٥هـ. سير أعلام النبلاء(٢/٥١٠) قال محققه: رجاله ثقات.

(٤) سورة التوبة، الآية [٦٠].

ثـم إن العدالـة في كـثير مـن صـورها لا تعـدو أن تكـون فعـلاً مأذونـاً فيه فحـسب وليـست بفـضيلة وإنمـا الفـضيلة الاتجاه إلى أحد الطرفين كما في مقام المعاملـة والمقابلـة بالمثل (( فالمعاملة بالمساواة رخصة لا يتوجه إليها أمر ولا نهي، ولا ينـاط بهـا مدح أو ذم، ولا يستحق صاحبها ثواباً ولا عقاباً ))[1]، كما قال الله تعـالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾[2] فأبـاح مقابلة الجاني بمثل جنايته، وهو العدل، ثم ندب إلى العفو وهو الفضل[3].

ولذا فالحق أن العدالة فضيلة من الفضائل المهمة، ولكن ليست قاعدة عامة للفضائل كلها.

- ومن ذلك أن مسكويه وهو يتحدث عن جملة من الفضائل ويؤكد وجوب الأخـذ بهـا، لا يـبين المقـدار والـواجب مـنها الذي يكون معه المرء عدلاً. يقول عن الشجاعة مثلاً: إنها الإقدام (( كما يجب، وبحيث يجب، وبالمقدار الـذي يجـب، وعلـى مـن يجب ))[4]، وهكذا يطلق مسكويه دون أن يحدد محلـها اللائـق بهـا، أو المقدار المحمود منها. وإذا كان قد جعل العقل معياراً لـذلك[5]، وجعل له ميزاناً يعنيه على الاختيار الأمثل، والوقوف على القدر المحمود، وهو التوسط والاعتدال، فقد صرح بأن وجود هذا الوسط صعب

---

(١) د.محمد عبد الله دراز: نظرات في الإسلام ص ٨٧، دار الأرقم، سنة، ١٣٩٢هـ.

(٢) سورة الشورى، الآية [٤٠].

(٣) عبد الرحمن بن سعدي: القواعد والأصول الجامعة ص ٥٤، مكتبة دار المعارف – الرياض سنة ١٤٠٦هـ وانظر: مدارج السالكين(٢/٤٥٨،٢٩٦).

(٤) تهذيب الأخلاق ص ١٦٦.

(٥) انظر: ماتقدم ص٢٤٥ .

جـداً، وأنـه يختلف من شخص إلى لآخر[1]. بل قد زاد على ذلك بالإقرار بعجـزه عـن تحديـد القـدر المحمـود مـن بعـض الأفعـال المباحة، ويقول عن المـزاح: "وأمـا المـزاح فـان المعـتدل منه محمود، وكان رسول الله - ﷺ - يمـزح ولا يقـول إلا حقـاً [2] .. ولكـن الوقـوف علـى المقـدار المعتدل منه صعب "[3].

وهكـذا لم يـستطيع مـسكويه نفـسه أن يستفيد من المعيار الذي اعتمده - وهـو العقـل - لإن الاسـتناد إلـيه في بـيان المقـدار الـواجب من الفضيلة الخلقية يـورث الاختلاف والتنازع؛ إذ ليس أحد يتعين الرجوع إليه، ويلقى قبولاً حال اعتماد حكمه.

وإذا كانـت الـشريعة لم ترسـم في كثير من الفضائل الخلقية حداً معيناً فإن قـواعدها دالـة علـى أن العرف معتبر في ذلك، وهذا ما قرره عامة أهل العلم[4] وأكـده ابـن القـيم بقوله: " الأسماء التي لا حدود لها في كلام الله ورسوله ثلاثة أنـواع: نـوع لـه حـد في اللغة كالشمس والقمر، والبر والبحر، والليل والنهار، فمن حمل هذه الأسماء على غير مسماها أو خصها ببعضه، أو أخرج منها بعضه فقـد تعدى حدودها. ونوع له حد في الشرع كالصلاة والصيام والحج والزكاة

---

(١) تهذيب الأخلاق ص٤٦.

(٢) رواه الترمذي في أبواب البر الصلة، باب ما جاء في المزاح من حديث أبي هريرة - ﷺ - ولفظه: قالوا: يارسول الله: إنك تداعبنا ؟ قال: إني لا أقول إلا حقاً.

(٣) تهذيب الأخلاق ص ١٦٧.

(٤) انظر: ابن تيمية: الفتاوى (١٥/٢٩) وما بعدها. القرافي (١٧٦/١- ١٧٧) دار المعرفة - بيروت.

والإيمان والإسلام والتقوى ونظائرها، .. ونوع له حد في العرف لم يحده الله ورسوله بحد غير المتعارف، ولا حد له في اللغة كالسفر المبيح للترخص، والشقاق الموجب لبعث الحكمين، والتراضي المسوغ لحل التجارة، والضرار المحرم بين المسلمين، وأمثال ذلك »[1]، ومنها النفقات الواجبة، كالنفقة على الزوجات والخدم، وصلة الأقارب، كلها غير مقدرة والمرجع في تقديرها إلى العرف[2].

ولاشك أن العرف - الذي قال به العلماء وارتضاه ابن القيم-هو الميزان الأسلم من غيره والأكثر قبولاً من كل ماسواه؛ لأنه يمثل الواجب للإنسان من الفضيلة الخلقية بالميزان نفسه الذي يحدد الواجب عليه، مع مساواته بغيره في ذلك كله. ثم هو أمر بما اعتاده الناس وألفوه فلا يلقى الأخذ به مشقة عليهم. وهو بعد ذلك أمر مستقر يمكن الوصول إليه والتعرف عليه؛ لأنه خارج عن التقديرات الشخصية التي تختلف وتتفاوت تفاوتاً عظيماً. ولذا كان العرف هو المعتمد في صلة القريب وإكرام الضيف والجار ونحوها مما دعت إلية الشريعة و لم تحد له حداً معيناً.

- ومن صور القصور في آراء مسكويه ما يظهر من حديثه عن قوتي الغضب والشهوة وبيانه للموقف الواجب منهما، وفي هذا يقول: « ينبغي لحافظ الصحة على نفسه أن لا يحرك قوته الشهوانية وقوته الغضبية بتذكر ما أصاب منهما فوجد لذته، بل يتركها حتى يتحركا بأنفسهما »[3] ويقول: «يجب أن لا يتذكر أعمال هاتين القوتين لئلا يشتاق إليها ويتحرك نحوها،

(١) إعلام الموقعين (١/٢٦٦).

(٢) زاد المعاد (٥/٤٩٠-٤٩١).

(٣) تهذيب الأخلاق ص ١٥٧- ١٥٨.

بـل يتركهمـا فإنها سيثوران لأنفسهما ويهيجان عند حاجتهما، ويلتمسان مـا يحتاج البدن إليه، ويتخذان مـن باعـث الطبيعة ما يغنيك عن بعثهما بالفكـر والـروية والتمييـز، فـيكون حينئذ فكرك وتمييزك في إزاحة علتهما، وتقديـر مـا تطلقـه لهمـا في الأمـر الـضروري الـواجب لأبدانـنا الحـافظ لصحتها))[1].

وهكذا يوصي مسكويه بعدم تحريك قوتي الغضب والشهوة أو توجيههما، بل يتركهما حتى تحركهما الطبيعة لتلبية حاجات النفس والبدن، ثم تأتي وظيفة العقـل في بـيان القـدر المناسـب الـذي ينبغـي أن تطلـق فـيه هاتـان القـوتان بعد هيجانهما.

**وفي هذا نظر من وجوه:**

**الأول:** أن الـواجب عـدم الانـسياق مـع دواعـي الطبـيعة الباعـثة علـى الغـضب، ومدافعـتها قـدر الاسـتطاعة، كما أرشد إلى ذلك النبي- عليه الصلاة والـسلام- بقـوله لمـن سـأله أن يوصيه: ((لا تغضب))[2]. قال ابن سعدي[3]: إن النهـي عـن الغضب (( يتضمن الأمر بفعل الأسباب والتمرن على حسن الخلق، والحلـم والـصبر، وتـوطين الـنفس علـى ما يصيب الإنسان من الخَلق من الأذى القولـي والفعلـي، فـإذا وفـق لهـا العـبد، وورد عليه وارد الغضب احتمله بحسن خلقه، وتلقاه بحلمه وصبره )) [4].

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٨.

(٢) رواه البخاري وسبق تخريجه.

(٣) عـبد الرحمن بن ناصر عبد الله السعدي التميمي، من علماء الحنابلة، له معرفة تامة بالفقه وأصـوله والتفـسير وغيرهـا. وله مصنفات نافعة في التفسير وغيره، ولد سنة ١٣٠٧ هـ، وتوفي سنة ١٣٧٦هـ في عنيزة من بلاد القصيم.
انظر: الأعلام (٣/٣٤٠).

(٤) ابـن سـعدي: بهجـة قلـوب الأبـرار وقرة عيون الأخيار ص ١٣٥، طبع مركز صالح بن صالح – بعنيزة، سنة ١٤١١هـ.

ومثله في الشهوة ، فقد أمر- عليه الصلاة والسلام- بالزواج لمن استطاعه، باعتباره المصرف المشروع واللائق بها، ثم ندب من لم يستطيع ذلك إلى الصوم ليدفع به جماح شهوته ويضعف دواعيها في النفس، وذلك في قوله -عليه الصلاة والسلام-: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1].

**الثاني**: أن الطبيعة الإنسانية قد تملي على الإنسان الغضب على من يقطعه عن شهواته أو يمنعه من لذاته، ولو كانت متضمنة للظلم والفساد، فهل يليق الانقياد مع هذا الغضب باعتباره من بواعث الطبيعة الإنسانية ؟ هذا مالا يمكن القول به.

**الثالث**: أن الفطرة البشرية غايتها في أحسن حالاتها أن تبعث على الغضب في حال الإخلال بفضيلة يتضمن الإخلال بها إلحاق ضرر بالغير، أو منع حق واجب لهم، ولكن ليس من شأنها أن تبعث على ذلك في حال إخلال الإنسان بفضيلة ذاتية لا صلة لها بالغير، أو مع تقصيره ببعض مستلزمات العبودية وواجباتها كأداء الصلاة والزكاة والصوم ونحوها، مما لا يكون لتعطيلها إضرار ظاهر بالغير، وإن كان من أعظم الظلم النفس، وأقبح صور التفريط في جنب الله -عز وجل- وحقه على عباده .

ولعل ابن القيم كان أكثر دقة في تناوله لهذه المسالة ومعالجته لها، فهو يرى أن الواجب في هاتين القوتين، وغيرهما من قوى النفس الفطرية، ضبطها

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري في النكاح، باب قول النبي ﷺ من استطاع الباءة فليتزوج، ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه....

وتعديلها، وصرفها في محالها اللائقة بها[1]. فالواجب أن يكون « غضبه لله وعلى أعدائه، وشهوته مستعمله فيما أبيح له، وعونا له على ما أمر به »[2].

وهذا ما دلت عليه سنة النبي- ﷺ -، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: « ما ضرب رسول الله- ﷺ - شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى، فينتقم لله- عز وجل- » [3].

---

(١) ابن القيم: التبيان في أقسام القرآن ص ٢٦٤. وانظر: مدارج السالكين (٢/ ٣١٤).

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٥ .

(٣) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام، واختياره من المباح أسهله.

# الفصل الثاني

# الإلـــزام الخـــلقي

# مدخل في مفهوم الإلزام

## الإلزام في اللغة:

الإلزام: هو الإيجاب والثبوت والدوام.

يقال: لزم الشيء لزوماً: ثبت ودام. وألزم الشيء: أثبته وأدامه. وألزم فلاناً الشيء: أوجبه عليه. والتزم الأمر: أوجبه على نفسه [1].

قال ابن فارس: (( لَزِمَ: اللام والزاء والميم أصل واحد صحيح يدل على مصاحبة الشيء بالشيء، يقال: لزمه الشيء يلزمه. واللِّزَام: العذاب اللازم للكفار))[2].

## الإلزام في الاصطلاح:

الإلزام بمعنى الإيجاب، واللازم هو الواجب. قال الجرجاني: ((اللازم: ما يمتنع انفكاكه عن الشيء)) وقال: (( اللازم في الاستعمال: بمعنى الواجب))[3]. والواجب عند الأصوليين: ما أمر به أمرًا جازمًا، وضابطه: أن فاعله موعود بالثواب وتاركه متوعد بالعقاب [4].

وأما الوجوب العقلي: فهو ما لزم صدوره عن الفاعل بحيث لا يتمكن من الترك بناءً على استلزامه محالاً [5].

---

(١) القاموس المحيط، فصل الواو، باب الباء وانظر: المعجم الوسيط مادة لِزمَ .

(٢) المعجم مقاييس اللغة مادة لِزمِ.

(٣) التعريفات ص ٢٤١-٢٤٢.

(٤) الشنقيطي: مذكرة أصول الفقة ص ١٠، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة. وانظر: الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام (٩٧/١)، تعليق عبد الرازق عفيفي، المكتب الإسلامي ط٢ سنة ١٤٠٢هـ. المستصفى (٦٦/١).

(٥) التعريفات ص ٣٠٦ .

وفي الفلسفة: يعرف اللازم (والواجب) بأنه: ما ينبغي عمله دون قسر أو إرغام[1].

والتعبير عن اللازم أو الواجب بهذا المعنى صرف للفظ عن حقيقته ومدلوله في اللغة، وعن معناه في الاصطلاح والاستعمال. فالواجب واللازم لا يستعملان إلا فيما يتعين على المرء الأخذ به ويستحق المؤاخذة على تركه؛ لأن الوجوب واللزوم يستقيان من أمر يتضمن طلباً للفعل ومنعًا من تركه. والمنع من الترك جزء من حقيقة الوجوب فلا يوجد الوجوب بدونه وإلا لما كان واجباً [2].

وعلى هذا فما ذكر من معنى للإلزام والوجوب في الفلسفة هو لائق بالمندوب إليه والمرغوب في فعله، الذي يكون للمرء سعة في الأخذ به أو عدمه مع ترجيح جانب الفعل.

**خلاصة معنى الإلزام:**

مما تقدم يمكن أن يقال في تعريف الإلزام: إنه تكليف ممن هو قادر على الأمر والنهي ثم مجازاة للمكلف على موقفه من ذلك التكليف.

وهو في باب الأخلاق: أمر بالفضيلة الخلقية بمعنى وضع تشريع خلقي، وتكليف الإنسان الأخذ به والعمل بمقتضاه، مع مسؤوليته عن هذا التكليف، وجزاء متوافق مع موقفه منه.

---

(١) المعجم الفلسفي ص ٢٠٩، ٢٠.

(٢) انظر: محمد أبو النور زهير: أصول الفقه (١/١٣٧، ١٢٧)، مكتبة الفيصلية — مكة المكرمة، سنة ١٤٠٥هـ.

وبيان هذا أن الأمر المجرد عن القدرة على المجازاة ليس أمرًا ملزمًا ولا يحق وصفه بالإلزام[1]، وإنما هو دعوة وترغيب. فهذا الشيطان قد أخبر الله -عز وجل- عنه أنه يأمر بالفساد، كما حكى الله -عز وجل- عنه قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾[2]. ثم أخبر تعالى في الآية التي بعدها أن غايته الوعود والأماني، فقال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[3] وذكر في آيات أخر أن عمله إنما هو الدعوة والتزيين، وأنه لا يملك حجة قاطعة أو قوة قاهرة، فقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[4]، وقال تعالى حكاية عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾[5].

ثم إنه ليس كل جزاء يمكن أن يمنح المأمور به صفة الإلزام، بل هو الجزاء المؤثر[6] الذي يبعث في عموم الناس مشاعر الرغبة والرهبة منه.

وعلى هذا فالضمير[7] مثلاً وإن أشعر بشيء من المسؤولية فإن الجزاء الذي يمنحه القوة والتأثير والفاعلية مفقود أو ضعيف، وحتى على القول بأن الضمير

---

(١) ويلاحظ هنا ما ذكره الأصوليين من تعرف للمندوب، فقد قالوا: إنه المطلوب فعله من غير ذم على تركه مطلقاً. الآمدي: الأحكام (١١٩/١).

(٢) سورة النساء، الآية [١١٩].

(٣) سورة النساء، الآية [١٢٠].

(٤) سورة النمل، الآية [ ٢٤].

(٥) سورة إبراهيم، الآية [ ٢٢ ].

(٦) يمكن أن يقال بيان الجزاء المؤثر: إنه الجزاء الذي يتضمن وعداً بالإثابة أو وعيداً بالعقوبة – من قادر على إنفاذه – بدرجة كافية لحفز الناس على فعل ما يجب وترك ما يحرم.

(٧) لأن هناك من اعتبره مصدراً للإلزام الخلقي، كما سيأتي قريباً.

يثيب على فعل الخير بالارتياح والطمأنينة، ويعاقب على فعل الشر بالتأنيب والندم، فإن هذا الأثر لا يصل إلى مرتبة الجزاء الذي يمنح الفضيلة صفة الإلزام.

**مصادر الإلزام الخلقي:**

اختلف الباحثون في الأخلاق من الغربيين في تحديد مصدر الإلزام بالفضيلة الخلقية. فذهب العقليون إلى أن العقل هو القوة الموجهة للناس إلى الخير والملزمة لهم بالفضيلة، والمنفرة لهم عن الشر والرذيلة [(١)].

وأما الحدسيون فقد جعلوا الضمير منبع الإلزام بالفضيلة الخلقية، فهو يأمر بالخير ويثيب عليه بالارتياح والطمأنينة، وينهي عن الشر ويعاقب عليه بالتأنيب والندم [(٢)].

وأما أنصار المذهب الوضعي فذهبوا إلى أن المثل العليا وليدة المجتمع، والمجتمع أو العرف الاجتماعي هو الملزم للأفراد بالفضيلة الخلقية[(٣)].

وفي البيئة الإسلامية، ذهب المعتزلة إلى أن العقل مصدر من مصادر الإلزام، فالناس عندهم مكلفون قبل ورود الشرع، وعلة هذا الإلزام عند المعتزلة، أن الأفعال حسنة وقبيحة في ذاتها، والعقل يدرك ذلك في جملة الأفعال، ومنها مكارم الأخلاق، ويحكم باستحقاق فاعلها -بناءً على ذلك- الثواب أو العقاب من الله -عز وجل-[(٤)].

---

(١) انظر: د. محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن ص ٢٧-٢٨.

(٢) انظر: محمد يوسف موسى: فلسفة الأخلاق في الإسلام ص ١٣٨.

(٣) الفلسفة الخلقية ص ٢٧٠ .

(٤) انظر: الملل والنحل(٤٥/١). فواتح الرحموت (٢٥/١). مدارج السالكين (٢٣١/١).

وأما جمهور سلف الأمة فيثبتون الحسن والقبح العقليين - ويقولون - الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة، ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي، وقبل ورود الأمر والنهي لا يلزم من فعل القبيح منها أن يكون فاعله معاقباً في الآخرة [١].

وقول أهل السنة هو مقتضى نصوص الشريعة الدالة على أن الحجة إنما قامت بالرسل- عليهم الصلاة والسلام-، وأنه لا ثواب ولا عقاب إلا بعد إرسال الرسل.

كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٣] قال ابن كثير: في الآية (( إخبار عن عدل [ الله تعالى] وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسل إليه ))[٤]. وفي هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع[٥].

(١) انظر: ابن تيمية: الرد على المنطقيين ص ٤٢١، ومجموع الفتاوى ( ٤٢٨/٨) وما بعدها.

(٢) سورة النساء، الآية [١٦٥].

(٣) سورة الإسراء، الآية [١٥].

(٤) ابن كثير: تفسير القران العظيم (٢٨/٣).

(٥) القرطبي: الجامع لأحكام القران (٢٣١/١٠). وتأتي زيادة تقرير لهذا عند الحديث عن الإلزام الخلقي عند ابن القيم.

# المبحث الأول
# الإلزام الخلقي عند مسكويه

يذهب مسكويه إلى لزوم الأخذ بالأخلاق الفاضلة؛ لأنها الطريق إلى تحقيق سعادة الأفراد، والسبيل إلى تعايش الناس بسلام، وحصول الألفة والتواد بينهم، وسلامتهم من التباغض والتنافر، وإيذاء بعضهم بعضًا..

فالصبر واجب على ما يجب أن نصبر عليه، وكذا الحلم عمن ينبغي أن نحلم عنه، والشجاعة متعينة في المحل اللائق بها [١].

وكذا مشاركة الصديق في السراء واجبة، وهي في الضراء أوجب وموقعها عنده أعظم [٢].

وفي المقابل، فالغضب وهو المنبع لفضيلة الشجاعة لا يجوز صرفه في غير موضعه أو على من لا يستحقه أو زيادة على ما يجب منه[٣].

وهكذا يمضي مسكويه في تحليله للفضائل مؤكدًا وجوب الأخذ بها والعمل بمقتضاها.

وأما مصدر الإلزام بالفضيلة الخلقية عند مسكويه فهو العقل، وذلك لأن العقل مهيأ للوصول إلى معرفة الفضيلة التي جاء بها الوحي[٤]، ولما يلمس فيه من ميل لها وبعث عليها. ولكن يرتفع هذا البعث عند مسكويه إلى حد الإلزام، ولذا جعل العقل مصدرًا للإلزام بالفضيلة الخلقية.

---

(١) انظر: تهذيب الأخلاق ص ١٦٦.

(٢) لمرجع السابق ص ١٤٣.

(٣) لمرجع السابق ص ١٥٩.

(٤) سبق تقرير هذا الحديث عن المعيار عنده.

**وقد جاء تأكيده لهذا الأمر في مواضع:**

- فمن ذلك قوله عن فضيلة الحكمة والتي منبعها المعرفة العقلية: إن من ثمارها على النفس الإنسانية «أن تعرف المعقولات أيها يجب أن يفعل وأيها يجب أن يغفل» [١].
- ومنها أن الفضائل الرئيسة، ومنها العفة والشجاعة إنما تظهر في الإنسان بحسب انقياده للنفس العاقلة، والوقوف عند حدودها، والسير وفق هديها، يقول مسكويه: «النفس العاقلة إذا عرفت شرف نفسها وأحست بمرتبتها من الله -عز وجل-، أحسنت خلافته في ترتيب هذه القوى وسياستها، ونهضت بالقوة التي أعطاها الله تعالى إلى محلها من كرامة الله تعالى ومنزلتها من العلو والشرف، ولم تخضع للسبعية ولا للبهيمية بل تقوّم النفس الغضبية التي سميناها سبعية وتقودها إلى الأدب بحملها على حسن طاعتها، ثم تستنهضها في أوقات هيجان النفس البهيمية وحركتها إلى الشهوات، حتى يقمع بهذه سلطان تلك، وتستخدمها في تأديبها وتستعين بقوة هذه على تأبى تلك»[٢]. وهذا يعنى أن العقل يصدر أمرًا يلزم اعتباره لتحصيل الفضيلة، بل إن تحصيلها متوقف على الالتزام بهذا الأمر.
- ومنها أن طاعة العقل في أمره ونهيه هي السبيل إلى الخلاص من الإيغال في اللذات البدنية المؤدية إلى الوقوع في الرذيلة، يقول مسكويه: «نحن بالجبلة الأولي والفطرة السابقة إلينا نميل إليها { اللذات البدنية } ونحرص عليها،

---

(١) تهذيب الأخلاق ص٤٠.

(٢) المرجع السابق ص ٦٧-٦٨. وانظر: ص ١٦٦،٣٨.

وإنما نزم أنفسنا عنها بزمام العقل حتى نقف عند ما يرسم لنا، ونقتصر على المقدار الضروري منها » [1].

- كما قرر مسكويه مصدرية العقل للإلزام الخلقي عندما تحدث عن الفضائل الواجبة بين الناس على اختلاف منازلهم، والتي يتعين الأخذ بها لضمان انتظام أمورهم، وتحقيق مصالحهم، فقال: « يجب (على المرء) أن يكرم الأب كرامة أبوية، ويكرم السلطان كرامة سلطانية، ويكرم الناس بعضهم بعضًا كرامة أخوية. ولكل مرتبة من هذه استئهال خاص بها، واستحقاق واجب لها، فإذا لم يحفظ بالعدالة زاد ونقص وعرض لها الفساد... ويؤول الأمر إلى الهرج الذي هو ضد النظام الذي رتبه الله لخلقه ورسمه بالشريعة، وأوجبه بالحكمة البالغة » [2].

وبعد هذا كله فإن مسكويه يميل إلى الرأي القائل بأن المعرفة تستلزم الفضيلة، أي أن العلم بالفضيلة يستلزم العمل بها.

وحيث إن العقل -عند مسكويه- مصدر المعرفة ومعيار الفضيلة، فإن هذا يستلزم أن يكون العقل هو مصدر الإلزام بها.

يقول مسكويه مقررًا أن المعرفة هي الفضيلة، وأن المرء لا يفعل الشر وهو عالم به: « من عرف سيرة الخير وعلو مرتبته فهو لا محالة يختار لنفسه أفضل السير وأكرم الخيرات » [3]. ويقول: « إن الإنسان إذا علم أن هذه الأشياء {شهوات النفس الحسية} ليست فضائل، بل هي رذائل تجنبها وكره أن

---

(1) المرجع السابق ص ١٥٢.

(2) المرجع السابق ص ١٣٣.

(3) المرجع السابق ص١٣٨.

يوصف بها. وإذا ظن أنها فضائل لزمها وصارت له عادة »[1]. فإقدامه على الرذيلة لا يتأتى مع علمه بكونها كذلك، ولكن لسوء اختياره وخطأ تقديره حيث ظن الرذيلة فضيلة، أو لغلبة قوة الغضب أو الشهوة «والقوة التي تهيج به {الإنسان} تدعوه إلى ارتكاب فعل يظنه في تلك الحال صالحًا له جميلاً به، لتتم له حركة القوة الهائجة به، فإذا سكن عنها وراجع عقله رأى قبح ذلك الفعل وفساده »[2].

أما موقف مسكويه من الأوامر والنواهي الخلقية في الكتاب والسنة، فإن الظاهر من أقواله وتحليلاته، أنها تحدد معالم الطريق السوي، وسبيل السعادة الخلقية[3]. ولكنها لا ترقى إلى مستوى الإلزام. يدل على هذا أنه يرى أننا يجب أن نفعل الفضيلة لذاتها لا لشيء آخر، ولو كان الرغبة في ثواب الله -عز وجل- أو الخوف من عقابه، والذي هو الركن الأعظم لتحقيق الفضيلة وقيام سوقها، والتزام الناس بها، والذي بإهماله أو عدم الاعتداد به يسقط ركن الإلزام. وعليه فلا تعدو الفضيلة المأمور بها في القرآن والسنة عن كونها أمرًا مندوبًا إليه، أو مرغبًا في فعله. يقول مسكويه: «أما العادل بالحقيقة فهو الذي يعدل قواه وأفعاله وأحواله كلها حتى لا يزيد بعضها على بعض، ثم يروم ذلك في ما هو خارج منه من المعاملات والكرامات، ويقصد في جميع ذلك فضيلة العدالة نفسها لا غرضًا آخر سواها »[4]. ويقول: « إنما يسمي عفيفاً على الحقيقة من وفّى العفة حدها المذكور فيما تقدم واختارها لنفسها لا لغرض آخر

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٠.

(٣) كما تقدم تقريره عند الحديث عن معيار الأخلاق عنده.

(٤) تهذيب الأخلاق ص ١٠٨.

غيرهـا، وآثـرها لأنهـا فـضيلة، ثم تناول كل واحدة من شهواته بمقدار الحاجة، ومن الوجه الذي ينبغي، وفي الوقت الذي ينبغي وعلى الحال الذي ينبغي »[1].

أخـيراً فـإن مسكويه قد أشار إلى مصدر آخر للإلزام بالفضيلة، وهو الإمام أو الحـاكم، إذ هو يأمر بالأخلاق الفاضلة، وينهى عن الأخلاق الرديئة ويعاقب مـن اقترفهـا. وهـو في هذا العمل يخلف صاحب الشريعة في إقامة العدل وتحقيق المـساواة. يقول مسكويه: « الإمام الحـاكم العادل بالسوية يبطل هذه الأنواع – مـن الجـور والظلـم ممـا يكون في البيع والشراء، ومثل السرقة والفجور وشهادة الزور– ويخلف صاحب الشريعة في حفظ المساواة »[2].

وليس مقصوده في كون الحاكم يخلف صاحب الشريعة، أي أنه يقيم العدل على أساسـها، ولكـن مـراده أن الحـاكم يقيم العدل كما أن الشريعة دالة عليه وهاديـة لـه؛ لأن الأحـق بـالحكم عـند مـسكويه هـم الفلاسـفة الحكمـاء الذين يحكمـون الـناس وفـق حكـم العقـل وتوجـيهه وهديـه. يقول مسكويه نقلاً عن أرسـطو: « العامـة تـؤهل لمـرتبة الإمامـة التي هي الخلافة، العاملة بما ذكرناه من كـان شـريفاً في حـسبه ونـسبه، وبعضهم يؤهل لذلك من كان كثير المال. وأما العقلاء فإنهم يؤهلون لذلك من كان حكيمًا فاضلاً، فإن الحكمة والفضيلة هي الـتي تعطـي الرياسـات والـسيادات الحقيقـية، وهـي الـتي رتـبت الثانـي والأول مرتبتهما وفضلتهما على سائر الناس »[3].

وهكـذا يـرجع الأمـر أولاً وآخرًا إلى العقل منبعًا للمعرفة، معيارًا للفضيلة، ومصدرًا للإلزام.

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٣.

(٢) المرجع السابق ص ١١١.

(٣) المرجع السابق ص ١١٢.

## المبحث الثاني
## الإلزام الخلقي عند ابن القيم

يقرر ابن القيم أن للأفعال صفات ذاتية حسنة وقبيحة، وأن العقل يدرك ذلك في جملة الأفعال لا في جميعها[1]. ولكن لا يُرتب على هذه المعرفة العقلية وجوب العمل بمقتضاها، واستحقاق الثواب والعقاب بناءً عليها، كما ذهب إلى ذلك المعتزلة. ويؤكد أن مصدر الإلزام في الإسلام هو الوحي الذي ثبت به الأمر والنهى، والثواب والعقاب.

وقد استدل على نفي الوجوب العقلي الذي قال به المعتزلة بالآيات الدالة على عدم مؤاخذة الناس قبل أن تبلغهم دعوة الرسل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[4].

قال ابن القيم: ((وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذب من جاءه الرسول، وقامت عليه الحجة))[5]. ويقول: ((الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة)). ولكن لا يترتب عليها ثواب وعقاب إلا بالأمر والنهي. وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون قبحها موجبًا للعقاب مع قبحه في نفسه، بل هو في غاية القبح. والله لا يعاقب إلا بعد إرسال الرسل ))[6].

---

(١) انظر: ما تقدم ص ٢٥١ .

(٢) سورة الاسراء ، الآية [١٥] .

(٣) سورة النساء ، الآية [١٦٥] .

(٤) سورة الملك ، الآيتين [٨-٩]

(٥) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٥٤٦ .

(٦) مدارج السالكين ( ٢٣١/١ ) .

وإذا كان ابن القيم يقول بالوجوب العقلي بجانب الوجوب الشرعي في بعض مسائل الدين، كالتوحيد الذي يرى أن « الصواب وجوبه بالسمع والعقل »، فإن هذا الوجوب العقلي معناه « اقتضاء العقل فعله، وذمه على تركه، وتقبيحه لضده »[1]. وهذا في واقع الأمر غير كاف في إضفاء صفة الإلزام على هذا الإيجاب العقلي لفقده عنصرًا رئيسًا من عناصر الإلزام وهو الجزاء المؤثر، وهو ما جاء به الشرع، فإن الشرع يثبت هذا الذي دل عليه العقل« ويزيد: إثبات العقاب على تركه، والإخبار عن مقت الرب تبارك وتعالى لتاركه وبغضه له» [2].

وعلى هذا فالإيجاب العقلي -عند ابن القيم- دعوة وترغيب لما يدرك العقل حسنه، ونهي وتنفير عما يحكم العقل بقبحه.

وأما عن صلة الفضيلة بالمعرفة، فإن ابن القيم يؤكد أهمية العلم، ولزومه لمعرفة الفضيلة الخلقية. ولكنه يرفض القول بالتلازم بين المعرفة والسلوك [3]. فالعلم ليس كافيًا وحده للأخذ بالفضائل والعمل بموجبها. يقول

---

(١) المرجع السابق (٣/٤٩٠).

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) ناقش – رحمه الله – هذه المسألة في كتابه مفتاح دار السعادة (١/٨٨ -١٠٠)، فذكر أن المتكلمين وأرباب السلوك اختلفوا في العلم: هل يقضي الاهتداء ولا يتخلف عنه إلا لعدم العلم أو نقصه، أم أنه لا يستلزم الهدى، فقد يكون الرجل عالمًا وهو ضال على عمد ؟ وأطال في ذكر أدلة الفريقين. وانتهى إلى القول: إن العلم لا يقتضي الاهتداء الاقتضاء التام الذي لا يختلف عنه أثره، بمعنى أنه يستلزمه استلزام العلة التامة لمعلولها. ولكن العلم يقتضيه اقتضاء غير تام، بمعنى أنه سبب للاهتداء وقد يختلف عنه لقصوره أو فوات شرط أو قيام مانع.

مبيناً أهمية العلم: « إن العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له مؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديًا به فهو غير نافع لصاحبه، بل مضرة عليه» [1]. ويقول عن ضده وهو الجهل: « الجهل أصل كل فساد. وكل ضرر يلحق بالعبد في دنياه وأخراه فهو نتيجة الجهل »[2].

ورغم هذه الأهمية البالغة للعلم، والأثر السيء لفقده، فإن وجوده لا يستلزم العمل به. يقول ابن القيم: « تفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لا يعلمها، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه، وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وهو الصراط المستقيم وإن عجز عنه. وما يقدر عليه قد لا تريده { نفسه} كسلاً وتهاوناً، أو لقيام مانع وغير ذلك، وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله » [3]. ويقول: « إن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وأخراه ولابد، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة، وبالتسويف بالتوبة، وبالاستغفار باللسان تارة ... » [4].

ولذا فإن الطريق إلى تحقيق الكمال في الناس يقوم - كما يرى ابن القيم- على ركنين رئيسين هما: العلم بالفضيلة، والإرادة والمحبة لها. ولابد من اجتماعهما لتحصيل ذلك. يقول ابن القيم: « كمال كل إنسان إنما يتم بهذين النوعين: همة ترقيه، وعلم يبصره ويهديه. فإن مراتب السعادة والفلاح إنما

---

(١) مفتاح دار ا لسعادة (١/٨٢).

(٢) المرجع السابق (١/٨٧-٨٨).

(٣) الجواب الكافي ص ١٣١، دار الندوة الجديدة – بيروت ١٤٠٧ هـ.

(٤) المرجع السابق ص ١٩-٢٠.

تفوت العبد من هاتين الجهتين أو من إحداها. إما أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها، أو يكون عالمًا بها ولا تنهض همته إليها »[1].

وإذا كان مصدر الإلزام -عند ابن القيم- هو الوحي، فإنه يرى أن هناك أمورًا تعين على تحقيق الالتزام في الناس. وتتمثل في دواعي الفضيلة من داخل النفس، ومنها الإيمان، والعقل، والفطرة. والبواعث عليها من الخارج ومنها رقابة المؤمنين، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والعقوبات من ولي الأمر[2]. هذه البواعث تسعي مجتمعة في غرس الفضيلة في النفوس، وتحقيقها في واقع الناس.

(١) مفتاح دار السعادة (٤٦/١). وانظر: (١٢٢/٢).

(٢) يأتي بيان ذلك إن شاء الله في المبحث الثالث، بذكر أقواله في أهم هذه البواعث.

# المبحث الثالث
# المقارنة والتقويم

لما كان الإلزام تشريعًا يتضمن أمرًا بالفضيلة ونهيًا عن ضدها، فإن مصدره في الإسلام هو الوحي، ذلك أن التشريع حق الله -عز وجل-، فهو وحده المستحق لذلك والقادر عليه [(١)]، قال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾[(٣)].

ثم إنه قد دلت النصوص الشرعية على قيام العذر للعباد قبل إرسال الله -عز وجل- إليهم رسله هداة مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[(٤)]، فقامت بذلك الحجة على العباد وصار لزامًا عليهم الأخذ بما دعت إليه الرسل، ومن ذلك ما أمروا به من مكارم الأخلاق. وهذا يدل على نفي ما ذهبت إليه المعتزلة من الوجوب العقلي [(٥)].

والإلزام في الإسلام - وإن كان منبعه الوحي- فإنه يقوم على جملة من العناصر تتضافر جميعًا، ويكمل بعضها بعضًا، فتتحقق بها مجتمعة سيادة الفضيلة، وانبعاث الناس إليها، واضمحلال الرذيلة وتباعد الناس عنها، وسيكون الحديث في هذا المبحث عن أهم هذه العناصر وهي: الإيمان، والعقل، والسلطان.

---

(١) انظر: ما تقدم في الحديث عن معيار الأخلاق ص٢٥٦ .

(٢) سورة الأنعام، الآية [٥٧]. يوسف الآيتين [ ٤٠،٦٧].

(٣) سورة الجاثمة، الآية [١٨] .

(٤) سورة النساء، الآية [ ١٦٥].

(٥) انظر: ما تقدم ص٢٧٤ .

وعناية الإسلام بهذه العناصر جميعًا وحرصه على اغتنامها وتسخيرها لتحقق في الناس الالتزام بشرع الله، مظهر من مظاهر عظمة هذا الدين، وصدوره عن الله العليم بخلقه الخبير بأحوالهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (1).

## أولاً: الإيمان:

إن للإيمان الصحيح سلطانًا على النفوس، فهو يحملها على كل فضيلة ويدفعها إلى كل خير، وبقدر قوته وحياته في القلب يكون انبعاث صاحبه إلى الطاعة وبعده عن المعصية؛ لأن حقيقة الإيمان: «التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله به، والانقياد ظاهرًا وباطناً» (2).

وقد جاءت الدعوة إلى الإيمان في القرآن والسنة مقرونة بذكر الآثار العاجلة والآجلة للاستجابة له، والعمل بمقتضاه. فغرست في القلوب المحبة، ونمت في النفوس الإرادة. كما حرك الإيمان في النفوس نوازع الرغبة والرهبة بذكر النعيم والعذاب، والجنة والنار. فكان لذلك بالغ الأثر في بعث النفوس إلى الخير والفضيلة وصدها عن الشر والرذيلة.

ومما يؤكد أهمية الإيمان أن جملة من الممارسات الخلقية لا تقوم إلا على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر. فكثير من الأخلاق الكريمة التي تغرس في المجتمع معاني الأخوة ومشاعر المحبة والرحمة ليس لها - في الغالب- من دافع إلا رجاء ثواب الله والخوف من عقابه. فالصبر على الظلم مع القدرة على رده، ومقابلة الإساءة بالإحسان، والإنفاق على ابن السبيل وغيره ممن لا يرجى منه

---

(1) سورة الملك، الآية [١٤].

(2) ابن سعدي: التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ص ٩، مكتبة المعارف – الرياض ١٤٠٦هـ.

نفع أو ينتظر منه جزاء، وغيرها كثير.. كلها لا باعث لها إلا الإيمان، ولذا تضمحل أو تنعدم في المجتمعات التي يخفت فيها الإيمان أو ينمحي أثره.

وإذا كان مسكويه قد أغفل بيان أهمية الإيمان وأثره في التوجيه للفضائل والترغيب فيها، فقد أكد ذلك ابن القيم في مواضع عدة، فمن ذلك قوله: «الإيمان هو روح الأعمال، وهو الباعث عليها، والآمر بأحسنها والناهي عن أقبحها. وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وائتمار صاحبه وانتهاؤه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]. وبالجملة: فإذا قوي الإيمان قوي الشوق إلى هذه الحياة { الحياة الآخرة } واشتد طلب صاحبه لها »[2]. ويقول أيضًا: « الإيمان الحقيقي هو الذي يحمل صاحبه على فعل ما ينفعه، وترك ما يضره، فإذا لم يفعل هذا، و لم يترك هذا، لم يكن إيمانه على الحقيقة، وإنما معه من الإيمان بحسب ذلك. فإن المؤمن بالنار حقيقة الإيمان حتى كأنه يراها لا يسلك طريقها الموصلة إليها، فضلاً عن أن يسعى فيها بجهده، والمؤمن بالجنة حقيقة الإيمان لا تطاوعه نفسه أن يقعد عن طلبها » [3].

---

(١) سورة البقرة، الآية [٩٣].

(٢) مدارج السالكين ( ٣/٢٨٤ ). وانظر: تهذيب سنن أبي داود حاشية على عون المعبود (١٣/١٣١).

(٣) إغاثة اللهفان (٢/١٣٧- ١٣٨).

وعلى هذا فالإيمان من أقوى البواعث على الأخذ بالأخلاق الفاضلة. ولكن الإيمان- أوقوة الإيمان- ليس مصدر إيجاب للفضائل أو إلزام بها[1]. لأن الإيمان ذاته مما ألزم الله -عز وجل- به، ودعا عباده إليه، قال تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[3]. ولا يمكن أن يوجد الإيمان التام الباعث على الفضيلة بعمومها لولا الوحي الآمر به والداعي إليه، فوجب إسناد الإيجاب والإلزام إليه لأنه أساسه ومنبعه.

ثم إن من صفات اللازم: الثبات والاستقرار والدوام، وهذا لا يتحقق في الإيمان، وما يلزم به -عند من يقول به- لأن المقرر عند جماهير العلماء أن الإيمان يزيد وينقص[4]، ويتفاوت تفاوتاً عظيمًا من شخص لآخر، بل وفي الشخص الواحد من وقت لآخر، ويترتب على هذا أن يكون اللازم متفاوتاً من فرد لآخر، ومن وقت لآخر تبعًا للتفاوت في مصدره قوة وضعفاً. وهذا يعنى عدم استقرار الواجب من الفضيلة الخلقية تبعًا لذلك.

ولذا فإن الأظهر أن يقال: إن مصدر الإلزام بالفضائل الخلقية في الإسلام هو الوحي، والإيمان أعظم البواعث على الالتزام بها.

---

(١) كما ذهب إلى هذا د. محمد عبد الله عفيفي، وجعله مذهباً لشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابة النظرية الخلقية عن ابن تيمية ص ٨١، طبع مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات – الرياض ط١ سنة ١٤٠٨ هـ.

(٢) سورة الحديد، الآية [٧].

(٣) سورة الأعراف، الآية [١٥٨].

(٤) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٨٤، طبع المكتب الإسلامي – بيروت ط٦ سنة ١٤٠٠هـ.

## ثانيًا: العقل:

لما كانت القيم الخلقية صفات ذاتية في الأقوال والأفعال، يمكن أن يهتدي المرء إلى جملتها بعقله وفطرته. كما أنه يلمس آثارها الخيرة في نفسه، وفي الآخذين بها من حوله، فإنه يجد لذلك ميلاً لها ورغبة في العمل بمقتضاها. وهذه الرغبة قد تصل إلى درجة الأمر[1]، كما جاء الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [2].

ولكن ليس لهذا الأمر العقلي من العموم ما يصل به إلى كل الفضائل المهمة لتحقيق حياة فردية واجتماعية مستقرة، لقصور مصدره -وهو العقل- عن بلوغ الكمال في المعرفة والإدراك لذلك.

كما أن ليس له من الشمول ما يضمن انبعاث الجميع بنفس الدرجة من القوة إلى الممارسات الخلقية الفاضلة، لتفاوت الناس في عقولهم الآمرة لهم بذلك.

وأهم من هذا كله أن مجرد الأمر ما لم يستند إلى قدرة مؤثرة على الجزاء والمؤاخذة، فإنه لا يخرج في حقيقته عن دائرة الحفز والترغيب.

ولذا فغاية العقل أن يكون من البواعث على الأخلاق الكريمة.

وإذا كان مسكويه قد بالغ في تصوير أثر العقل حتى جعله مصدرًا للإلزام الخلقي، فإن هناك من قابله بنقيض قوله، كما فعل الغزالي الذي لم ير للعقل أدني أثر إيجابي في الحمل على الفضائل، بل تقتصر وظيفته -عنده- على المعرفة والإدراك [3].

---

(١) انظر: دستور الأخلاق في القرآن ص ٢٧.

(٢) سورة الطور، الآية [٢٢].

(٣) يقول الغزالي في معرض رده على المعتزلة القائلين بالوجوب العقلي (( لقد غلطتم في قولكم العقل داع، بل العقل هاد، والبواعث والدواعي من النفس تابعة لحكم العقل )) المستصفى (١/٦١). وانظر: كتابه ميزان العمل ص ٤٠، دار الكتاب العربي – بيروت، سنة ١٣٩٩هـ.

وأما ابن القيم فإنه يرى أن في النفس دواعي فطرية، فمنها ما يدعو إلى الخير والفضيلة، ومنها ما يدعو إلى الشر والرذيلة. فالقلب والعقل داعيان إلى الخير، والنفس داعية إلى الشر، يقول ابن القيم: (( إن في النفس ثلاثة دواع متجاذبة: داع يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الشيطان: من الكبر والحسد والعلو والبغي. وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان، وهو داعي الشهوة. وداع يدعوها إلى أخلاق الملك: من الإحسان، والنصح، والبر، والعلم، والطاعة )) [1]. ويقول: إن الله (( سبحانه خلق فيه {في الإنسان} العقل والشهوة ونصبهما داعيين بمقتضياتهما ليتم مراده، ويظهر لعباده عزته وحكمته وجبروته ورحمته وبره ولطفه في سلطانه وملكه )) [2]. يقول عن النفس إنها (( تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا)) [3].

ويقول مؤكدًا دعوة العقل للفضيلة وأمره بها (( ما شرع الله شيئاً فقال العقل السليم ليته شرع خلافه، بل هي متعارضة بين العقل والهوى، والعقل يقضي بحسنها، ويدعو إليها ويأمر بمتابعتها جملة في بعضها وجملة وتفصيلاً في بعض. والهوى والشهوة قد يدعوان غالباً إلى خلافها )) [4].

وبالجملة فإن ابن القيم يرى أن أثر العقل يرقى إلى البعث على الفضيلة، كما يرقى أثر النفس إلى الدعوة إلى الرذيلة.

---

(١) مدارج السالكين (٢/٣٥١ -٣٥٢).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/٦). انظر: المرجع السابق (٢/٨٢،٨١،٣٥٢).

(٣) إغاثة اللهفان (١/٧٥).

(٤) مفتاح دار السعادة (٢/٨١-٨٢).

وأما عن كونه عنصرًا من عناصر الإلزام في الإسلام، فذلك لأن له بعد اهتدائه بنور الوحي شأناً آخر في إدراكه للفضائل من جهة، وفي بعثه إليها من جهة أخرى. فقد جاء الوحي بتكميل العقل فكشفت له نصوص الشرع «ما خفي عليه وقصر عن إدراكه، وسلكت به طريق الحق وهدته إلى سواء السبيل»[1].

ومن مظاهر هذه الهداية ما جاء في الكتاب والسنة من بيان للآثار الخيرة للأخلاق الفاضلة، والآثار السيئة لأضدادها، كقوله تعالى: ﴿ **ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ** ﴾[2].

- ومن ذلك ما جاء فيهما من ضرب للأمثال، ومن قصص وأخبار عن الأمم المتقدمة، عن أخلاقها وأفعالها، ثم عن مصائرها وعواقب أمورها، مع دعوة للعقل إلى القياس والنظر والاعتبار.
- ومن ذلك أيضًا ما جاءت به الشريعة من قواعد وضوابط تسهل على العقل - إذا سار في ضوئها- معرفة الحكم الشرعي في الوقائع المختلفة والمتجددة. ومن أمثلة ذلك مراعاة المصالح والمفاسد في الفعل المعين، كما قال تعالى في الخمر والميسر ﴿ **قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾[3].

فكان من ثمرة ذلك أن استنار العقل المسلم بالوحي، فجاء إدراكه أتم وبعثه أقوى.

---

(١) عبد الرازق عفيفي: مذكرة التوحيد ص ٦، المكتب الإسلامي – بيروت ط١سنة ١٤٠٣هـ.

(٢) سورة فصلت، الآية [٣٤].

(٣) سورة البقرة، الآية [٢١٩].

## ثالثا: السلطان:

لقد حرص الإسلام على بناء الفرد بناءً إيمانياً متيناً يدفعه من داخله إلى المسارعة في الخيرات والفضائل، والتباعد عن الشرور والرذائل، رغبة في ثواب الله -عز وجل- وخوفًا من عقابه. ولذا جاءت شرائع الإسلام محققة «الصلاح باطنًا وظاهرًا للخاصة والعامة في المعاش والمعاد» [١].

ولكن لما كان في الناس من لا يكفي وعد الآخرة ووعيدها في حمله على فعل ما يجب وترك ما يحرم؛ شرعت العقوبات السلطانية معينة على تحقيق ذلك في حياة الناس. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من يكون من المنافقين والفجار فإنه ينزجر بما يشاهده من العقوبات، وينضبط عن انتهاك المحرمات، وهذه بعض فوائد العقوبات السلطانية المشروعة» [٢]. وقد قال عثمان- رضي الله عنه-: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[٣].

وذكر الماوردي أن من القواعد المهمة لصلاح الدنيا وانتظام أحوالها: السلطان القاهر، الذي «تتألف برهبته الأهواء المختلفة، وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة، وتنكف بسطوته الأيدي المتغالبة، وتنقمع من خوفه النفوس المتعادية»[٤]. وبين أن الحاجة إليه تعظم إذا ضعف وازع العقل والدين فقال: «العقل والدين ربما كانا مضعوفين، أو بداعي الهوى مغلوبين، فتكون رهبة السلطان أشد زجرًا، وأقوى ردعًا» [٥].

---

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى (١١/٤١٥ -٢٤٦).
(٢) المرجع السابق ص ٤١٦.
(٣) المرجع السابق: الصفحة نفسها.
(٤) الماوردي: أدب الدنيا والدين ص ١٣٧.
(٥) المرجع السابق: الصفحة نفسها.

وقد نص العلماء على أن من واجبات ولي الأمر إلزام الناس بالفرائض والواجبات الشرعية، ومنعهم من المحرمات، مع معاقبة من قصر منهم في الأولى أو تعدى في الثانية [1]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « الذي يخون أمانته.. أو يغش في معاملته، أو يطفف المكيال والميزان، أو يشهد الزور، أو يعتدي على رعيته، إلى غير ذلك من المحرمات، فهؤلاء يعاقبون تعزيراً وتنكيلاً وتأديبًا بقدر ما يراه الوالي، على حسب كثرة ذلك الذنب في الناس وقلته.. على حسب كبر الذنب وصغره »[2].

وإذا كانت العقوبات السلطانية هي الأقوى دلالة على إلزام الحاكم بالفضيلة الخلقية، فإن مسؤوليته عن الأخلاق والفضيلة تتجاوز هذا القدر، فمن ذلك أن عليه أن يسعى في تيسير طريق الخير والطاعة والفضيلة، ومنع الشر والرذيلة، وسد أبوابها، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: « وكما أن العقوبات شرعت داعية إلى فعل الواجبات وترك المحرمات، فقد شرع أيضًا كل ما يعين على ذلك، فينبغي تيسير طريق الخير والطاعة والإعانة عليه والترغيب فيه بكل ممكن..

---

(١) انظر: الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٦. دار الكتب العلمية – بيروت ،سنة ١٣٩٨هـ. ابن قدامة: المغني (٥٢٦/١٢)، تحقيق: عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلو، طبع هجر للطباعة والنشر– القاهرة، ط١ سنة ١٤١٠هـ. النووي: المجموع شرح المهذب (٢٠/ ١٢١) دار الفكر– بيروت سنة ١٤٠٧هـ.

(٢) السياسة الشرعية ص ١١٩-١٢٠ مختصراً، طبع دار الكتاب العربي (٢٠ /١٢١). وانظر: الأحكام السلطانية ص ١٥٣.

ولهذا شرعت المسابقة بالخيل والإبل والمناضلة بالسهام وأخذ الجُعل عليها.. حتى كان النبي -ﷺ- يسابق بين الخيل [1]، هو وخلفاؤه الراشدون، ويخرجون الأسباق [2] من بيت المال... وكذلك الشر والمعصية ينبغي حسم مادته وسد ذريعته ودفع ما يفضي إليه إذا لم يكن فيه مصلحة راجحة » [3].

ومنها أن على ولى الأمر تقديم أهل الكفاية والأمانة في الأعمال والوظائف المختلفة؛ حتى يقيموا العدل، ويمنعوا الظلم ويحفظوا للناس حقوقهم. يقول الماوردي: إن من واجبات الإمام « استكفاء الأمناء، وتقليد النصحاء فيما يفوضه إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة، والأموال بالأمناء محفوظة » [4].

وأما عن رأي مسكويه وابن القيم في هذا العنصر، فكلاهما يرى أن من واجبات الحاكم الأمر بالفضيلة الخلقية والنهي عن ضدها، ولكن مسكويه يرى أن العقل هو المنبع الذي يستقي منه الحكام الأحكام والتشريعات التي يلزمون الناس بها ويؤاخذونهم على الإخلال بها [5]. وأما ابن القيم فإنه يقرر أهمية العقوبات السلطانية في الإلزام بالفضيلة الخلقية، ولكنه يؤكد أن الشرع هو

---

(١) في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر (( أن رسول الله – ﷺ – سابق بين الخيل..)) رواه البخاري في كتاب الجهاد ، باب السبق بين الخيل. ومسلم في الإمارة، باب المسابقة بين الخيل وتضميرها.

(٢) أي ما يجعل من المال على المسابقة. انظر: النهاية في غريب الحديث (٣٣٨/٢).

(٣) ابن تيمية: السياسة الشرعية، ص ٤٨- ١٤٩.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٦. أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية ص ٢٨، دار الكتاب العلمية – بيروت ،سنة ١٤٠٣هـ.

(٥) انظر: ما تقدم ص٢٨٠.

الأساس في وجوب طاعة الحكام، ولما يجب أن يأمروا به، يقول ابن القيم: « إن على ولي الأمر أن يأمر بالجمعة والجماعة، وأداء الأمانة والصدق والنصح في الأقوال والأعمال، وينهى عن الخيانة وتطفيف المكيال والميزان، والغش في الصناعات والبياعات، ويتفقد أحوال المكاييل والموازين وأحوال الصناع... ويمنع صاحب كل صناعة من الغش في صناعته... »[1]. ويؤكد لزوم العقوبات للمخل بالفضيلة والمقارف للرذيلة فيقول: « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لايتم إلا بالعقوبات الشرعية، فإن الله يزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن، وإقامة الحدود واجبة على ولاة الأمور، والعقوبة تكون على فعل محرم، أو ترك واجب»[2]. ويقول مبيناً وظيفة الحاكم، والضابط لما يأمر به وينهي عنه: «جميع الولايات الإسلامية مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[3]. ولذا لو أمر الحاكم بمنكر فإنه لا يطاع في ذلك؛ لأن في طاعته معصية لله -عز وجل-، يقول ابن القيم: « لا تسوغ طاعة ولي الأمر فيه { في محرم }؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[4].

وما ذهب إليه ابن القيم هو الحق؛ لأن كمال قيام الحاكم بوظيفته إنما يكون باستمداده فيما يأمر به وينهي عنه من منبع يحقق له كمال العلم بالفضيلة الخلقية، وقد تقدم أن العقل لا يفي بذلك. ثم إن جعل المرجع للحاكم هو العقل -مع تفاوته في الناس- يتضمن غياب ميزان يحكم به على تصرفات

---

(١) الطرق الحكمية ص ٢١٩، طبع دار الكتب العلمية – بيروت.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٤.

(٣) المرجع السابق ص ٢١٧.

(٤) زاد المعاد ج٣ ص ٣٦٩.

الحاكم نفسه، وبذلك يكون كل ما يفعله حقاً وصوابًا ما دام منساقًا فيه مع أحكام عقله وفكره، ولو جر المصائب والويلات.

وأيضًا فإن البواعث على الطاعة لما يأمر به الحاكم وينهى عنه تختلف في حال استمداده من الشرع عنها في حال اعتماده على غيره. ذلك أنه عندما يسير وفق منهج الله -عز وجل- يجد قبولاً من الناس لما يأمر به ويرغب فيه، واستحساناً لما يدعو إليه لموافقته لعقولهم وفطرهم. وفوق هذا فإن الإسلام يفرض على الناس طاعته ويحذرهم من معصيته، ولذا فإن الطاعة لولي الأمر في ظل الإسلام أعظم، والاستجابة لأمره أكبر. وهي أيضاً باقية حتى ولو ضعف سلطانه.

ولكن مع هذا الأثر المتميز للسلطة التي تمارسها الدولة الإسلامية في توجيه الناس للفضائل، وكفهم عن المخالفات والرذائل، فإن هذا لا يسوغ القول إن الوازع السلطاني مصدر إلزام في الإسلام [١]. لأن ولي الأمر في الإسلام إنما يستمد سلطانه من الشرع الذي ألزم بطاعته، ونهي عن مخالفته [٢]. ويدل على هذا أن طاعته ليست مطلقة - كما أشار إلى ذلك ابن القيم- بل في حدود شرع الله -عز وجل-، ولذا لا طاعة له إذا دعا إلى باطل أو أراد إلزام الناس بمنكر، كما قال -عليه الصلاة والسلام-: « لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف » [٣].

---

(١) ممن قال بهذا د. محمد الجليند في كتابه: في الفلسفة الخلقية لدى مفكري الإسلام ص ١٢٣ مكتبة نهضة الشرق – القاهرة.

(٢) قال الغزالي: (( وأما السلطان والسيد والأب والزوج، فإذا أوجبوا لم يجب شيء بإيجابهم، بل بإيجاب الله تعالى طاعتهم )) المستصفى (٨٣/١).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية . ومسلم في كتاب الأمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية.

وبعد هذا فإنه يتبين من عناية الإسلام بهذا العنصر حرصه على سيادة الفضيلة الخلقية ولو كان بحمل الناس عليها بغير اختيارهم. مما يؤكد خطأ النظرة المغالية في مسألة الحرية والإرادة. لأن العقوبات السلطانية نوع من الإكراه على الفضيلة الخلقية، ولكنه إكراه محمود بالنظر إلى آثاره الخيرة على الفرد والمجتمع. ثم إن العقوبات الشرعية -على اختلافها- تظل محل احترام حتى ممن يمسه إيلامها، أو يلحق به لعارض معين ما يؤذيه منها. لأنها جزء من بناء الإسلام العظيم الذي آمن به عن رغبة واقتناع واختيار[1].

ولذا يمكن القول إن الإلزام المرفوض والذي هو نوع من الإكراه المذموم، هو ذلك الإلزام الذي يخلو من الأثر الخير، وهو أيضًا الذي لا يجد في النفس قاعدة يستند إليها، أو مبررًا صحيحًا يدعو للاستجابة له. كالإلزام بالدخول في الدين مثلاً، أو إلزام من لم يدخله بالعبادة ونحو ذلك.

---

(١) لعل من شواهد هذا سعي بعض من وقع منهم تقصير في عهد الرسالة إلى تطهير أنفسهم بإقامة الحدود عليهم مندفعين إلى ذلك من ذواتهم.

# الخاتمة

بعد هذه الدراسة لآراء مسكويه وابن القيم الخلقية، أجمل أبرز نتائج هذا البحث في النقاط الآتية:

- امتازت دراسات علماء السلف وبحوثهم في مجال الأخلاق بالدقة والإيجابية، والبعد عن التكلف أو الخوض فيما لا طائل وراءه ولا منفعة فيه؛ كالتكلف في تعريف مفردات الأخلاق وبيان حدودها.
- إن إعراض علماء المسلمين عن الثقافات الوافدة ونأيهم عنها ليس لجهلهم بها، وإنما لمعرفتهم بانحرافها، ووقوفهم على قصورها، وفساد أسسها وأصولها. ولثقتهم بهذا الدين، وإيمانهم بعظمته وكماله، ويقينهم بصحة ما جاء به من أحكام وتشريعات وآداب، تحقق للناس الخير والسعادة، وتغنيهم عن تلقف التشريعات والمناهج من الشرق أو الغرب.
- للوقوف مع النصوص ومراعاة قواعد الشريعة وضوابطها أثر ظاهر في سلامة الآراء، وصواب الأفكار، ودقة التحليلات، كما تجلى هذا في عامة آراء ابن القيم الخلقية وتحليلاته. وفي المقابل ظهور الخلل والقصور في كثير من آراء مسكويه نتيجة إعراضه عن نصوص الكتاب والسنة، ومتابعته للفلاسفة اليونان.
- تضمن الفكر الصوفي كثيراً من الوصايا، والتوجيهات الخلقية السديدة، إلا أنه بحاجة إلى التمحيص بعرض ما صدر عن المتصوفة من آراء وأفكار على نصوص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة لاستبعاد ما فيها من شطحات وأخطاء تبتعد عن هدي الكتاب والسنة. وبذلك يصبح تراث المتصوفة مورداً عذباً ينتفع به في تهذيب النفوس و تقويم الأخلاق.

- إن في إغفال الحديث عن الإيمان وأثره في البناء الخلقي -كما فعل مسكويه- تفريطاً في واحد من أهم الأسس الدالة على الفضيلة والباعثة عليها. بل إن الغفلة عن رعايته، والتقصير في تنميته، سبب لاضمحلال كثير من الممارسات الخلقية الفاضلة، وشيوع كثيرمن الانحرافات والمفاسد الخلقية.
- تمتاز الأخلاق الإسلامية باليسر والواقعية، كما دلت على ذلك نصوص الشريعة، وبين ذلك العلماء، ومنهم الإمام ابن القيم. بينما يُضفي الفلاسفة -ومنهم مسكويه- على الفضيلة صفة العسر والغموض -كما قرروا ذلك عند حديثهم عن الوسط المحمود في الفضيلة الخلقية- مما يجعلها بعيدة المنال صعبة الإدراك، بل وتحمل في ذاتها مبررًا للتخلي عنها وتعطيلها.
- إن التعويل على غير الوحي في البعث على الفضيلة الخلقية يتضمن هدمًا لفكرة الإلزام (وحقيقته الأمر بالفضيلة، والنهي عن ضدها، مع الجزاء المؤثر - إثابة ومعاقبة- المتوافق مع الموقف منها) لأن ما عدا الوحي من العناصر- كالعقل أو الضمير أو العرف الاجتماعي، التي قيل عنها إنها مصادر للإلزام- ليس لها من القوة أو الاستقلال في الأمر والنهي، والإثابة والمعاقبة ما يمنحها صفة الإلزام. وبالتالي فإن الفضيلة في حال البعد عن هداية الوحي، والعمل بمقتضاه تقف عند حد كونها أمرًا مرغوبًا فيه فحسب.
- حرص الإسلام على سيادة الفضيلة ولو خلا القائم بها عن إرادة خيرة ونية صالحة، حتى تُحفظ الحقوق، وتُصان الحرمات، ويلتزم الناس بأداء ما عليهم، ولا يتطاولوا إلى أخذ ما ليس لهم.

وبعد؛ فإن هذه الدراسة بما تضمنته من آراء وأفكار، وما توصلت إليه من نتائج تبرز الحاجة إلى ملاحظة أمور، أهمها:

- مواصلة الجهد في إبراز آثار علماء السلف في مجال الأخلاق، وإسهامهم المتفرد فيه. والكشف -في مقابل ذلك- عما في الدراسات الفلسفية وغيرها من ضعف وقصور، حتى تتعاظم ثقة الأجيال بهذا الدين، وما أثر عن علماء السلف- رحمهم الله-، ويسلموا من الميل مع الاتجاهات المنحرفة التي ألبست — زورًا - ثياب التعظيم والتبجيل، وأضيفت على المنتسبين لها عبارات الثناء والتقدير.
- لزوم العناية بسيرة الرسول -ﷺ-، لكونها تعد مثالاً للكمال الخلقي، بل والكمال الإنساني بكافة جوانبه. كما ينبغي الاهتمام بسير الصحابة والتابعين ومن بعدهم من سلف الأمة، وإبرازها للنشء، وتعليمها للأمة، لتكون باعثة على التأسي والاقتداء والمتابعة.
- لما كان الإيمان أقوى البواعث على سلوك طريق الفضيلة والبعد عن مسالك الرذيلة، فإن الواجب العناية التامة بغرسه في النفوس وترسيخه في القلوب، عن طريق دور التربية ومناهج التعليم ووسائل الإعلام، حتى تسهم -مجتمعة- في بناء جيل راسخ الإيمان متين الأخلاق. كما ينبغي المحافظة على الفطرة وإبعاد المؤثرات السيئة عنها، لتبقى النفوس محبة للفضيلة ومهيأة لاكتسابها والاستقامة عليها.
- السعي في تربية الأمة على الأخلاق الكريمة، والمعاني الفاضلة، والجمع في العملية التعليمية بين التعليم والتربية، لما تقرر في ثنايا هذا البحث من أن العلم بالفضيلة غير كاف وحده للعمل بمقتضاها.

هذا وأسأل الله تعالى التوفيق والتسديد، وصلاح القول والعمل، مع الإخلاص في ذلك، والحمد لله رب العالمين.



# فهرس المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**
- **ابن قيم الجوزية..** حياته وآثاره: بكر أبو زيد، مطابع دار الهلال-الرياض، ط١ سنة ١٤٠٠هـ.
- **ابن قيم الجوزية:** عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف: عبدالعظيم شرف الدين، مكتبة الكليات الأزهرية، ط٢ سنة ١٣٧٨هـ.
- **ابن مسكويه:** فلسفته الخلقية ومصادرها:عبدالعزيز عزت، مطبعة مصطفي البابي الحلبي بمصر، ط١، س١٩٤٦م.
- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم:** للمقدسي، مطبعة بريل - ليدن، ط٢ سنة ١٩٠٩م.
- **الأحكام السلطانية:** الماوردي، دار الكتب العلمية- بيروت سنة ١٣٩٨هـ.
- **الأحكـــام السلطانية:** لأبى يعلي الفراء، دار الكتب العلمية-بيروت، سنة ١٤٠٣هـ.
- **أحكـــام أهـــل الذمة:** ابـن القـيم، تحقيق: صبحي الصالح، نشر دار العلم للملايين- بيروت، ط٢ سنة ١٤٠١هـ.
- **الإحكام في أصول الأحكام:** الآمـدي، تعليق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، ط٢ سنة ١٤٠٢هـ.
- **إحياء علوم الدين:** الغزالي، دار المعرفة - بيروت سنة ١٤٠٢هـ.
- **إخـــبار العلمـــاء بأخـــبار الحكماء:** للقفطي، مطبعة السعادة بمصر، سنة ١٣٢٦هـ.
- **الأخلاق:** أحمد أمين، دار الكتاب العربى - بيروت، ١٩٧٤م.

- **الأخـــلاق الإســـلامية وأسسها:** عـبد الـرحمن حبنكه الميداني، دار القلم دمشق، ط١ سنة ١٣٩٩هـ.
- **الأخـــلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام:** مـصطفي حلمـي، دار الثقافة العربية بمصر، سنة ١٤٠٧هـ.
- **الأخـــلاق في الإسلام والفلسفة القديمة:** أسعد السحراني، دار النفائس- بيروت، ط١ سنة ١٤٠٨هـ.
- **الأخلاق النظرية:** عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات - الكويت.
- **أدب الدنيا والدين:** الماوردي، دار مكتبة الهلال - بيروت ١٩٨٥م.
- **الأدب المفرد:** للبخاري، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **إرشاد الفحول:** الشوكاني، دار الفكر- بيروت.
- **الاســـتيعاب في معـــرفة الأصحاب:** ابـن عـبد البر، بهامش الإصابة، دار الكتاب العربي- بيروت.
- **أسد الغابة في معرفة الصحابة:** ابن الأثير، دار الفكر.
- **أسس الحضارة الإسلامية:** عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم- دمشق، ط٢ سنة ١٤٠٠هـ.
- **أسس الفلسفة:** توفيق الطويل، دار النهضة العربية - القاهرة.
- **الأشباه والنظائر:** ابن نجيم، دار الكتب العلمية -بيروت، ط١سنة ١٤٠٠هـ.
- **الأشباه والنظائر:** السيوطى، دار الكتب العلمية -بيروت، ط١سنة ١٣٩٩هـ.
- **الإصابة في تمييز الصحابة:** لابن حجر، دار الكتاب العربى - بيروت.
- **أصـــول أهـــل الـــسنة والجماعة ( المسماة برسالة الثغر):** لأبـي الحسن الأشعري، تحقيق: محمد الجليند، دار اللواء- الرياض، ط٢ سنة ١٤١٠ه.

- **أصـــول الفقه**: محمد أبو النور زهير، مكتبة الفيصلية - مكة المكرمة، سنة ١٤٠٥هـ.
- **الأعـــلام**: خير الـدين الزركلي، دار العلـم للملايين- بيروت، ط٧ سنة ١٩٨٦م.
- **إعـــلام الموقعين عن رب العالمين**: ابن القيم، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر- بيروت، ط٢ سنة ١٣٩٧هـ.
- **أعيان الشيعة**: محسن بن عبد الكريم العاملي، بتحقيق: حسن الأمين، دار التعارف- بيروت، سنة ١٤٠٦هـ.
- **إغاثـــة اللـــهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، بتحقيق**: محمـد حامد الفقي، مكتبة عاطف بمصر.
- **الأغاني**: لأبى الفرج الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- **إكرام الضيف**: إبراهيم الحربي، تحقيق: عبد الله الغرازي، مكتبة الصحابة بطنطا، ط١ سنة ١٤٠٧هـ.
- **الإمتاع والمؤانسة**: لأبى حيان التوحيدي، بتحقيق: أحمد أمين وأحمد زين، المكتبة العصرية - بيروت.
- **الإيمان والحياة**: يوسـف القرضـاوي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٤ سنة ١٣٩٩هـ.
- **بدائع الفوائد**: ابن القيم، لم يثبت عليه مكان الطبع ولا سنته.
- **البداية والنهاية**: لابن كثير، مكتبة المعارف- بيروت.
- **البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع**: الـشوكاني، مطبعة السعادة- القاهرة، ط١ سنة ١٣٤٨هـ.

- **بغيـة الـوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**: السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية- بيروت.
- **بلوغ المرام من أدلة الأحكام**: ابن حجر العسقلاني، بتحقيق: محمد حامد الفقي، دار الفكر سنة ١٣٤٨هـ.
- **بهجـة قلـوب الأبرار وقرة عيون الأخيار**: عبدالرحمن بن سعدي، طبع مركز صالح بن صالح بعنيزة سنة ١٤١١هـ.
- **البيان والتبيين**: الجاحظ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **تاريخ الأخلاق**: محمد يوسف موسى، دار الكتاب العربى بمصر، ط٣ سنة ١٣٧٣هـ.
- **تاريخ الأمم والملوك**: ابن جرير الطبري، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١ سنة ١٤٠٧هـ.
- **تاريخ الخلفاء**: السيوطي، دار الفكر سنة ١٣٩٤هـ.
- **الـتاريخ الـسياسي والفكري**: للمذهب السني في المشرق الإسلامي في القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد. عبد المجيد بدوي،عالم المعرفة- جدة، ط١ سنة ١٤٠٣هـ.
- **تاريخ الفلسفة الحديثة**: يوسف كرم، دار القلم - بيروت.
- **التبيان في أقسام القرآن**: ابن القيم، مكتبة الرياض الحديثة.
- **تتمة صوان الحكمة**: لظهير الدين البيهقي، طبع في لاهور سنة ١٣٥١هـ.
- **تتمة يتيمة الدهر في محاسن العصر**: الثعالبي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١ سنة ١٤٠٣هـ.
- **تجارب الأمـم**: مسكويه، بتصحيح: هـ ف آمدروز، مصر سنة ١٣٣٢هـ.

- **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**: المباركفوري، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ط٢ سنة ١٣٨٥هـ.
- **تحفة المودود في أحكام المولود**: ابن القيم، تحقيق: بشير عيون، دار البيان- دمشق، ط١ سنة ١٣٩٦هـ.
- **التشريع والفقه الإسلامي تاريخا ومنهجا**: مناع القطان، مكتبة وهبة، ط١ سنة ١٣٩٦هـ.
- **التعريفات**: الجرجاني، تحقيق: عبد الرحمن عميرة،عالم الكتب-بيروت، ط ١ سنة ١٤٠٧هـ.
- **تفسير القرآن العظيم**: لابن كثير، دار إحياء التراث العربي- بيروت سنة ١٣٨٨هـ.
- **تقريب التهذيب**: لابن حجر، دراسة ومقابلة: محمد عوامة، دار الرشيد - حلب، ط١ سنة ١٤٠٦هـ.
- **التقريب لفقه ابن القيم**: بكر أبوزيد، مطابع دار الهلال- الرياض.
- **تهذيب الأخلاق**: يحي بن عدي، تعليق: إبراهيم محمد، دار الصحابة للتراث، ط١.
- **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**: مسكويه، دار مكتبة الحياة - بيروت. إضافة إلى طبعة: دار الكتب العلمية- بيروت، ط١ سنة ١٤٠٥هـ.
- **تهذيب سنن أبي داود**: ابن القيم، بهامش عون المعبود، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ط٢ سنة ١٣٩٨هـ.
- **التوضيح والبيان لشجرة الإيمان**، عبد الرحمن بن سعدي، مكتبة المعارف - الرياض ١٤٠٦هـ.

- **الجامع لأحكام القرآن**: القرطبي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، سنة ١٩٦٥م.- جامع الرسائل: ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مطبعة المدني بمصر، ط٢ سنة ١٤٠٥هـ.
- **جاويدان خرد [ الحكمة الخالدة ]**: مسكويه، بتحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس- بيروت.
- **جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام**: ابن القيم، دار المحمدية بالأزهر سنة ١٣٩٢هـ.
- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**: ابن القيم، دار الندوة الجديدة- بيروت ١٤٠٧هـ.
- **الحافظ أحمد بن تيمية**: لأبى الحسن الندوي، دار القلم- الكويت ١٤٠١ هـ.
- **الحسبة في الإسلام**: ابن تيمية، دار الكاتب العربي.
- **الحِلم**: لابن أبى الدنيا، تحقيق: مجدي إبراهيم، مكتبة القرآن- القاهرة.
- **خصائص التصور الإسلامي**: سيد قطب، دار الشروق - بيروت، ط ٨ سنة ١٤٠٣هـ.
- **الخصائص العامة للإسلام**: يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط٣ سنة ١٣٩٨هـ.
- **الدارس في أحكام المدارس**: عبدالقادر النعيمي، مطبعة الترقي- دمشق، سنة ١٣٦٧هـ.
- **درء تعارض العقل والنقل**: لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض، ط١ سنة ١٤٠٢هـ.

- **دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية**: محمد عبد الله دراز، دار القلم - الكويت ١٤٠٥هـ.
- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: لابن حجر العسقلاني، دار الجيل- بيروت سنة ١٤١٤هـ.
- **دستور الأخلاق في القرآن**: محمد عبد الله دراز، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٤ سنة ١٤٠٢هـ.
- **الدين**: محمد عبد الله دراز، دار القلم- الكويت ١٤٠٠هـ.
- **ذيل طبقات الحنابلة**: ابن رجب، دار المعرفة- بيروت.
- **ذيل العبر في خبر من غبر**: الحسيني، تحقيق: محمد رشاد عبد المطلب، مطبعة حكومة الكويت.
- **ذيل الملل والنحلل للشهرستاني**: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة - بيروت، سنة ١٤٠٠هـ.
- **الرد على المنطقيين**: ابن تيمية، إدارة ترجمان السنة- باكستان، ط٢ سنة ١٣٩٦هـ.
- **الروح**: ابن القيم، دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٣٩٥هـ.
- **روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات**: محمد باقر الموسوي الخوانساري، مطبعة الحيدرية - طهران سنة ١٣٩٠هـ.
- **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**: ابن القيم، تحقيق: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي- بيروت، ط٢ سنة ١٤٠٧هـ.
- **زاد المسير في علم التفسير**: لابن الجوزي، المكتب الإسلامي- بيروت، ط ٤ سنة ١٤٠٧هـ.

- **زاد المعـــاد في هـــدي خير العباد**: ابـن القيم، تحقيق: شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط١ سنة ١٣٩٩هـ.
- **سلسلة الأحاديث الصحيحة**: الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط٢ سنة ١٣٩٩هـ.
- **سلـــسلة الأحاديـــث الـــضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة**: للألباني- المكتب الإسلامي- بيروت، ط١ سنة ١٣٩٩هـ.
- **ســـنن أبي داود**: [صـحيح سـنن المـصطفي]، لأبي داود السجستاني، دار الكتب العلمية- بيروت.
- **السياسة الشرعية**: ابن تيمية، دار الكتاب العربي.
- **سير أعلام النبلاء**: للـذهبي، تحقـيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط٤ سنة ١٤٠٦هـ.
- **شـــذرات الـــذهب في أخبار من ذهب**: لابـن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- **شرح السنة**: البغوي، تحقيق: زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي- بيروت، ط١ - سنة ١٣٩٠هـ.
- **شـــرح العقيدة الطحاوية**: لأبـي العـز الحنفي، بتخريج: الألباني، المكتب الإسلامي- بيروت، ط٦ سنة ١٤٠٠هـ.
- **الشعر والشعراء**: لابن قتيبة، عالم الكتب- بيروت.
- **شـــفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**: لابـن القيم، نشر مكتبة دار التراث- القاهرة.

- **صـــحيح البخاري**: للإمـام الـبخاري، طبع المكتبة الإسلامية، استانبول - تركيا.
- **صحيح الجامع الصغير وزيادته**: الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط ٣ سنة ١٤٠٢هـ.
- **صـــحيح سنن أبي داود**: الألبانـي ، المكتب الإسلامي - بيروت ، ط١ سنة ١٤٠٩هـ.
- **صـــحيح سنن الترمذي**: للألبانـي، المكتب الإسلامي- بيروت، ط١ سنة ١٤٠٨هـ.
- **صـــحيح مسلم**: للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء - الرياض.
- **صفة الصفوة**: لابن الجوزي، دار المعرفة- بيروت ط٣ سنة ١٤٠٥هـ.
- **ضعيف الجامع الصغير وزيادته**: للألبانـي، المكتب الإسلامي- بيروت، ط ٢ سنة ١٣٩٩هـ.
- **طبقات الأطباء والحكماء**: لابـن جلجـل، تحقيق: فؤاد سيد، طبع مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٢ سنة ١٤٠٥هـ.
- **طبقات الشافعية**: الأسنوي، مطبعة الإرشاد - بغداد، ط١سنة ١٣٩١هـ.
- **طبقات الصوفية**: أبـو عـبد الرحمن السلمي، تحقيق: نور الدين شريبة، دار الكتاب النفيس -حلب، ط٢ سنة ١٤٠٦هـ.
- **طـــبقات فحول الشعراء**: محمـد بـن سلام الجمحي، شرح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني - القاهرة.
- **الطبقات الكبرى**: لابن سعد، دار صادر- بيروت، سنة ١٤٠٥هـ.

- **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**: ابن القيم، دار الكتب العلمية- بيروت.
- **طريق الهجرتين وباب السعادتين**: ابن القيم، دار الكتاب العربي- بيروت.
- **عدة الصابرين**: ابن القيم، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **علم الأخلاق الإسلامية**: مقداد يالجن، دار عالم الكتب - الرياض، ط١ سنة ١٤١٣هـ.
- **علم الأخلاق إلى نيقوماخوس**: أرسطو، ترجمة: أحمد لطفي السيد، دار صادر ١٣٤٣هـ.
- **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**: ابن أبي أصيبعة، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة - بيروت.
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة - بيروت.
- **الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**: أحمد البنا، دار الشهاب- القاهرة.
- **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**: ابن تيمية، المكتب الإسلامي- بيروت، ط٤ سنة ١٣٩٧هـ.
- **الفرق بين الفرق**: عبد القادر البغدادي، دار التراث - القاهرة.
- **الفروق**: القرافي، دار المعرفة - بيروت.
- **الفصل في الملل والأهواء والنحل**: ابن حزم، المطبعة الأدبية- مصر، ط١ سنة ١٣١٧هـ.

- **فضائل الصحابة**: للإمـام أحمـد، تحقيق وتخريج: وصي الله بن محمد عباس، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط١ سنة ١٤٠٣هـ.
- **الفكر التربوي عند ابن القيم**: حسن حجاجي، دار حافظ للنشر والتوزيع جدة، ط١ سنة ١٤٠٨هـ.
- **فلـسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية**: لمحمد يوسف موسى، مؤسسة الخانجي- القاهرة، سنة ١٩٦٣م.
- **الفلـسفة الأخلاقـية في الفكر الإسلامي**: أحمـد صبحي،دار المعارف- القاهرة، ط٢.
- **الفلسفة الخلقية**: توفيق الطويل، منشأة المعارف بالإسكندرية.
- **الفهرست**: لابن النديم، دار المعرفة - بيروت.
- **الفوائد**: لابن القيم، دار الفكر.
- **فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت**: عبد العلي الأنصاري، على هامش المستصفي للغزالي، دار العلوم الحديثة - بيروت.
- **في الأخـلاق الإسـلامية والإنـسانية**: علي معبد فرغلي، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ط١ سنة ١٤٠٥هـ.
- **في الفلـسفة الخلقية لدى مفكري الإسلام**: محمـد الجليـند، مكتبة نهضة الشرق- القاهرة.
- **القامـوس المحـيط**: الفيروزبـادي، مؤسـسة الرسالة - بيروت، ط٢ سنة ١٤٠٧هـ.
- **قـواعد الأحكـام في مـصالح الأنام** - للعز بن عبدالسلام، دار الكتب العلمية- بيروت.

- **القـــواعد والأصـــول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة**: عبد الرحمن بن سعدي، مكتبة المعارف- الرياض سنة ١٤٠٦هـ.
- **الكامـــل في الـــتاريخ**: لابن الأثير، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١سنة ١٤٠٧هـ.
- **كتاب النبوات**، لابن تيمية، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.
- **كـــشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**: حاجي خليفة، دار الفكر ١٤٠٢هـ.
- **كـــنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**: علاء الدين علي المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة – بيروت، سنة ١٣٩٩هـ.
- **لسان العرب**: لابن منظور، دار صادر - بيروت.
- **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**: أبو الحسن الندوي، دار السلام، ط٩ سنة ١٣٩٦هـ.
- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: الهيثمي، دار الكتاب العربى - بيروت، ط٣ سنة ١٣٩٦هـ.
- **مجمل اللغة**: لابن فارس، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط١ سنة ١٤٠٤هـ.
- **مجموع الرسائل الكبرى**: ابن تيمية، دار الفكر.
- **المجموع شرح المهذب**: للنووي، دار الفكر- بيروت، سنة ١٤٠٧هـ.
- **مجمـــوع الفتاوى**: لابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، دار العربية للطباعة والنشر- بيروت.

- **مجمـوعة القـصائد المفيدة**: نـشر مكتبة الرياض الحديثة - الرياض، وقد تـضمن {الكافـية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية} المعرفة بالنونية، لابن القيم.
- **مختصر منهاج القاصدين**: ابـن قدامـة المقدسي، تحقيق: شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان - دمشق ١٣٩٨هـ.
- **مـدارج الـسالكين بـين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: لابـن القيم، بتحقـيق: محمـد حامـد الفقـي، دار الكـتاب العربـي- بـيروت، ط٢ سـنة ١٣٩٣هـ.
- **مذكـرة أصول الفقه على روضة الناظر**: محمد الأمين الشنقيطي، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
- **مـروج الـذهب**: للمـسعودي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ سنة ١٤٠٦هـ.
- **المـسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية**: عمـر عـودة الخطيب، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط٣ سنة ١٣٩٣هـ.
- **المستدرك**: الحاكم، دار المعرفة - بيروت.
- **المستـصفى من علم الأصول**: أبـى حامـد الغزالي، دار العلوم الحديثة - بيروت.
- **مـشكاة المصابيح**: للخطيب التبريـزي، بتحقيق وتخريج الألباني، المكتب الإسلامي- بيروت، ط٣ سنة ١٣٩٩هـ.
- **معجم الأدباء**: ياقوت الحموي، مطبوعات دار المأمون بمصر.

- **معجم البلدان**: ياقوت الحموي، تحقيق: فريد الجندي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١ سنة ١٤١٠هـ.
- **المعجم الفلسفي**: جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني - بيروت.
- **المعجم الفلسفي**: مجمع اللغة العربية، عالم الكتب - بيروت.
- **معجم مقاييس اللغة**: ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر سنة ١٣٩٩هـ.
- **المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، تركيا.
- **المغني**: ابن قدامة المقدسي، تحقيق: عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلو، طبع هجر للطباعة والنشر- القاهرة، ط١ سنة ١٤١٠هـ.
- **المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار**: لزين الدين العراقي، بهامش الإحياء للغزالي، دار المعرفة- بيروت، سنة ١٤٠٢هـ.
- **مفتاح دار السعادة**: ابن القيم، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.
- **المفردات في غريب القرآن**: الراغب الأصفهاني، دار المعرفة- بيروت.
- **مقارنة بين الغزالي وابن تيمية**: محمد رشاد سالم ، دار القلم- الكويت سنة ١٤٠٠هـ.
- **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، بتحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، ط٢ سنة ١٣٨٩هـ.
- **المقدمة**: لابن خلدون، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٤ سنة ١٣٩٨هـ.
- **مقدمة ابن الصلاح**: لابن الصلاح، دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٣٩٨هـ.

- **مكمـــل إكمال الإكمال، حاشية على إكمال إكمال المعلم لأبي عبدالله محمد الأبي المالكي**: محمـد بـن محمد السنوسي الحسيني، دار الكتب العلمية بيروت.
- **الملل والنحل**: الشهرستاني، دار المعرفة - بيروت، سنة ١٤٠٠هـ.
- **المنـــتظم في تـــاريخ الملوك والأمم**: لابن الجوزي، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١ سنة ١٣٥٩هـ.
- **مـــنهاج السنة النبوية: لابن تيمية**، تحقـيق: محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض، ط١ سنة ١٤٠٥هـ.
- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**: للمقريزي، دار صادر- بيروت.
- **الموســـوعة العربية الميسرة**: إشراف محمد شفيق غربال، دار إحياء التراث العربي.
- **الموســـوعة الفلـــسفية المختصرة**: تـرجمة فؤاد كامل وزميليه، دار القلم- بيروت.
- **الموســـوعة في سماحة الإسلام**: محمـد الـصادق عرجون، الدار السعودية- جدة، ط٢ سنة ١٤٠٤هـ.
- **الموســـوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط٢ سنة ١٤٠٩هـ.
- **الموطأ**: للإمام مالك، دار النفائس، ط٧ سنة ١٤٠٤هـ.
- **ميزان العمل**: للغزالي، دار الكتاب العربي - بيروت سنة ١٣٩٩هـ.

- **نـزهة الأرواح وروضـة الأفـراح في تـاريخ الحكمـاء والفلاسفة:** للشهرزوري، تعليق خورشيد أحمد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الهند ط١ سنة ١٣٩٦هـ.
- **نظـرات إسـلامية في مشكلة التمييز العنصري:** عمر عودة الخطيب، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط٢ سنة ١٣٩٨هـ .
- **نظرات في الإسلام:** محمد عبد الله دراز، دار الأرقم للطباعة والنشر سنة ١٣٩٢هـ.
- **النظـرية الخلقية عند ابن تيمية:** محمد عبد الله عفيفي، طبع مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات - الرياض، ط١ سنة ١٤٠٨هـ.
- **نقـض المنطق:** ابن تيمية، بتصحيح: محمد حامد الفقي، طبع مكتبة السنة المحمدية - القاهرة.
- **النهاية في غريب الحديث:** لابن الأثير، دار الفكر ١٣٩٩هـ.
- **هداية الحياري في أجوبة اليهود والنصارى:** لابن القيم، نشر دار الكتب العلمية- بيروت.
- **الهـوامل والشوامل:** لأبي حيان التوحيدي ومسكويه، تحقيق: أحمد أمين وأحمد زين، إصدار مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٣٧٠هـ.
- **الوافي بالوفيات:** الصفدي، باعتناء س. ديدرينغ، ط٢ سنة ١٣٩٤هـ.
- **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر:** للثعالبي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ سنة ١٤٠٣هـ.

## المجــلات

- صحيفة دار العلوم: العدد ٣، ذو القعدة ١٣٥٤هـ.
- مجلـة البحوث الإسلامية: العدد السابع، إصدار دار البحوث العلمية والإفتاء بالرياض، سنة ١٤٠٣هـ.
- مجلة دراسات عربية: العدد ١٢، سنة ١٩٩٠م.
- مجلة المقتطف: العدد ٥، ذو الحجة، سنة ١٣٦١هـ.
- مجلة المورد: العدد الثالث، سنة ١٣٩٣هـ.

# فهرس الموضوعات

| الموضـــــــوع | الصفحة |
|---|---|




مطابع الجامعة